




5 - سلسلة تكريم رواد الفكر والإبداع في مملكة البحرين

اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع في مملكة البحرين

تقي محمد البحارنة

من روّاد الثقافة في البحرين



إعداد

الدكتور منصور محمد سرحان

5- سلسلة تكريم رواد الفكر والإبداع في مملكة البحرين
اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع في مملكة البحرين

تقي محمد البحارنة

من روّاد الثقافة في البحرين

إعداد
الدكتور منصور محمد سرحان

اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع
بمملكة البحرين – ٢٠٠٦م

اسم المصنف : سلسلة تكريم رواد الفكر والإبداع في مملكة البحرين
تقي محمد البحارنة (من رواد الثقافة في البحرين)

نوعه : كتاب

مادته : سيرة ذاتية

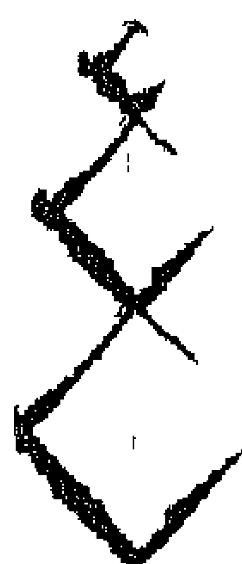
اسم المؤلف : د. منصور محمد سرحان

الناشر أو المطبعة : مركز الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة

البلد : البحرين

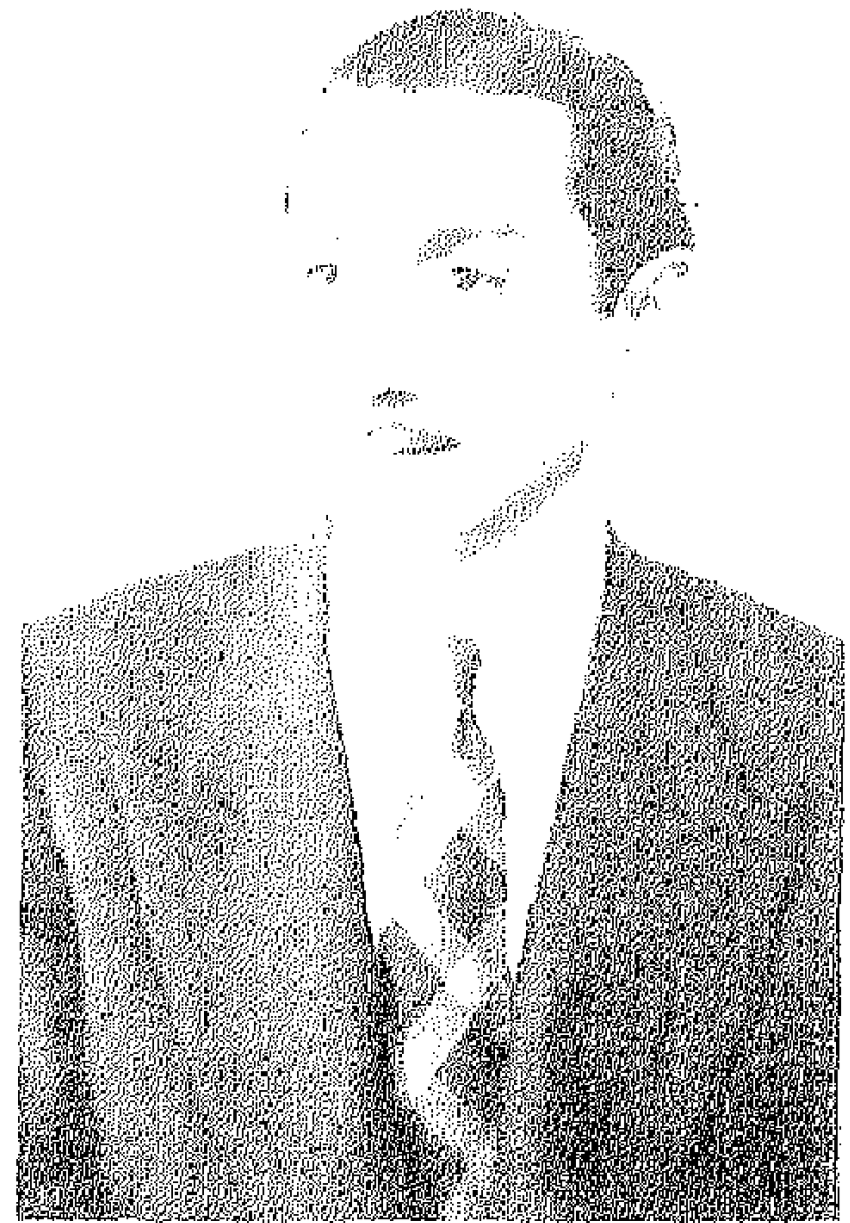
رقم الناشر الدولي : ISBN 99901-90-66-6

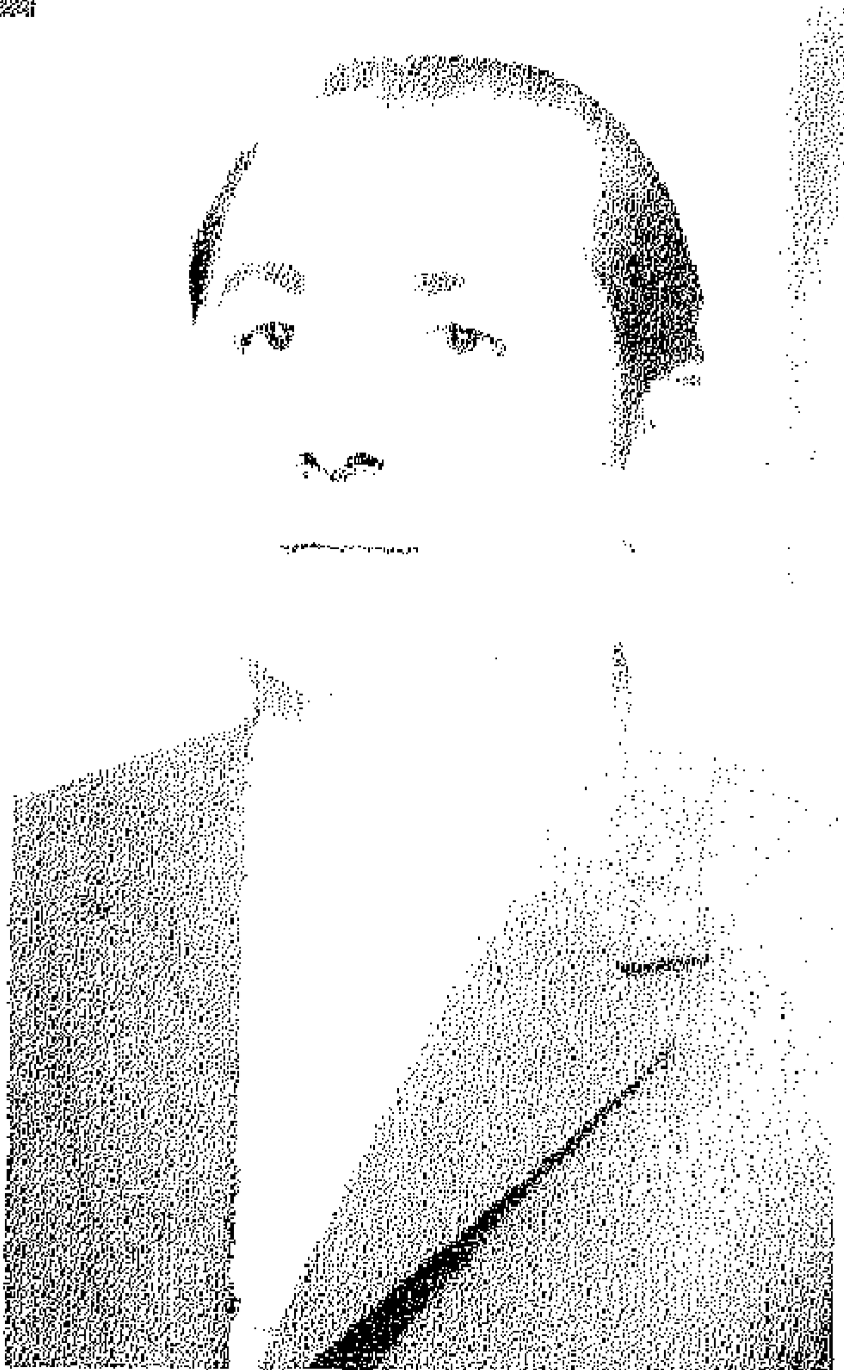
رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة : د.ع. ٥٠٩١/٢٠٠٦م











إهداء إلى

أسامة ، أيمن ، ياسر ، لميس

لكم أن تفخروا بأعمال والدكم الإبداعية

د. منصور محمد سرحان

المحتويات

المحاضرات :

* نهضتنا بين العروبة والإسلام - المنامة
* أمسية أدبية - المنامة
* حكايات منسية من أدب البحرين - لندن
* فضيلة الشيخ عبدالحسين الحلي - لندن

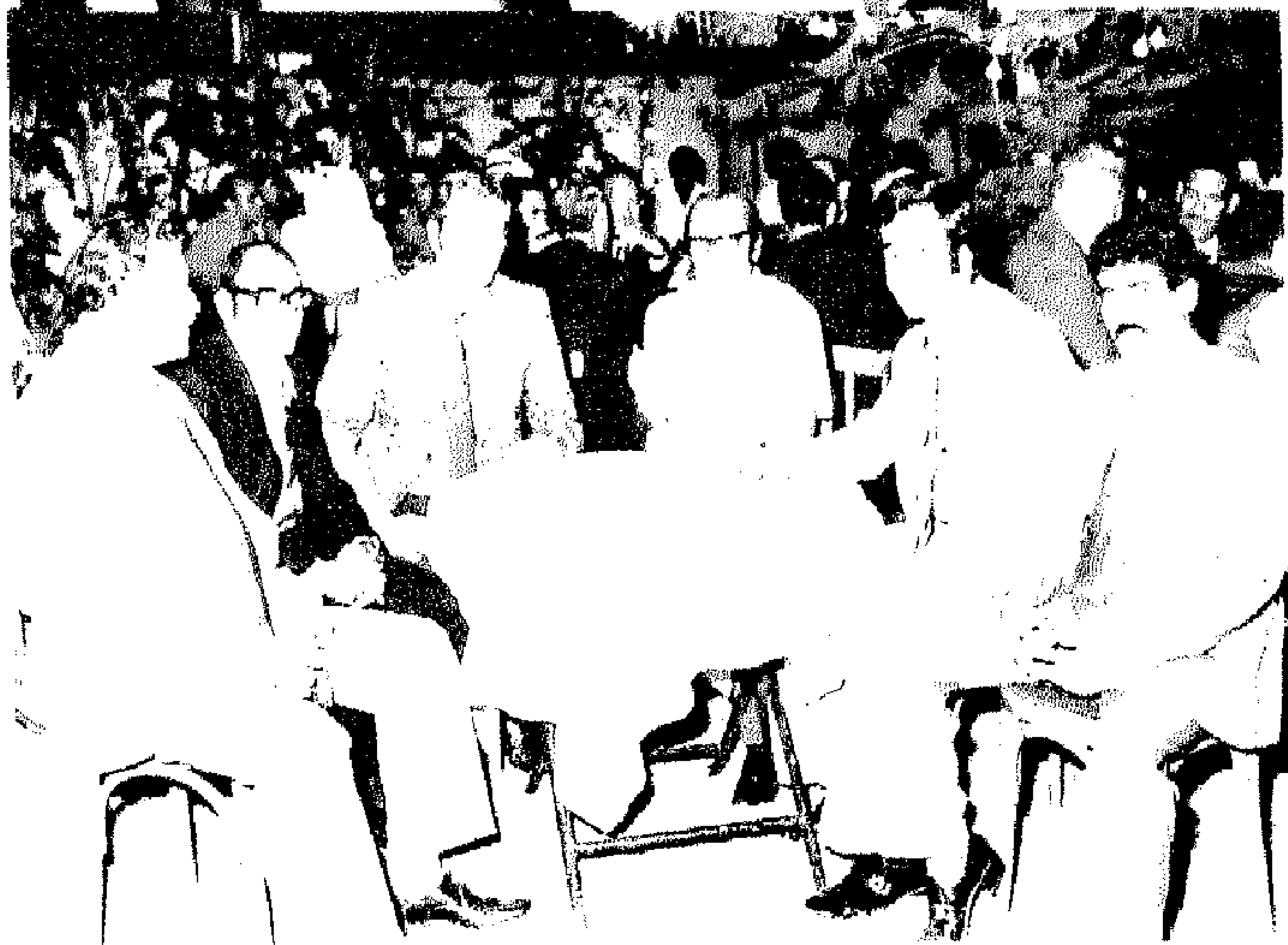
الفصل الخامس : أعمال غير منشورة

* إتحاد العمل البحراني
* نادي العروبة .. الوجه الآخر
* أمثال الشريف الرضي
* كلمة في حفل تكريم السيد عدنان العوامي

الفصل السادس :

* تقي محمد البحارنة في سطور
* صور (محطات من حياته)

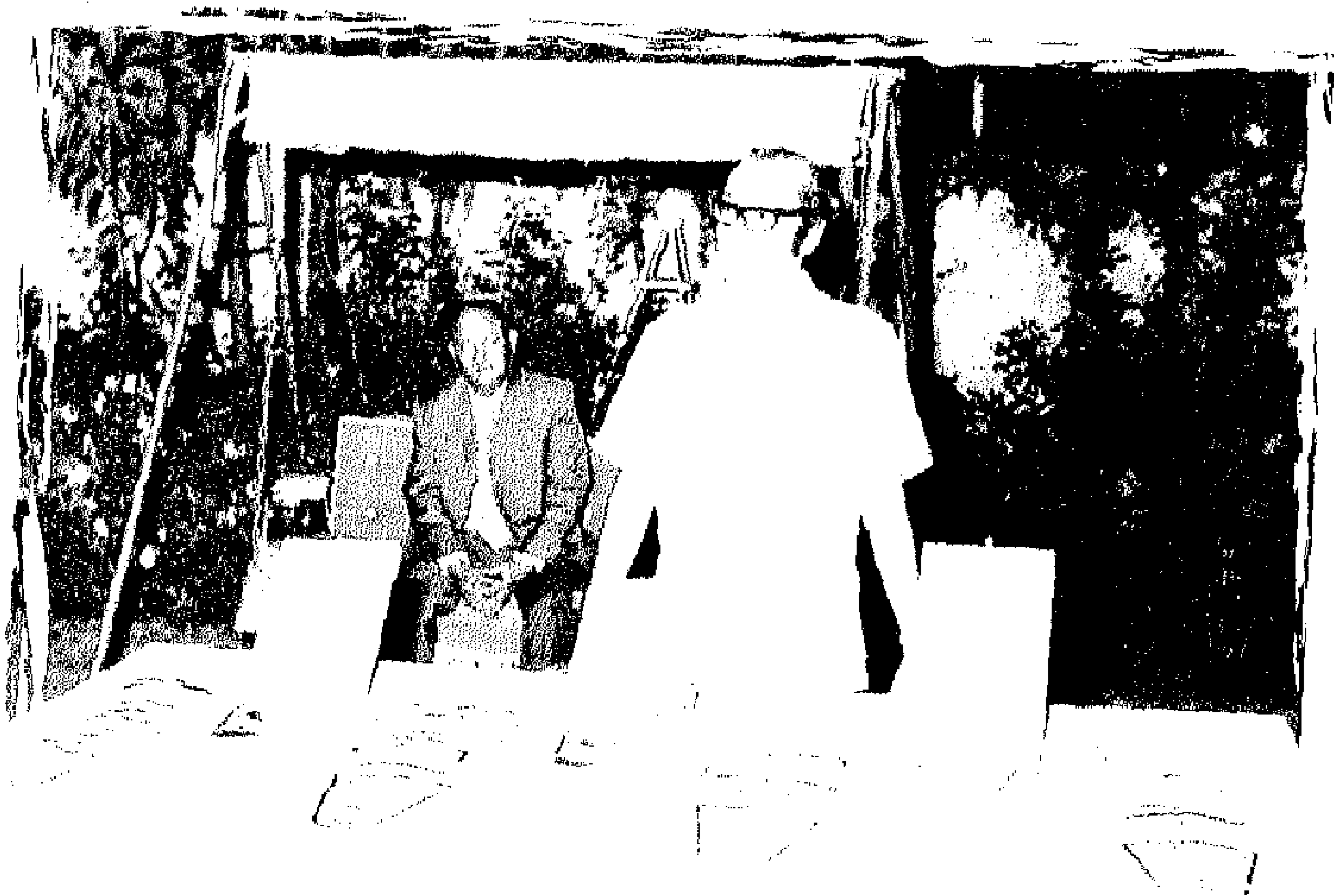




الفصل الأول

كلمات اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع

* المقدمة بقلم د. منصور محمد سرحان
* كلمة الأستاذ محمد حسن كمال الدين
* كلمة الشيخة مي بنت محمد آل خليفة







المقدمة

بقلم : د. منصور محمد سرحان

من النادر جدا أن تجد رجل أعمال ناجح يهتم بشئون الفكر والثقافة .. ومن النادر جدا أن تجد مؤلفا ناجحا وشاعرا مبدعا وأديبا ناقدا ينتمي إلى طبقة التجار .. ومن غير المألوف أن تجد إنسانا يجمع بين العلم والمال وهو على درجة كبيرة من التواضع وكرم الأخلاق ، والإيمان بالقيم والمبادئ .

تخطى الأستاذ تقي محمد البحارنة الذي تحتفي اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع في مملكة البحرين بتكريمه رائدا من رواد الثقافة ومبدعا في مجال الأدب والشعر .. تخطى تلك المعادلات الصعبة وأخذ يغرد خارج السرب ولكن في المسار الصحيح ، وأصبح رجل الأعمال ، الأديب ، الشاعر ، الذي يتميز بدماثة الخلق والمحافظة على القيم والمبادئ ، وقدم الكثير من نتاجه الفكري لوطنه ولأبناء الأمتين العربية والإسلامية .

اهتم بالكتابات الأدبية والمقالات الفكرية وهو في مقتبل العمر ، ووجد في مجلة (صوت البحرين) فرصته السانحة ، فراح ينشر مقالاته عبر أعدادها المختلفة بدءا من صدورها في عام ١٩٥٠م إلى حين توقفها في عام ١٩٥٤م . وكانت كتاباته تتمتع بالبلاغة والرصانة ، إضافة إلى جوهر النص الذي يكتبه .

أشاد أديب البحرين الكبير الشاعر إبراهيم العريض بقدرة الأستاذ تقي ومهارته في الكتابة في الكلمة التي قدم بها كتاب " أوراق ملونة " فقال : " إن كل حادث عند تقي ، بالإضافة إلى كونه عامرا بالوصف ، يتجاوز قيمته المحلية عندما تهتم ريشته بإخراجه الخاص ، فيصبح وكأنه صفحة ناطقة في سفر " الحياة البشرية " بحيث أنك يا من يقرأ – خلال تحريك تلمس " الماهية " في صورة رسمها توا بقلمه ، تظل تعايشها على طول الخط ، منبهرا بكيفية إخراجها في إطارها " .

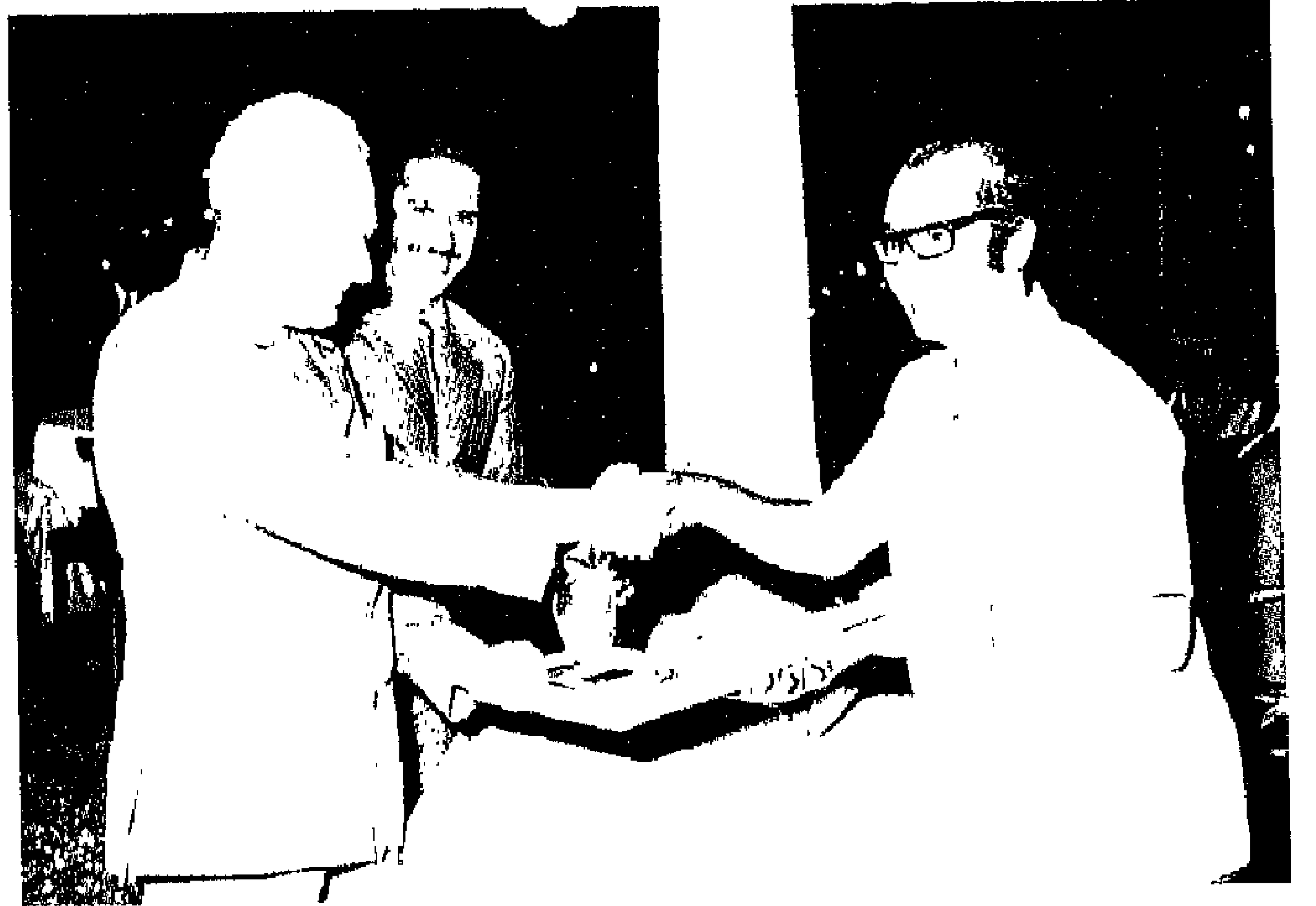
كان ولا يزال من المتحمسين لنادي العروبة ، فارتبط به منذ صغره ، وعمل على تفعيل نشاطه ، وأصدر في عام ١٩٩٠م كتابا عن مسيرة النادي عبر خمسين عاما ، وكان بحق سجلا توثيقيا لمسيرة النادي وللحركة الثقافية في البلاد .

والأستاذ تقي من الشعراء الذين تعتد بهم مملكة البحرين ، فهو شاعر مرهف الحس ، دقيق في اختيار الكلمات التي تجسد أبيات قصائده . وتغلب على أشعاره في كثير من الأحيان النزعة الرومانسية ، كما عرف بشعره الوجداني والقومي والعاطفي ، وجميعها مشبعة بأجراسها الموسيقية الرفيعة .

يمثل ديوانيه " بنات الشعر " و " في خاطري يبكي الحنين " قمة عطائه شعرا ، كما يمثلان الصبغة الفنية التي تميز بها في نظم قصائده .

أن اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع بمملكة البحرين فخورة جدا بتكريم الأستاذ تقي محمد البحارنة رائدا من رواد الثقافة والأدب . فقد أعطى الكثير وقام بدور كبير وفاعل في مجال التوثيق والتأليف ، ونظم الشعر ، وكتابة المذكرات والمقالات التي أثرت ساحتنا الثقافية المحلية وأصبحت مواد غنية للباحثين والدارسين والنقاد ، وجزء لا يتجزأ من تاريخنا الثقافي بمفهومه العام .





كلمة الأستاذ محمد حسن كمال الدين
رئيس اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع

تستغرقه محبة العيون الكحيلة، وتأسره الخدود المضرجة باللهب، وتتجاذبه المباسم التي تجود بالعافية .... يمشي على الأرض .. لا مرحا ...، لا خيلاء ... لا استعلاء ... وفي رومانسيته المغرقة ... تحسبه على درب التبانة، وبين بنات نعش...، تتسيده العفة ونقاء الضمير ....، لا مناخ عنده للظن الأثيم ....

حين يحدثك الأستاذ تقي محمد البحارنه، فهو يتثاءب كالفلاسفة حينما ينتهون من دروسهم في المحاضرة الطويلة ....، وحين تشكو طول حديثه...، لا بد أن تفترض أن نظرية ديكارت فيها مطابقة على دائرة تقي البحارنة.

في سيرورة حياته ... يحمل معه فانوساً سحرياً ... يحمله فقط لتجتمع حوله الفراشات المتلهفة لسماع كلمات المحبة من ينابيعها الصافية....، تراه حالماً... ، وكأنه على موعد مع طفولته ... رومانسياً يطلق حديثه بسلاسة ...، يزن كلماته وينتقي ألفاظه ... وبذكاء رياضي يشدك إلى حديثه بحبال مشدودة لذلك الفانوس ... لا يبحث عن كلماته ....، في جداول اللوغارتمات... بل يختارها من حدائق مفتوحة.

لقد نبذ تقي البحارنه كالمسلمين الأوائل جميع الأصنام ...، لكنه خضع لضم جديد ... هو ملاحة المرأة وجمالها ....، فغدى يتعاطى بشاشة الحديث مع امرأة وسيمة، لاذت به ليكتب لها حرزاً في قصيدة شعرية ... فيلتزم عفة النفس، ونقاوة الخلق ....، مع أنها ليست جريمة أن يشتعل قلب شاعر إزاء جبروت الجمال ... بغير إرادته ....، لأن قلب الشاعر وإحساساته يولدان مشاعر استثنائية.

هناك كوكبة تواترت عنها أخبار حب المكتبات، تشدو بابتهالات الكتب، وتترنم بأغنيات محتوياتها ....، وجاء التأريخ، بعد حين من الدهر ...، ليكتب لهذه الوراثة الكوكبية مآثرها، في غريزة جمع الكتب ....، وغريزة

البحث في أمهات الكتب....، هذه الغريزة التي لا تقل شأناً عن غريزة التشبث بالحياة، هذا التشبث بالكتاب هو الملحمة الحقيقية التي تأصلت وتتأصل على أرض دلمون ....، تأصلت في قلوب وعقول علمائها، وأدبائها، وشعرائها ....، ومفكريها....

والأستاذ تقي ... كان يذهله عكوف إبراهيم العريض وحسن الجشي وعلي التاجر على القراءة ....، وكان يذهله احتواء مكتبة عبدالرسول التاجر على أمهات الكتب ....، فصاغ مكتبته ...، ودشنها بنفائس الكتب ....، حتى أضحى وإياها مسافرين في قافلة واحدة ....، ولا أظن أن مكتبته قد شاخت، فهي ليست حيوان أبي العلاء المعري، الذي استحدثه من الجماد ....، بل هي شبيهة بوادي الأصمعي .. حوت مباهج المخطوطات ....، ونفائس الكتب ...، ينتابك الخشوع حين تزورها ....، وهو يعتبرها كسفينة نوح، فيها الظاهر ...، وفيها ما يكتمه عن الآخرين ....، ولعل مرجع ذلك "الحفاظ على محتوياتها" ...

أغدقت هذه المكتبة دون ريب ثقافة موسوعية على الأستاذ تقي البحارنة ...، فمن المراجع، إلى كتب التأريخ والسياسية، إلى كتب الأدب والشعر ...، إلى كتب التراجم والسير...، إلى الاهتمام بهواية لعبة الميدان العسكري ... لعبة الكر والفر ... "لعبة الشطرنج"، إلى هوايات السفر...، كل ذلك تضافر على خلق ثقافة قادرة على الإبداع والعطاء....،

هذه الثقافة ...، بعد تفاعلها في القلب والعقل، أصبحت متكافلة ومتضامنة كالحواس الخمس، والشاعر تقي البحارنه ... يحمل عبيرها ... ويتنفس عطرها كانتعاش العاشقين في خلوات الغرام، يصعب عليه أن، يسجن موهبته الشعرية في ضريح له باب ... وليس له نوافذ ... فأنفذ قصائده للمطابع ...، لتخرج دواوين مزدانة بجمال الروح ... ورقة الإحساس...، تعلق على جيدها شجيرات الورد ...، وتفتح نوافذها على أساطير الحب ....، وهو في شعره ....، تصعقه كهرباء الجمال ....، فتختمر عنده الهواجس .. وتستفزه مرافد الذاكرة، فينسق عواطفه بعد ذلك كله ....، بين ثغر وبنفسج ...، كعارضات الأزياء ... ثم يلهبها دون رحمة بسياط "دستو فيسكي" بعد ذلك يتعهد مكياجها في صالونات المتنبي وأبي نؤاس وأبي تمام والبحتري ....، حتى لا تندثر خواطرها حين يعرضها على الناس....،

إنه يرش قصائده بماء الورد ....، لأنه يصوغها كتاباً مفتوحاً، ورسالة عاشق لمعشوق، ولا يعتبرها نقيقاً بين أطرش وأطرش ....، وفي قراءته للشعر .. إذا عثر على قبح في قصيدته، فكأنه عثر على فساد لا يقل قبحاً عن فضيحة "ووترغيت"....، لأنه ببساطة ....، يكره أي زواج بين هاجسين متناقضين، لأن مثل هذا الزواج لا يقل بشاعة عن علاقة المنطق اليوناني بالنحو العربي، ولأنه إما دجل بارع، أو وباء أسطوري.

أيها السيدات والسادة ...

على مدى تسع سنوات في مجلس الشورى...، كان هو رئيساً للجنة الشؤون الخارجية، وكنت أنا أميناً عاماً لها .....، حيث أنيطت بي مهمة التواصل بين مجلس الشورى، ومعالي نائب رئيس الوزراء......، وزير الخارجية الشيخ محمد بن مبارك الخليفة.....، وحين كان الأستاذ تقي البحارنة ينبري لموضوع نقلته عن وزير الخارجية......، فإنه يتناوله من جوانبه الأربع.....، ومن أطرافه العشرين بالشرح والتحليل...، حتى كنت أغبطه على هذه النعمة، بل كنت أحسده ... "لكنه حسد بريء لا يموت صاحبه هماً.....، ولا يستحق عوداً يفقأ عينيه" ....، ولم أجد في أي اجتماع الوقت كافياً لتناول مفاصل جدول الأعمال...، لأن أستاذنا الكريم إذا أمسك بأطراف الحديث.....، لا يتركه إلا بعد أن يتخمه شرحاً وتحليلاً.....، ولعلي أجزم أنه يصعب عليه التخلص من هذه الجبلة التي اعتادها ....،

بيد أني لا أبيحكم سراً.....، إذا قلت إنه لم يكن من العسير على أعضاء اللجنة إدراكهم بقدراته الخارقة في التحكم بعواطفه...، والسيطرة على مشاعره وأعصابه.....، حتى في أصعب المواقف ....، وهذه ميزة أخرى أغبطه وأحسده عليها.

أيها السيدات والسادة ...

لكم أن تتصوروا أن المكرم هذا العام ...، وهو الأستاذ تقي محمد البحارنة....، هو من أصغر الأعضاء المؤسسين لهذا النادي "نادي العروبة العريق" ....، الذي كان ولا يزال منبراً صادقاً للأفكار والعقول النيرة في وطننا الحبيب....، ومشاركة النادي في هذا التكريم هي امتداد صادق لثقافة مستنيرة....، أخذ النادي على عاتقه نشرها في المجتمع البحريني على مدى ستين عاماً.

فبإسمي ... ، ونيابة عن أعضاء اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع...، أقدم الشكر وافراً للأخوة أعضاء مجلس إدارة النادي ولأعضائه جميعاً ...، لأن تكريم اللجنة للأستاذ تقي البحارنة...، إنما هو تكريم للثقافة...، وتكريم للشعر... وتكريم للإبداع... وتكريم للوطن...، والشكر موصول لكم جميعاً على تجشمكم عناء الحضور ...، كما أقدم الشكر والتقدير للأستاذ المبدع عبدالله المحرقي، على مشاركته القيمة...، وكذلك الشكر والتقدير للأخوة أعضاء اللجنة على جهودهم القيمة.

والسلام عليكم ورحمة الله

محمد حسن كمال الدين

رئيس اللجنة







كلمة الشيخة مي بنت محمد آل خليفة

حين زرته للمرة الأولى من أجل جمع مادة كتاب، لم أعلم أني سأرتبط معه بصداقة وثيقة يؤصلها حب البحرين وآثارها، ولم أدري أن الأستاذ الجليل الذي قصدته لطلب معلومات عن صديقه المقرب (١) سيكون صديقاً لي هو والأستاذ علي سيار والمرحوم يوسف الشيراوي (الذين قصدتهما للغرض ذاته).

ولم أعلم أن هماً واحداً سيجمعني مع الثلاثة، وأن اللقاء الأول سيكون فاتحة لاجتماعات جادة تأتي كلها تحت عنوان واحد هو " حب البحرين والغيرة على تراثها".

كان لقائي الأول معهم من أجل هدف لم يتحقق، ولكنني فزت بأصدقاء من جيل آخر، جيل يعطي بلا حدود ويقول كلمته بشجاعة حين يصمت الآخرون!

كان الأستاذ تقي معي طوال الفترة التي تركت فيها الموقع الرسمي حين كنا نحاول ابتكار الحلول من أجل الحفاظ على آثار البحرين، أو التحفة الثمينة التي كانت لفترة ما لعبة في أيادي تجهل قيمتها!

كان الأستاذ حاضراً دائماً وكانت زيارته في أوقات يختار القدر ترتيبها (بعناية فائقة!) مثل حضوره غير المخطط له أثناء توثيق عقد شراء بيت الأستاذ ابراهيم العريض وكأنه أصر أن يكون شاهداً على ولادة بيت الشعر وهو الشاعر الرقيق التي جاءت أبياته المهنئة بتدشين المشروع لتأخذ موقعها المميز عند الاحتفال ببدء العمل في بيت إبراهيم العريض.

أستاذ تقي الحالم معي بمشهد أجمل لواقع الآثار في وطني، والذي تجشم عناء السفر والتواصل مع المهتمين بهذا الشأن في الخارج، يأتي تكريمه اليوم بشكل مختلف عن محاولة تسليط الضوء أو حديث المجاملة والإطراء، يأتي تلقائياً من قبل الأشخاص الذين عاصروه وأحبوه وشاركوه مواقف في الحياة.

يأتي الاحتفال لتصل الكلمة الصادقة من أجل أن نواصل العطاء للجميع وليس الجميع هنا إلا وطن تزول وتختفي منه كل الشوائب غير المستحبة.

هنا يكون التكريم لهذا الوطن في شخص المكرم ويأتي الأستاذ تقي الأديب والشاعر والسياسي والكاتب والمؤرخ والناقد حاملاً معه خبرة عقود من التاريخ الأدبي وحديث طويل عن المتغيرات في الساحة الثقافية.

يأتي الأستاذ الجليل وكأنه يريد أن يبدأ من جديد دون كلل ودون تردد، يصغي حين يكون للحديث آفاق جديدة ويعارض في لحظة هو وحده يدرك معنى المزايدة فيها!

الأستاذ تقي من جيل حاضر في الذاكرة والمكان، يحمل في الوقت ذاته انجازات جيل آخر يتمثل فيما وصل إليه تقي البحارنة من مكانة خاصة ما كانت لتتحقق لولا أنه يملك الأدوات التي تعرف ربط الماضي بالحاضر.

(١) المقصود الشيخ خالد بن محمد آل خليفة







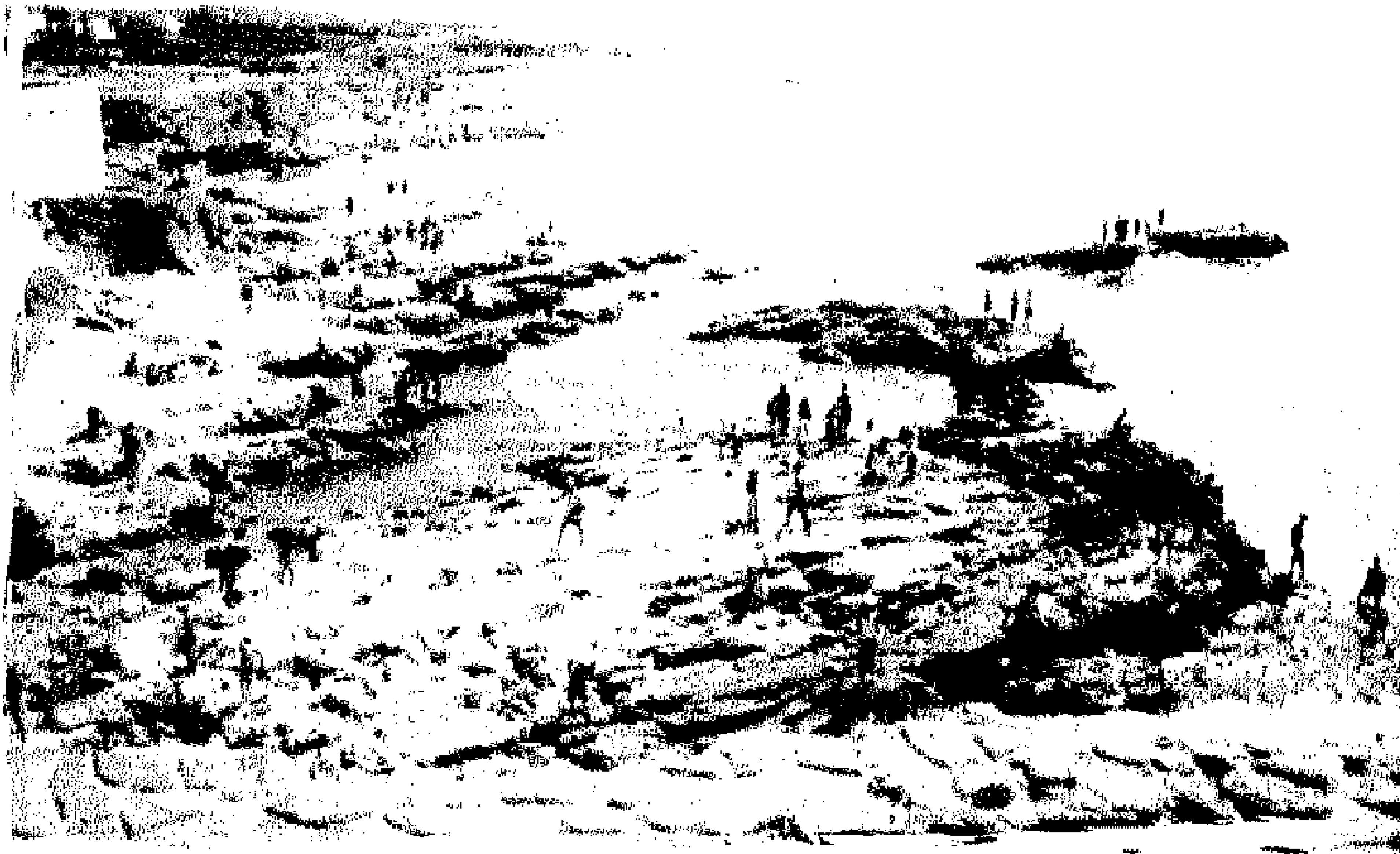
الفصل الثاني
سيرة حياته

* ولادته ونشأته

* دراسته

* عمله بالتجارة

* عملة الوطني والدبلوماسي



ولادته ونشأته

ولد في عام ١٩٣٠م من أسرة عربية عريقة مشهود لها بالعلم والورع والكرم . وكان مولده في مدينة المنامة عاصمة البحرين ، وهي مدينة مرتمية في أحضان هلال خصيب ، تطل على البحر من جهة أخرى . وكانت تنتشر بين بيوتها آنذاك جزائر من الواحات والبساتين تعرف " بالدالية " كدالية كانو والمؤيد وبن رجب ، إلى جانب حديقة الحيوان المعروفة بالباغشة ، إضافة إلى مزرعة العريض وبستان المديفع .

عاش في حي يعرف باسم " المشبر " نسبة إلى جدول صغير من الماء يصله من القلعة بعمق شبر واحد كما تذهب التسمية . وكانت البساتين بما فيها من ينابيع طبيعية تحيط بالمنطقة ، ما جعلها منطقة خضراء تساهم في تخفيف درجة الحرارة في أشهر الصيف.

في وسط هذه الطبيعة الخلابة ولد الأستاذ تقي محمد البحارنة ، وكان يذهب مع أقرانه إلى تلك البساتين كلما سنحت لهم الفرصة ، للهو واللعب وقطف بعض الثمار . واعتاد اللعب مع رفاقه في الحارة إلى حين غروب الشمس . وكان يمر النهار على الصبية الصغار في حارتهم مليئا بالإثارة ، فهم لا يفهمون معنى للحياة الهادئة الرتيبة . وإذا افتقدوا عنصر الإثارة لفترة وجيزة اختلقوها فيما بينهم بالشجار أفرادا أو جماعات ، لدرجة أن ربات البيوت تتضايقن من ضوضاء الصبية وشجارهم .

اعتاد في طفولته انتظار مجيء والده إلى المنزل . ويحار كيف يمضي الوقت في الانتظار ، فيقوم بالتسكع في داخل المنزل ، أو يتظاهر بأنه يغتسل عند البئر التي لا يكاد يخلو منها منزل ، ثم يتسلى بالدلاء وسكب الماء هدرا . وقد تقع في يده بعض أواني الصين أو الفخار فتكسر . وهكذا يستمر في عبثه إلى أن يأتي والده فيحتضنه عند الباب. ويباشر والده الصلاة حتى إذا فرغ من صلاته ضمه إلى صدره واسمعه كلمات الحب والحنان ما يطمئن إليه قلبه.

تعلم وهو في ريعان طفولته درسا من دروس الحياة ، هو أن الفرحة لا تدوم وان حياة المنزل كواقع الحياة ذات وجهين . فقد اعتادت ربة البيت أن تقدم تقريرها اليومي وما جرى فيه من عبث الصغار ومخالفاتهم . وعلى أثر ذلك يتم تأديب الصغار من خلال ضربهم بالعصا . كما يؤدب الأولاد عادة على المشاجرة وعدم الطاعة ، والتقصير في الواجبات وترك الصلاة ، وإزعاج الجيران ، وأهل الحارة ، ومصاحبة رفاق السوء .

في المساء يعود الأب محملا بالأصناف المستطابة من الحلوى ، والمكسرات ، والخبز المحلى بالتمر ، وذلك للشروع في مراسيم المصالحة ، وهي أن يقبل الولد يد والده طالبا عفوه وصفحه ، فيشمله بالعطف والرضا ليتعشى ثم ينام قرير العين .

قرر والده تعليمه القرآن على يدي أحد المطاوعه . فأمره ذات صباح بأن يلبس الملابس التي أحضرت لهذه المناسبة ففعل ، ثم ارتدى فوقها (صدرية) من الحرير المزركش ، ولبس خاتما وانتعل النعال النجدية التي يفضلها . ووضع في يده اليمنى كتابا مجلدا هو " جزء عم " من القرآن الكريم ، واتجها إلى معلم القرآن.

استقبل المعلم والد الطفل بما يليق به من تقدير واحترام باعتباره أحد الوجهاء والتجار ، ثم استدار للصبي وعلى وجهه ابتسامة وهو ينتظر من الأب أن يبدأ بالكلام ليعرف كيف يتصرف مع الطفل .

لم يطل انتظاره فقد أوصاه الأب بأبنه خيرا وكرر بعض الآيات القرآنية ، وعبارات من مثل القول المأثور : (ربه سبعا وأدبه سبعا وعلمه سبعا .. ثم أترك حبله على غاربه) . ولم يسمع المعلم ما كان يتوقع ان يسمعه اسوة بالآباء الآخرين (اعطيتك ابني لحما، وأريده منك عظما) أي لكثرة الضرب والتأديب .

كان الطفل ذكيا ، فختم القرآن في زمن قصير ، وأخذ يتطلع إلى الدراسة النظامية كي يبني لنفسه المستقبل الذي يحلم به .



دراسته

بعد ختم القرآن الكريم تعلم بمدرسة الأستاذ عبدالرسول التاجر ، وهي مدرسة أهلية ، وكان الوضع مختلفا عما ألفه عند معلم القرآن . فقد أدخل صفا كبيرا يعج بالتلاميذ من مختلف الأعمار والمستويات التعليمية والاجتماعية . وتتفرع عن هذا الصف حجرة ثانية على شكل زاوية يجلس فيها المتقدمون في المدرسة والمتدربون على الآلة الكاتبة .

كان الأستاذ عبدالرسول التاجر صاحب المدرسة هو المدرس الوحيد لكل التلاميذ ، وكان يجلس على طاولة تشرف على الجانبين . وقد ملئت الغرفة بخزانات ذات واجهات زجاجية مغلقة تكدست على رفوفها مجموعات من الكتب المتنوعة ، ما يعني البون الشاسع بين هذه المدرسة وبساطة وبدائية الكتاتيب . وكانت حرية الدخول والخروج متاحة لمن يريد وكأنها مدرسة مفتوحة ، وهذا يخالف النظام المستخدم في الكتاتيب الذي يجبر الأطفال على البقاء في أماكنهم طوال الوقت إلى أن يشير المعلم لهم بالانصراف .

انتهج التاجر طريقة في التدريس فريدة من نوعها ، فكان لا يدرس التلاميذ ضمن مجموعات أو صفوف ، وإنما ينتقل من يريد أخذ الدرس مباشرة إلى مكتبه وينتظر دوره . ويتقبل التاجر تدريس أي عدد يجلس في مواجهته على انفراد ، ويبدأ بأحدهم ويستمع إليه يقرأ الدرس بينما هو منشغل في تصحيح الكراسات أو كتابة درس جديد ، ولا يحول ذلك بينه وبين الانتباه لتصحيح أخطاء التلميذ الذي أمامه بين حين وآخر .

كان الإقبال على مدرسة التاجر كبيرا جدا باعتبارها المدرسة الأهلية الوحيدة في البحرين آنذاك التي استطاعت تلبية متطلبات سوق العمل في تلك الأيام ، تمشيا مع نوعية الوظائف المطلوبة من قبل شركة نفط البحرين المحدودة (بابكو) ، والشركات الأجنبية والمؤسسات المحلية ، والدوائر الحكومية التي فتحت مجالات جديدة للتوظيف .

اكتشف تقي البحارنة في نفسه وهو يدرس بمدرسة التاجر شوقا عارما للتعليم ، فلم يقتنع بدرس واحد في اليوم ، وصار يحضر مبكرا لأخذ الدرس ، ثم يقوم بتحضير الواجبات المطلوبة ، ويتحين الفرصة حتى إذا فرغ مقعد للدراسة جلس من جديد لأخذ درس آخر . فكان ذلك المشهد يتكرر عدة مرات في اليوم ، فلم يجد من الأستاذ عبدالرسول التاجر إلا الترحيب والتشجيع .

درس في مدرسة التاجر مبادئ الحساب ، واللغة العربية ، واللغة الإنجليزية . وكان يتسلى كثيرا بدرس تحسين الخط ، ويتطلع بإعجاب إلى ما يكتب في أعلا الصفحة باللون الأحمر وبخط الرقعة الجميل من أبيات الشعر التي تتجدد مع كل درس . وقد أيقظت تلك الأشعار أول ميل في نفسه لقراءة الشعر وتذوقه .

استمر يدرس في مدرسة التاجر زهاء عام ، التحق بعد ذلك بالمدرسة الخليفية بالمنامة للبنين كما كانت تسمى حينذاك . وكانت المدرسة قريبة من منزله ، وكان والده من بين مؤسسيها الأوائل في عام ١٩٢٨م حين كان اسمها " المدرسة الجعفرية " . وساعد والده في التعاقد مع مديرها الأول الأستاذ محمد سعيد بن جمعة وعدد من الأساتذة العراقيين . وتولى والده أمانة صندوقها إلى أن تم انتقالها بعد بضع سنين إلى الإدارة الحكومية .

امتلك قبل انتظامه بالمدرسة الخليفية حصيلة من المعلومات في مبادئ اللغة والحساب ومهارة الخط ، وكان قبل ذلك قد ختم القرآن الكريم ، مما جعل لهذه العوامل أثرها في اختيار المدرسة الصف الذي يناسب مستواه العلمي . ففي البداية قابل في الإدارة احد المساعدين الذي هم بإدخاله في الصف الثاني لولا أن مدير المدرسة حينذاك الأستاذ سالم العريض دخل فجأة وأمر بإجراء امتحان له بشكل سريع ، قرر بعده أن يلتحق بالصف الرابع ، وكان حينها في التاسعة من عمره .

لم يتمكن من استيعاب التغيير المفاجئ في المدرسة ، فخرج بنتيجة مخيبة للآمال بالنسبة له ، لكنها في الواقع جاءت نتيجة الحاقة بالصف الرابع مباشرة . وعلى الرغم من ذلك فقد نجح ولكن ليس في مستوى التميز ، غير أن ذلك كاف للبرهنة على ما يمتلكه من ذكاء حاد ، بخاصة وانه يدرس في صف لا يتناسب وصغر سنه .

استلم دفتر النتائج وكان في شكل جواز سفر يحتوي على النتائج التفصيلية . وعلى صفحاته الأخيرة نتائج السنة الدراسية بمجموع ٥٥٪ ، وكان عدد طلاب الفصل يربو على ٦٤ طالبا . وكتب تحت النتيجة مدير المدرسة سالم العريض عبارة بالخط الأحمر " اجتهد لا تندم " .

أثرت تلك العبارة في نفسه وأخذت تلعب فعلها ، فاعد نفسه للعام القادم ، ودخل الصف محققا نجاحا باهرا فاق التصور . فقد أصبح الأول على صفه ، وحافظ على هذا المركز طوال سني دراسته في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، على الرغم من كونه اصغر الطلاب سنا في كل صف دخله ، وكانت هذه المفارقة موضع التعليق .

اقتصرت دراسته في المدرسة الابتدائية على العربية بفروعها ، والإنجليزية ، والحساب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والرياضة ، والدين . وبسبب ظروف الحرب العالمية الثانية كانت الكتب المدرسية شحيحة ، وكذلك الكراسات . وقد درس على أيدي أساتذة فلسطينيين وبحرينيين ، وكان مدير المدرسة سالم العريض يدرس حصة الحساب من كتاب ضخم باللغة الإنجليزية وأثناء درس الدين يخرج اليهود وغير المسلمين من الصف .

من الأمور التي يتذكرها أثناء دراسته الابتدائية وبالتحديد عندما كان في الصف السادس ، زيارة الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين آنذاك ، وقد وقع عليه الاختيار وطلب منه أن يرسم خارطة للخليج والهند يشرح من خلالها أهم المدن الهندية وما تشتهر به كل منها . وشعر بسرور غامر للثناء الذي ناله من حاكم البلاد وإدارة المدرسة .

كان مغرما بالقراءة أثناء وجوده بالمدرسة الابتدائية ، فقرأ جواهر الأدب ، وكليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة ، وروايات المنفلوطي ، ومؤلفات سلامة موسى ، والمازني ، وشعراء المهجر ، مكونا بذلك ثقافة عالية وحصيلة من المعلومات في الأدب العربي ، كان لها فعلها فيما بعد في إثناء كتاباته النقدية والأدبية في الصحافة المحلية وبخاصة مجلة (صوت البحرين) .

كانت له ذكرياته الخاصة أثناء دراسته بالمرحلة الابتدائية ومنها أحداث الحرب العالمية الثانية ، حيث أمر " بلجريف" مستشار حكومة البحرين آنذاك بحفر الخنادق حول ساحات المدرسة وتدريب الطلاب والمدرسين على استعمالها ملاجئ خلال غارات وهمية ترافقها صفارة الإنذار . وكان يوزع على الطلبة في الصفوف وسائل الدعاية الحربية ومعها بعض الصحف ومنها مجلة " المستمع العربي " .

التحق في عام ١٩٤١م بالمدرسة الثانوية ، وكانت تعرف " المدرسة الخليفية الثانوية " . وكانت بداية الأربعينيات من القرن العشرين مرحلة مخاض في تاريخ التعليم في البحرين الذي تطور على يدي المستر "ويكلن" مدير المعارف آنذاك المعروف بنشاطه وحيويته .

عندما بدأ التفكير في فتح مدرسة ثانوية في البلاد وقع الاختيار على منزل كبير يملكه الوجيه منصور العريض ، ويقع على شارع الشيخ عبدالله بالمنامة . وكان بجانب المنزل مجمع صغير لنفس الوجيه يضم مشغلا للصياغة وتجارة اللؤلؤ ، وملتقى لأهل الصنعة . ولم يلبث أن تحول هذا المبنى إلى قسم داخلي ثم انتقلت إليه مكاتب مدير المعارف والمكتبة العامة فيما بعد .

كانت الثانوية تشتمل على ثلاثة صفوف ، احدها يطل على حديقة الحيوان المعروفة عند العامة (بالباغشة) بمنظرها الساحر الخلاب ، والآخران يطلان على شارع الشيخ عبدالله . ويقع في الوسط مكتب المدير وغرفة للمدرسين كان كل منهما يتمتع بميزة مهمة هي وجود مراوح كهربائية سقفية .

تتلمذ تقي على أيدي مدرسين مصريين إضافة إلى السيد ويكلن الذي كان يقوم بملء الحصص الفارغة بعد استقالة بعض المدرسين وسفر بعضهم . كما تتلمذ على يدي أديب البحرين الكبير الأستاذ إبراهيم العريض الذي باشر بتدريس الرياضيات باللغة الإنجليزية ، فلم يعسر فهمها على معظم الطلاب بفضل أسلوبه في التدريس . وكان يدرس علم الفلك ، وقد ألف الطلاب وألفوه من أول درس وكأن له مع كل منهم معرفة سابقة .

تركت شخصيات أولئك المدرسين بصماتها في نفسيته وحفزته على مواصلة الدراسة والقراءة والبحث والاطلاع . وساهم العديد من أولئك المدرسين في بعض الأنشطة الاجتماعية والثقافية والدينية ، كحفلات المولد النبوي الشريف ، والإسراء والمعراج التي درجت على إقامتها الأندية الوطنية في البلاد . وشهدت المدرسة نشاطا ثقافيا متنوعا ، فصدرت صحيفة الحائط ، ومجلة شهرية باسم (وحي الثانوية) ، وأنشئت فيها مكتبة ، وقام الطلاب بتمثيل رواية (في سبيل التاج) ، ما يعكس مدى اهتمام المدرسة بالنشاط الثقافي المتنوع الذي أدى فيما بعد إلى إبراز مهارات بعض الشباب حينذاك في ممارسة التمثيل والكتابة في بعض الصحف المحلية .

بعد تخرجه من المدرسة الثانوية قرر مدير المعارف آنذاك السيد ويكلن ترشيح مجموعة من الطلاب للدراسة في بيروت ، ومن بينهم تقي وأخوه حسين ، غير أن والدهما لم يوافق على دراستهما في بيروت ، وقرر إرسالهما إلى بغداد على نفقته الخاصة ، شارحا لهما أن العراق اقرب موقعا من لبنان ، وفيها من الأقارب والأصدقاء من يستطيع أن يتعهدهما بالرعاية .

سافرا إلى بغداد ، وانتظمت دراستهما بمدرسة ثانوية الأعظمية ، وخيرا في الالتحاق بالصفوف التوجيهية العلمية أو الأدبية ، فاختارا الأدبية ، وانضم إليهما بعد أيام الشيخ دعيج بن علي آل خليفة .

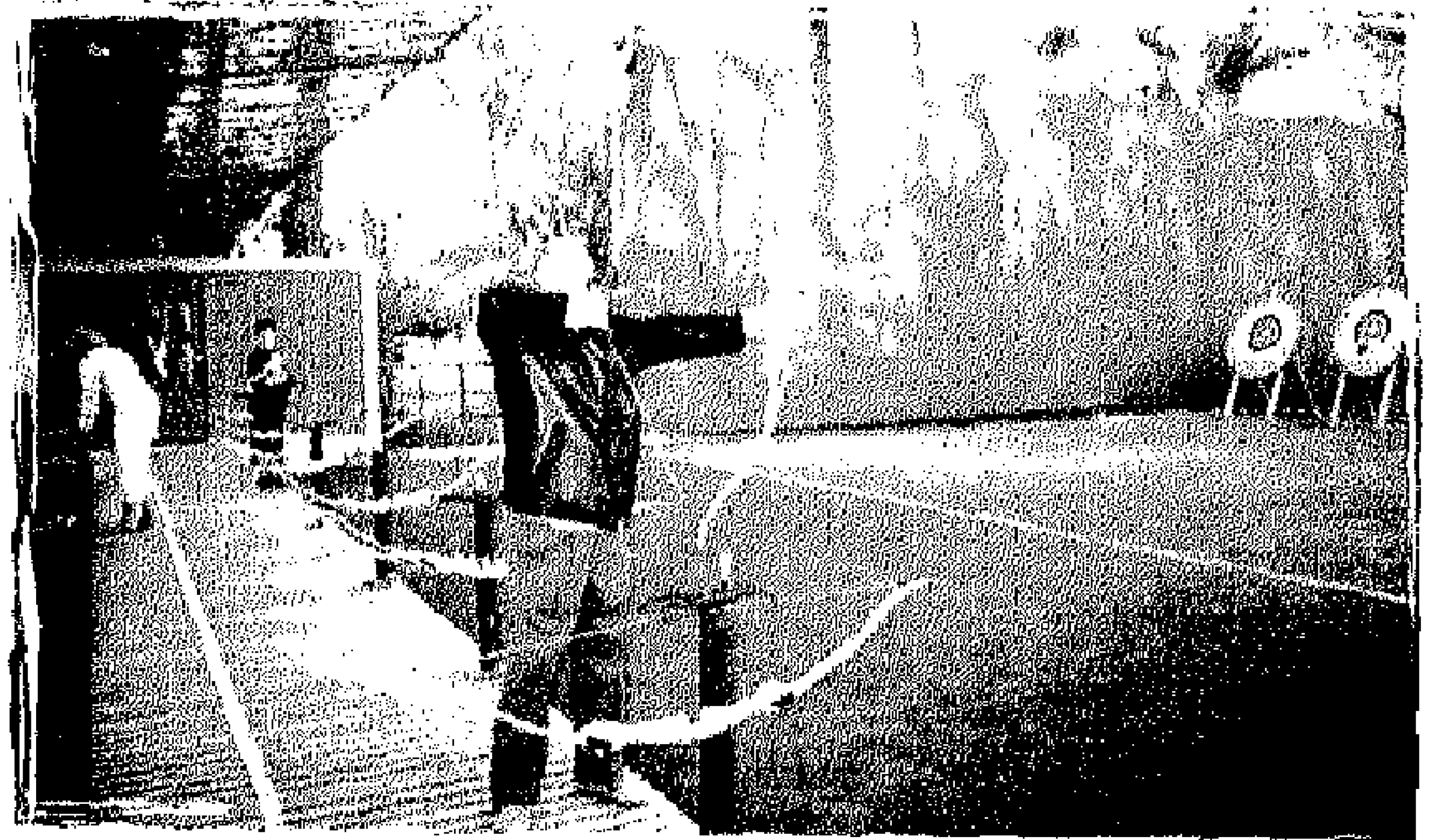
رحب الطلبة العراقيون بوجود هؤلاء الثلاثة من البحرين ، ونمت بينهم أواصر من الزمالة والود ، لم يعكر صفوها إلا تحفظهم تجاه ما شاهدوه من تكرار خروج الطلبة في مظاهرات سياسية . وقد نصحهم مدير الثانوية بالخروج مع الآخرين تجنبا لنقمتهم ، واستجابوا لتلك النصيحة .

أعجب بمدينة بغداد وما كانت تتمتع به من جمال الطبيعة ، فنظم فيها قصيدة بعنوان " بغداد دار السلام " تجسد طبيعة بغداد :

ولقاؤنـا (دار الســلام) وكم لها في القلب ذكرى
أضفــي عـليهـا دجلـــة مـن حسنه فـنـا وسحرا
والباسقـات مـن النخيـل تمد فـي الأعمـاق جذرا
وجنــائـن تـهــدي إلــى المشتاق انسـاما وعـطـرا
والبـدر يـقتحم الظـلام يشـق للسـاريـن فـجـرا
قمم مــن الأمجاد شيدها بنــاة الـحــق قـســرا
خلعت فؤاد الروم من هلع ودكــت عــرش كسـرى

انقطع عن الدراسة في بغداد بعد السنة الأولى أي عام ١٩٤٦م ، وكذلك فعل زميله الشيخ دعيج بن علي ، أما أخاه حسين فما لبث أن عاد إلى بغداد لاستكمال دراسته في كلية الحقوق .





عمله بالتجارة

كان سبب عزوفه عن الدراسة في بغداد عدم تطلعه للعمل بالوظائف الحكومية ، فاتجه لمزاولة مهنة التجارة منذ أواخر عام ١٩٤٦م ، وكان حينها على مشارف السابعة عشرة من عمره . ووجد أن واجبه مساعدة والده في أعماله التجارية والاقتباس منه الكثير من أسرار هذه المهنة وطريقة التعامل مع الآخرين . فعمل مع والده وتحت إشرافه في تجارة الاستيراد والتصدير والبيع بالعمولة في مجال الأطعمة المجففة والمواد التموينية ، وكان طريق البحر هو المصدر الرئيسي للاستيراد والتصدير وللسفر أيضا . أما وسائل النقل البحري فهي السفن الشراعية الكبيرة وتعرف بأسماء متميزة ، وكانت تمخر عباب البحر بين أفريقيا وسواحل الهند والخليج . أما السفن ذات المحركات (اللنشات) فكانت لصغر حجمها تقتصر في الغالب على التنقل بين سواحل بلدان الخليج .

كانت السفن التجارية ومعظمها يعمل بين الهند والخليج ، الوسيلة الرئيسية لنقل البضائع والمسافرين ، وقليل منها يصل إلى البحرين مباشرة من المرافئ الدولية البعيدة . لهذا كانت معظم البضائع تأتي عن طريق الهند على البواخر الهندية التي تسمى حسب وجهتها . فتسمى السفن المتجهة إلى البصرة " بالمعلي " ، وتسمى " السنان " إذا كانت عائدة إلى الهند .

قرر في أواخر عام ١٩٤٧م السفر إلى باكستان والهند ، وكان معه على الباخرة المتجه إلى كراتشي عدد من صغار التجار ، من الكويت والبحرين ، ودبي ، ومعظمهم ممن يطلق عليه بتجار الذهب .

زوده والده بخطابين : الأول موجه إلى التاجر سعود عبدالعزيز الفليج ، حيث زاره في مكتبه بكراتشي ، فوجده إنسانا شديد الاتزان قليل الكلام . وعمل على زيارته في كل مساء للاستماع إلى المذياع ولاسيما أخبار الحرب في فلسطين ومشروع التقسيم .

أما الخطاب الثاني فموجه إلى التاجر الباكستاني (حاج جيتا باي كوكل) في كراتشي أيضا ، الذي استقبله استقبالا حسنا ، وأصبح بين عشية وضحاها ضيف شرف على مائدة رجل ثري مشهور يملك أسطولا من السفن يناهز المائة أو يزيد ، ما جعله يشعر بالارتياح والثقة بالنفس .

قرر السفر إلى بومبي وفوجئ أن جميع البواخر ووسائل النقل أصبحت مسخرة لتبادل الهجرة السكانية بين الهند وباكستان حيث كانتا في أول عهدهما بالتقسيم ، ونزل ضيفا عند الوجيه الحاج جعفر عبدالرحيم في منزله ، وكان معه كل من : الحاج أحمد الحاج حيدر درويش والحاج إبراهيم محمود وكلهم من مشاهير تجار الخليج .

لم يطل بقاءه في بومبي ، فقفل عائدا إلى كراتشي . ولم يعد يذكر من تلك الزيارة سوى كثرة الازدحام ، والمواصلات العامة ، وغلاء البترول ، وحرية الأبقار في التجول مزاحمة المارة على الأرصفة وتعطل المرور عند الإشارات دون أن يحتج أحد . كما شاهد أناسا لطخت أجسامهم بالطين والأصباغ ويمشون وهم عراة باعتبارهم من رجال المعابد .

في أوائل عام ١٩٤٨م رجع إلى البحرين ، وعرف المزيد عن أخبار المظاهرات الشعبية بمناسبة تقسيم فلسطين . وسرعان ما قرر السفر في أثناء حرب فلسطين إلى العراق ، وكان متحمسا لتحرير أرض فلسطين شأنه في ذلك شأن جميع الشباب في الوطن العربي الذين عقدوا العزم على الجيوش العربية . وحين عاد إلى البلاد رسخت في ذاكرته ما جرى في بغداد حين كانت قطع من الجيش العراقي تمر من بعض شوارع العاصمة في مسيرة استعراضية وهي في طريقها إلى فلسطين ، وهتاف الجماهير يرتفع من حولها عاليا وهي تقول : أجعلوا (تل) أبيب ، (وادي) أبيب .

اشترك مع أخيه صادق بتشجيع من والدهما في عدة صفقات تجارية خارج المؤسسة لحسابهما ، فلما تيقن والدهما بقدرتهما على العمل المستقل ، منح كل واحد منهما عشرة الآف روبية ، وفتحا محلا تجاريا تحت اسم (مخزن العاصمة) للاستيراد والتصدير والعمولة . وكانت أوربا وأمريكا واستراليا واليابان هي المصدر الرئيسي للسلع الكمالية والكهربائية والأطعمة المعلبة وشراب الفاكهة وغيرها من السلع التي طال انتظار جمهور المستهلكين لها بسبب انقطاعها عن الأسواق خلال سنوات الحرب العالمية الثانية .

كان الحد الأعلى للربح هو من ١٥ إلى ٢٥ بالمائة حسب نوع السلعة ، أما المصاريف والإيجارات والتكلفة فكانت زهيدة ، مما يحقق للتاجر مبلغا جيدا من الربح . وقد أدت هذه المعادلة الثلاثية إلى تنشيط التجارة في الداخل وكذلك بالتصدير إلى أسواق الخليج ، فالحكومة تراقب الأسعار ، والتاجر يربح بسبب حجم المبيعات وتدني الكلفة ، أما المستهلكون فهم بما تناله أيديهم من سلع مستوردة فرحون .

لم تنقطع صلته بالثقافة ورجال الفكر والأدب خلال عمله بالتجارة ، بل كان يجتمع في متجره لفيف من الأدباء والكتاب والشعراء على رأسهم الأستاذ الكبير إبراهيم العريض الذي كان يخصه بالزيارة يوميا في أغلب الأحيان ، ثم علي التاجر ، وحسن الجشي ، ودعيج الخليفة ، وعبدالله الطائي ، وأدباء من المملكة العربية السعودية في القطيف والخبر والإحساء ، منهم أحمد الراشد المبارك ، وعبدالعزيز القاضي ، ومحمد سعيد المسلم ، وعبدالرسول الشيخ علي الجشي ، وأحمد المصطفى وغيرهم .

ويرى تقي البحارنة أن تلك الجلسات في المتجر أيام الأسبوع لم تكن بمثابة المجالس المنظمة ، بل كانت أقرب إلى اعتبارها محطات في الطريق . أما جلوسه لاستقبال الأصدقاء فكان في يوم الجمعة باعتباره عطلة . ويأتي لزيارته إضافة إلى من ذكر ، فضيلة الشيخ عبدالحسين الحلي ، والسيد رضي الموسوي ، وقاسم أحمد فخرو ، وماجد الجشي ، ورسول الجشي ، ويوسف احمد الشيراوي ، وعلي محمد فخرو ، وإبراهيم يعقوب ، وراشد فليفل ، ومحمد قاسم الشيراوي وآخرون .

وبهذا يكون قد ربط التجارة بالثقافة محققا ما كان يصبو إليه من العمل في مجال التجارة الذي قطع دراسته من اجل هذا الهدف الذي نجح فيه وأصبح احد التجار والوجهاء المعروفين في مملكة البحرين . وحافظ من جهة أخرى على تنمية ثقافته من خلال جعل محله مقرا لزيارة الأدباء والكتاب والدارسين من الشباب آنذاك ، حيث يدور النقاش في مواضيع ذات صلة بالفكر والأدب .

كان له نشاط مميز في المجال الاقتصادي على المستوى المحلي ، ولعب دورا مهما في ذلك من خلال مشاركته كعضو إداري في بعض المؤسسات الاقتصادية ومساهماته في تأسيس بعضها . ويمكن إيجاز تلك المشاركات والمساهمات في التالي :

- شارك في أنشطة غرفة تجارة وصناعة البحرين منذ عام ١٩٥٨م حيث كان رئيس اللجنة المالية والمؤتمرات والعلاقات . وأنتخب في عام ١٩٦٩م أمينا عاما لإتحاد غرف تجارة وصناعة إمارات الخليج العربي ، الذي زاول نشاطه بين الأعوام ١٩٦٩-١٩٧٦م ثم لغاية تكوين اتحاد غرف تجارة وصناعة دول مجلس التعاون .

- شارك في إدارة (صندوق التعويضات التعاوني) كأمين سر بين الأعوام ١٩٦٥-١٩٧١م ، وقدم مشروعا متكاملا لإعادة هيكلة الصندوق وتحويل العملاء إلى حملة أسهم فيه .

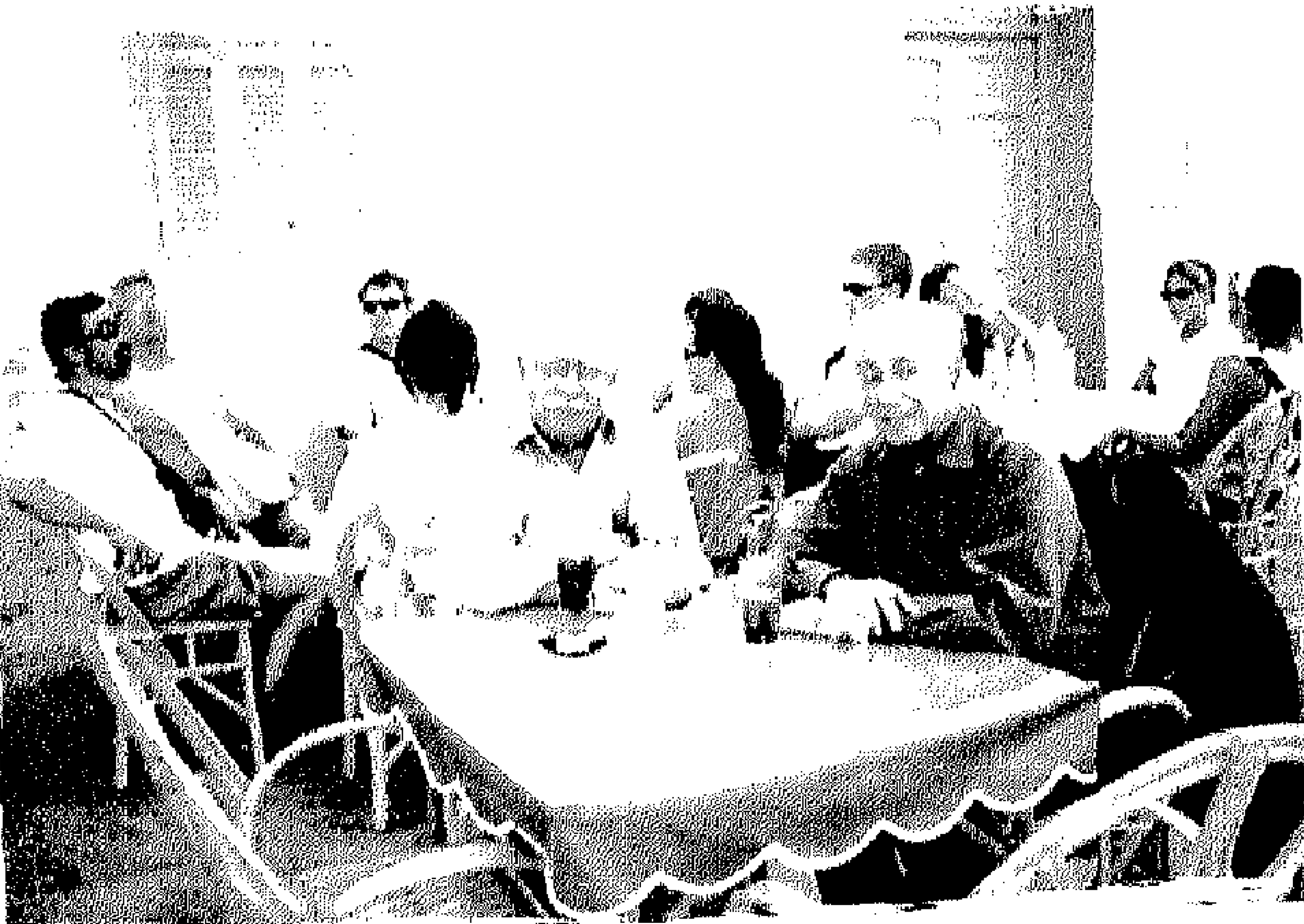
- عينته محاكم البحرين العدلية محكما ورئيسا للجان تحكيم في قضايا تجارية عديدة بصفته المستقلة .

- عين عضوا في لجنة (المركبات والمواصلات) برئاسة يوسف الشيراوي خلال الستينيات والتي استطاعت التفاهم مع أصحاب المركبات والنقل العام للاندماج في المشروع الوطني لإنشاء شركة النقل الوطنية .

- عين عضوا في مجلس (أموال القاصرين) في الفترة من ١٩٦٥م إلى ١٩٧١م ، وعضوا في صندوق الزكاة التابع للشئون الإسلامية بوزارة العدل .

- شارك في تأسيس عدد من الشركات والمؤسسات العامة ، منها الشركة الأهلية للتأمين سنة ١٩٧٦م ، والبنك الأهلي التجاري سنة ١٩٧٧م ، وأول سوق للأوراق المالية سنة ١٩٨٦م .

- عين عضوا في المجلس الأعلى للسياحة منذ إنشائه خلال رئاسة وزير الإعلام الأسبق طارق المؤيد .



عمله الوطني والدبلوماسي

كان تقي البحارنة أحد المساهمين النشطين في مجال العمل الوطني، عندما بدأت الحركة الوطنية تشق طريقها قدما في أوائل الخمسينات من القرن المنصرم. فقد شارك مع الهيئة التنفيذية العليا (الاتحاد الوطني) بقلمه وفكره منذ نشوئها. كما شارك في المهرجانات الشعبية كداعية للاصلاح الوطني، وللإتحاد وضم الصفوف، وتوعية الجمهور بالشأن الوطني والقومي والإسلامي، ضمن مفاهيم المطالب الشعبية، والمواثيق الدولية لحق الشعوب في تقرير مصيرها، وعلى الأخص من خلال قراءة وتفسير مواد ميثاق حقوق الإنسان للأمم المتحدة.

كما كان أيضا ضمن لجنة الأعضاء الثمانية الإستشارية للهيئة التنفيذية وهيئة الإتحاد الوطني، بعد الاعتراف بها رسميا كحزب سياسي. وتم تعيينه من قبل الحكومة، بترشيح من الاتحاد الوطني، عضوا في مجلس المعارف الذي تم اجهاضه فيما بعد..

وبالنسبة للحركة العمالية، فقد أفرغ لها جهده، حتى تم تكوين (إتحاد العمل البحراني للعمال والموظفين وأصحاب المهن الحرة) عام ١٩٥٥م واسندت إليه الأمانة العامة للاتحاد الذي ضم غالبية عمال البحرين. والذي قام بتمثيلهم في القضايا والمنازعات العمالية، كم قام بمناقشة مواد قانون العمل مع اللجنة الثلاثية المكونة من العمال واصحاب العمل والموظفين برئاسة مدير العمل والعمال وممثل الحكومة، والخبير الاستشاري العمالي الإنجليزي المستر (مارشال).

وتمخضت تلك الجهود عن وضع قانون للعمل والعمال صادق عليه حاكم البلاد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، وتم اصداره عام ١٩٥٧م بعد إجراء تغييرات على النسخة الأصلية منه من قبل مستشار حكومة البحرين السيد بلغريف. ومع كل ذلك فإن القانون يعتبر الأول في الخليج العربي فقد ضمن للعمال حقوقا كثيرة تضمنها القانون مستمدة من القانون البريطاني للإتحادات النقابية، وشملت تلك الحقوق حق تكوين النقابات العمالية وتكوين إتحاد نقابي، وحق الإضراب، والامتناع عن العمل، وحق التفاوض الجماعي بين العمال وأصحاب العمل لتحسين الأجور وظروف العمل وحق الحصانة القضائية للنقابات، وتشكيل اللجان الاستشارية بين أصحاب العمل والعمال. واستمر اتحاد العمل قائماً حتى تاريخ توقفه في العام ١٩٥٨م.

وعندما تولى رئاسة نادي العروبة في عام ١٩٥٧م ساهم في تكوين (إتحاد الأندية الوطنية) الذي ضم نادي العروبة، والنادي الأهلي، ونادي البحرين بالمحرق، ونادي النهضة بالحد، ونادي الإصلاح بالمحرق وذلك في الفترة من ١٩٥٧م إلى ١٩٧٤م. وقد زاول إتحاد الأندية الأنشطة العامة للأندية مثل إقامة الحفلات في المناسبات الدينية والرسمية، وتبني الاتحاد مشروعا ثقافيا وأدبيا، كما ساهم في إرسال البعثات الطلابية التعليمية إلى كل من العراق وسوريا ومصر وغيرها. كما تبنى الاتحاد مناصرة القضايا العربية، وجمع التبرعات والمساعدات لتحرير الجزائر ولفلسطين، وللمجهود الحربي العربي في مصر.

كان لسجله المشرف في مجال العمل الوطني ، والخدمات التي قدمها في المجال الاقتصادي ، ودوره المهم في نماء وتطوير الحركة الأدبية في البلاد .. كان لتلك الأسباب أثرها في اختياره من قبل قيادة البلاد للعمل بالسلك الدبلوماسي . فقد تم تعيينه من قبل صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير البلاد آنذاك لشغل منصب سفير فوق العادة مفوض لدى جمهورية مصر العربية ، وذلك في شهر سبتمبر من عام ١٩٧١م بعد حصول البحرين على استقلالها في ٢١ أغسطس من عام ١٩٧١م . كما تم تعيينه رئيسا لبعثة البحرين لدى جامعة الدول العربية .

وكان أصغر السفراء سناً في جمهورية مصر العربية في وقته. وقد عرف عنه في الأوساط الدبلوماسية كونه سفيراً ملتزما بالبروتوكول والأعراف الدبلوماسية، سواء في علاقته بوزارة الخارجية ووزارات الدولة الأخرى، أم في علاقاته بالمسئولين في مصر والسفراء فيها. وقد خلف في أرشيف وزارة الخارجية في البحرين ملفات وتقارير دبلوماسية استفاد منها من جاء بعده، كما قامت سفارة البحرين في عهده بدور بارز في اعداد وتدريب عدد لا بأس به من الدبلوماسيين والملحقين والإداريين البحرينيين الأوائل.

عاصر السفير تقي البحارنة الأحداث الكبيرة التي جرت في جمهورية مصر العربية ، وكذلك ما كان منها في إطار الجامعة العربية ، ومن أهمها حرب أكتوبر ١٩٧٣م . وقد بنى علاقات وثيقة أثناء وجوده سفيرا بالقاهرة بالأمين العام لجامعة الدول العربية السيد عبدالخالق حسونة ، والسيد محمود الرياض الذي خلف حسونة في منصب الامين العام لجامعة الدول العربية ، وكانت تربطه علاقات صداقة خاصة استمرت لحين وفاته .

ترك العمل في السلك الدبلوماسي مختارا وذلك في سبتمبر من عام ١٩٧٤م حيث أنعم عليه الرئيس أنور السادات بوسام الاستحقاق من الطبقة الأولى ، تقديرا لجهوده الخيرة في تمثيل البحرين والعمل على إقامة علاقات وثيقة بين البلدين الشقيقين .

وفي أكتوبر من عام ١٩٩٢م تم تعيينه من قبل أمير البلاد الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة عضوا في أول مجلس للشورى وذلك بترشيح من قبل صاحب السمو الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء . واستمر تجديد تعيينه في مجلس الشورى للفترات الثلاث حتى تم حل المجلس في شهر أكتوبر عام ٢٠٠١م في عهد جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة . وقد أنعم جلالة الملك عليه بوسام الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة سنة ٢٠٠٢م ، كما تفضل سمو رئيس الوزراء الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة بمنحه جائزة الدولة للعمل الوطني في عام ١٩٩٢م .

وخلال عضويته في مجلس الشورى شغل منصب رئيس لجنة الشئون الخارجية ، وعضوا في لجنة حقوق الإنسان التي تم تشكيلها في الدورة الثالثة والأخيرة من مجلس الشورى .

وتم تعيينه من قبل جلالة الملك عضوا في اللجنة الوطنية العليا لإعداد ميثاق العمل الوطني . كما تم انتخابه عضوا في لجنة صياغة الميثاق (ديسمبر ٢٠٠٠) .

ويشغل حاليا عضوية لجنة المساعدات الإنسانية التابعة لوزارة الشئون الإسلامية ، ومجلس إدارة مطاحن الدقيق ، وعدد من الشركات ، والجمعيات ، والمدارس الخاصة ، وعضوية منتدى الفكر العربي في عمان بالمملكة الأردنية الهاشمية .

الفصل الثالث

مؤلفـاتـه المنشـــورة

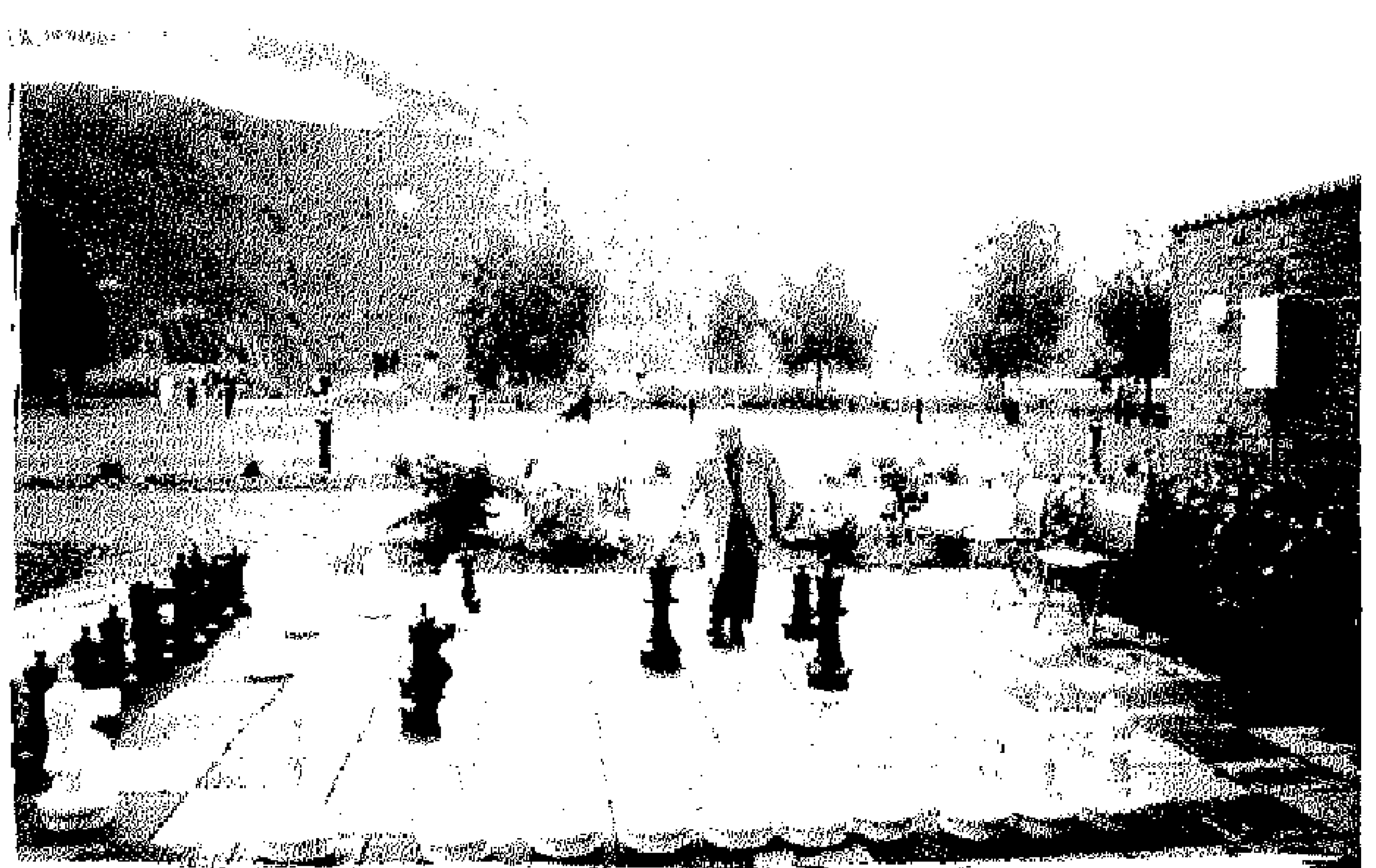
* نادي العروبة وخمسون عاماً ١٩٣٩ - ١٩٨٩ م

* بنات الشعر (ديوان)

* أوراق ملونة

* في خاطري يبكي الحنين (ديوان)





يعد الأستاذ تقي محمد البحارنة من بين المؤلفين البارزين في مجال التوثيق وإصدار دواوين الشعر وكتابة المذكرات. وقد مد الساحة الثقافية المحلية بأربعة إصدارات متنوعة هي :

أولا: نادي العروبة وخمسون عاما ١٩٢٩-١٩٨٩م

صدر الكتاب في عام ١٩٩٠م بمناسبة مرور خمسين عاما على تأسيس النادي. وهو كتاب يوثق تاريخ النادي كأحد الأندية الثقافية والاجتماعية التي ساهمت بنصيب وافر في الحياة الفكرية والأدبية في البحرين بجانب بقية الأندية الوطنية الأخرى وغيرها من المؤسسات الثقافية التي عاصرها النادي أو سبقته والتي ساهمت معه في نشر الوعي الثقافي والتعليمي في البلاد.

يبدأ الكتاب بذكر أسماء الرؤساء الذين تعاقبوا على رئاسة النادي من عام ١٩٣٩م وحتى عام ١٩٨٩م. وتم إهداء الكتاب إلى روح الأستاذ محمد دويغر قائد مسيرة النادي وأول رئيس له، عرفانا بالجميل. وضمت الصفحات الأولى من الكتاب كلمات مهمة بأقلام أربعة من أعضاء النادي الذين لعبوا دورا نشطا في تفعيل الحركة الفكرية والثقافية في البلاد وهم : الأديب الكبير إبراهيم العريض، ويوسف أحمد الشيراوي، وإبراهيم حسن كمال، وتقي محمد البحارنة معد الكتاب.

يتكون الكتاب من قسمين رئيسيين، تناول القسم الأول كلمة إدارة النادي، ومقدمة الكتاب بقلم حسن جواد الجشي، وكلمة المؤلف تقي محمد البحارنة، إضافة إلى خمسة عشر فصلا.

غطى الفصل الأول البدايات الأولى للأندية الأدبية التي تأسست في البحرين وهي : نادي إقبال أوال الليلي، والنادي الإسلامي، والنادي الأدبي بالمحرق، والمنتدى الإسلامي بالمنامة، وهي الأندية التي تأسست قبل نادي العروبة.

تناول الفصل الثاني البدايات الاولى لتاسيس نادي العروبة ودور المجموعة المثقفة آنذاك في العمل على تحويل الفكرة إلى منجز على أرض الواقع، مغطيا الدور الريادي الذي لعبه محمد دويغر في سبيل تأسيس النادي. كما بين دور حسن الجشي في إعداد مسودة نظام النادي الذي اقر من قبل مجلس الإدارة والجمعية العمومية بعد إدخال بعض التعديلات عليه.

خصص الفصل الثالث للحديث عن النادي في عامه الأول ١٣٥٨هـ مغطيا مصاريف التأسيس والتبرعات، والتعريف بالنادي، وإشهاره على المستويين المحلي والخارجي. كما تناول الفصل التحاق أعضاء جدد بالنادي ومعظمهم من المتعلمين، وبعضهم من الوجهاء.

تحدث الفصل الرابع عن الوضع التعليمي والنشاط الثقافي العام الذي يقوم به النادي، مبينا الجهود التي بذلها كل من إبراهيم العريض، وأبي القاسم فيضي، ورضي الموسوي، وحسن الجشي في المشاركة في التدريس بالنادي.

تناول الفصل الخامس ملخصا للنظام الأساسي للنادي . كما تناول الفصل السادس البرنامج الثقافي في العام الأول من تأسيس النادي ، وشمل الكلمات ، والخطب ، وبعض المحاضرات .

وثق الفصل السابع بعض الأحداث والأخبار المحلية والعربية بصورة مقتضبة . وتناول الفصل الثامن الإقبال المتزايد على الاشتراك في النادي . أما الفصل التاسع فتناول عكس ذلك وهو موضوع استقالات بعض أعضاء النادي . ومن بينهم أعضاء مؤسسين .

خصص الفصل العاشر للحديث عن علاقات النادي في محيطه العربي والخليجي والمحلي المتمثلة في حضور بعض الفعاليات الثقافية ، والاشتراك في بعض الصحف العربية الصادرة من تلك البلدان وبخاصة مصر ،وسوريا ، ولبنان ، والعراق . وتمت الإشارة في هذا الفصل أيضا إلى علاقات النادي مع دول الخليج العربي والمجتمع المحلي والدوائر الرسمية والمعتمدين السياسيين ، وإدارة المعارف ، والمدارس الأهلية ، والأندية ، وعلاقات النادي مع الشخصيات المعروفة والوجهاء .

وثق الفصل الحادي عشر الأنشطة الثقافية والأدبية التي نظمها النادي ، وذكرت الكلمات والمحاضرات التي ألقيت في النادي ، كما تم ذكر الحفلات التي أقيمت للمؤسسين ولشخصيات البلاد ومثقفيها ، بالإضافة إلى مداومة الاحتفال بالمناسبات الدينية وبخاصة ذكرى الإسراء والمعراج . ومن بين الأشخاص الذين ساهموا بفعالية في ألقاء الكلمات والمحاضرات كل من :

محمد دويغر ، إبراهيم العريض ، علي التاجر وحسن الجشي .

في الفصل الثاني عشر تم تغطيت الأنشطة المتنوعة ومنها: المسابقات الأدبية ، والمناظرات ، وحملات التوعية الصحية. وتم في الفصل الثالث عشر نشر بعض محاضر الجلسات الإدارية ، والإعلانات والنشرات، وأوراق مختلفة تشتمل على أخبار قصيرة عن أنشطة النادي.

تناول الفصل الرابع عشر أحداث مختلفة لها تاريخها الخاص ومنها : تبرعات النادي للسلاح الجوي البريطاني في أثناء الحرب العالمية الثانية ، والحفلة التأبينية الأربعينية لوفاة المغفور له الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ، وتمثيل رواية الحجاج بن يوسف الثقفي ، وحفلة تأبين المرحوم جعفر الناصر . وضم الفصل أيضا حملة تأثيث النادي والمكتبة التابعة له ، وزيارة الأديب صدر الدين شرف الدين للنادي وإلقاء محاضرة بمناسبة زيارته البحرين .

أما الفصل الخامس عشر آخر فصول القسم الأول من الكتاب فقد استعرض قصة حصول النادي على أرض ، وبناء المقر الكائن على شارع الزبارة .

ركز القسم الثاني من الكتاب على الفترة من عام ١٩٥٤م إلى عام ١٩٨٩م ، معنونا هذا القسم بـ (النادي في مقره الجديد بشارع الزبارة) والمكون من سبع فترات نعرضها في التالي :

الفترة الأولى ١٩٥٤-١٩٥٦م

شملت هذه الفترة افتتاح المقر الجديد للنادي بشارع الزبارة في مارس ١٩٥٤م ، وكان رئيس مجلس الإدارة آنذاك محمد دويغر . وعرفت هذه الفترة بكثرة نشاطها الثقافي حيث شارك أعضاء من الجيل الثاني في رفد الفعاليات الثقافية ، وإحياء أمسيات النادي الأسبوعية ، ومن بينهم : تقي البحارنة ، كريم علي العريض ، علي رجب ، جمعة جعفر منديل ، جميل الجشي ، وسيد علي شبر .

وفي عام ١٣٧٢هـ تأسس نادي سترة باسم (نادي العروبة بسترة)، الذي استبدل في عام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧ م باسم (نادي سترة) ما يعني دور نادي العروبة في التشجيع على دعم تأسيس الأندية في المناطق التي تحتاجها .

الفترة الثانية ١٩٥٧-١٩٦٠م

ترأس النادي في هذه الفترة تقي محمد البحارنة ، وهو من الجيل الثاني ، وساهم مع أعضاء مجلس الإدارة الجديد في دفع عجلة الأنشطة الثقافية وتفعيل دور النادي . فقد نشط النادي في تقديم الحفلات الداخلية ، ومعارض الفنون الجميلة ، وتنظيم المحاضرات . وتشكلت مجموعة من اللجان ساهمت مساهمة فعالة في نماء الحركة الأدبية والثقافية بالنادي ومنها : لجنة النشاط الثقافي ، واللجنة الرياضية ، ولجنة الصيانة ، ولجنة تعديل نظام النادي ، ولجنة الاستفتاء ، ولجنة المكتبة ، إضافة إلى بعض اللجان الفرعية الصغيرة .

ومن الجدير ذكره أن هذه الفترة عرفت باهتمامها بتفعيل دور مكتبة النادي ، وتعديل القانون الأساسي للنادي. كما تم تناول فكرة نشأة اتحاد الأندية الوطنية في البلاد والخطوات الرائدة لإنشاء الاتحاد ، والأنشطة التي قدمها الاتحاد ومنها : أسبوع الجزائر ، ونصرة فلسطين . وقام النادي بدور ريادي بالدفاع عن عروبة البحرين .

الفترة الثالثة ١٩٦٠-١٩٦٤م

تعاقب على رئاسة النادي كل من حسين منديل عام ١٩٦٠م ، ورسول الجشي عام ١٩٦١م ، وحسين منديل مرة أخرى عام ١٩٦٢م ، ويوسف زباري عام ١٩٦٣م .

شهدت الفترة الثالثة أقامت العديد من الأنشطة الثقافية وحفلات التعارف ، والمشاركة في بعض المؤتمرات الأدبية في الخارج ومنها: مشاركة النادي بوفد مكون من إبراهيم العريض وحسن الجشي وتقي البحارنة في المؤتمر الرابع للإدباء العرب الذي عقد في الكويت في نهاية ديسمبر ١٩٥٨م .

الفترة الرابعة ١٩٦٤-١٩٦٧م

ترأس النادي في هذه الفترة حسين جعفر منديل ، واستمر النادي في تقديم فعالياته الثقافية . وقد تميزت هذه الفترة بإقامة حفلات التكريم ومنها: إقامة حفلة تكريمية على شرف مكاتب مقاطعة إسرائيل في ٢٤ ديسمبر ١٩٦٤م، وتكريم الأستاذ الكبير إبراهيم العريض عام ١٩٦٧م اعترافا بفضله وتقديرا لدوره في مجال العلم والأدب .

الفترة الخامسة ١٩٦٨-١٩٧٢م

ترأس النادي في هذه الفترة كل من : يوسف زباري ١٩٦٨-١٩٧٠م ، ومحمد علي الخزاعي ١٩٧١م ، وتقي محمد البحارنة ١٩٧٢-١٩٧٣م . واستمرت الأنشطة الثقافية تأخذ دورها كالمعتاد .

وقد شهدت هذه الفترة تنظيم معارض فنية ، وعرض مسرحية " عمامي الثلاثة " . كما نظم النادي رحلة إلى الإمارات العربية . واشتهر النادي بلعبة " الهوزي " المشهورة في الخارج باسم (البنجو) .

الفترة السادسة ١٩٧٤-١٩٨٥م

فاز جاسم محمد الصفار برئاسة النادي ، واستمر محتفظا بمنصب الرئاسة من عام ١٩٧٤م وحتى عام ١٩٨٥م . ومن بين أنشطة النادي المهمة إقامة حفل تأبين للمرحوم محمد دويغر مؤسس النادي ، بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته وذلك في ٢٣ يناير ١٩٧٧م .

أما أهم أنشطة النادي في تلك الفترة فهو الاهتمام المتزايد بتنظيم الحفلات الترفيهية .

الفترة السابعة ١٩٨٦-١٩٩٠م

تعد هذه الفترة الأخيرة من القسم الثاني من الكتاب ، وقد ترأس النادي رسول الجشي في الفترة من ١٩٨٦ إلى ١٩٨٧م ، وخلفه جاسم محمد فخرو في رئاسة النادي من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٠م . وكسابقاتها من الفترات التي تم ذكرها ، قام النادي بالعديد من الأنشطة الثقافية المتنوعة التي عادت ما يتم ذكرها في البيان الختامي لكل دورة انتخابية .

ومن الجدير ذكره أن الكتاب يتكون من ٢٦٠ صفحة ، وقد ضمت الكثير من صفحاته بعض الصور التاريخية التي توثق أنشطة النادي . كما تم نشر بعض الوثائق كالمراسلات والإعلانات وأغلفة مجلة العروبة التي يصدرها النادي بشكل دوري .



ثانيا : بنات الشعر (ديوان شعر)

الشاعر تقي محمد البحارنة من الشعراء المبرزين الذين عرفهم تاريخ البحرين المعاصر . فهو الشاعر الملتزم لكل ما يتطلبه الشعر العربي من معايير وأوزان . وهو شاعر مرهف الحس ، دقيق في اختياره الكلمات التي تجسد أبيات قصائده ، إلى جانب ما يتمتع به من ذوق رفيع ، ما جعل شعره يتميز بجرس موسيقي جذاب .

تقي شاعر مبدع يعيش في مجتمعه بمشاعره ، وتتفاعل أحاسيسه مع ما يعيشه من ظروف ومناسبات ، وتغلب على شعره أحيانا النزعة الرومانسية ، ولا غرور في ذلك فقد تأثر بأستاذه الشاعر الكبير إبراهيم العريض احد رواد الشعر الرومانسي في الوطن العربي . وعرف تقي بشعره الوجداني والقومي والعاطفي .

صدر ديوانه الأول (بنات الشعر) في عام ١٩٩٦م جمع فيه قصائد نظمها في سنوات مختلفة ، وفي مناسبات متنوعة ، ما جعل ديوانه باقة من الورود الزاهية الألوان .

ينقسم ديوانه إلى سبعة أقسام هي :

القسم الأول: أشعار وأسفار

حاول في هذا القسم تغطية بعض أسفاره في الخارج مع ذكر أهم الأحداث والمناسبات التي صادفته في سفره . ففي أثناء وجوده في (برشلونة) باسبانيا في عام ١٩٨٤م ، أعجبه مطعم (أبوخليل) وهو مطعم لبناني كان يقدم فيه من أطباق لذيذة في ظل جو شاعري ، ما جعله يمسك ريشته ليرسم لنا هذه اللوحة :

أبو خليل مطعم قد حوى ... من كل ما لذ مذاقا وطاب
في (برشلونة) جاء من مشرق ... فشمسه تشرق بعد الغياب
خير مكان فيه ما نشتهي ... تدعى له عائلة .. أو صحاب
من جبل الأرز ومن زحلة ... وكرمها ، مازاته والكباب
وقهوة لذت لشرابها ... من (بعلبك) طعمها المستطاب
دارت مليحات حسان بها ... وهن في ريع الصبا والشباب
فليس يدري الضيف هل يحتسي ... من صفوها .. أو لحظهن الرضاب

وفي أثناء حضوره مهرجان (أصيلة) بالمغرب في عام ١٩٨٤م ، طالعنا بقصيدة يصف فيها تلك البلدة وصفا رائعا ، يبرهن على مدى قدرته في نظم الشعر وفق إحساسه الداخلي . ونقتبس من قصيدته الأبيات التالية :

لاحت (أصيلة) في الأصيل ... والشمس تؤذن بالرحيل
سكبت على الوجنات منها ... حمرة الشفق الخجول
وعلى المآذن والقباب ... وفوق أهداب النخيل
أهدت إلى الدنيا الجمال ... ونوعته في الفصول

وإلى محبي الفن ألوانا	من الطيف الجميل
فالضوء سر جماله	ونموذج الظل الظليل
هي ريشة الفنان	تعبث في ضمير المستحيل

القسم الثاني : قصاصات

عبارة عن باقة متنوعة من القصائد ، لكل قصيدة خصوصيتها ومعناها . نظم بعضها وهو في الوطن ، ونظم البعض الآخر أثناء سفره في الخارج . وتتمثل قصائد هذا القسم في : المدينة ، حكمة الصمت ، المتغطرسة ، انتظار ، تعليقات على هامش ندوة ، وتخيلات . ففي قصيدة (المدينة) التي نظمها في القاهرة عام ١٩٧٤م ، يصدح شاعرنا فيقول :

مداخن المدينة القديمة ..
وزورق صغير ..
يلفه الضياع ..
يبحث عن شعاع ..
وقالت الكتب:
كانت هنا جنات عدن
وكانت الأنهار والخضرة والطيور
وكليوباترة – والبنات الحور ..
يلفهن العطر والبخور ..
مدينة تلهث تكتوي
تئن أو تثور أو تفور ..
في العمق في مستنقع الحياة والنشور
أمانها يبحث عن أمان
ومجدها استعصى على الزمان

القسم الثالث : في رحاب الأسرة

تتعلق قصائد هذا القسم في أسرته من أبنائه إلى زوجته . ونرى الشاعر في هذه القصائد بالذات يفيض حنانا ورقة ونعومة خالصة وعطف كبير . وتتميز هذه القصائد بقصرها لكنها تحمل معان كبار . ففي أثناء سفره إلى (هونغ كونغ) عام ١٩٦٢م نظم قصيدة في ابنه (أسامة) وكان حينها طفلا ، جاء فيها :

أسـامــة تسـلـو بـــه أمـــه — إن غاب يوما — والد في السفر
عيناه .. عيناه وفي وجهـه — شبـه . وفـي المبسـم منـه أثـر
وجه صبوح مشرق كالضحى — .. وإن آجـن الليل فهـو القـمـر
يرفـرف الحـب عـلى مهـده — ويكبـر الحـب إذا مـا كـبـر

ونظم قصيدة في ابنتيه (لميس) في عام ١٩٧٧م بمناسبة سفرها إلى كندا للدراسة ، تجسد عطف الوالد ولوعة الفراق والشوق إلى رؤية فلذة كبده . وأنت تقرأ أبيات قصيدته .. تشعر بما يمتلكه شاعرنا من قدرة فائقة على التعبير الصادق في الحب والحنان الذي أبدعته قريحته ، فيقول :

البـيــت خــال يــا لمـيــس — والـحـي لـيـس بــه أنـيــس
بعــد المــزار .. ومــا بعــدت — فـأنــت شمس .. بـل شمـوس
قــد زار طيـفـك فـي الكـرى — فتنـفـس الشــوق الحبـيــس
والقـلـب عـــاوده الحـنــين — فـفـي الحشـا مـنــه رسـيـس

في عام ١٩٩٢م نظم قصيدة في أبنه (أيمن) ، وكانت قطعة رائعة غنية بموسيقاها العذبة :

أيـمــن فيـك اجتـمـع الكــل — الـــورد والـريـحـان والـفــل
مـرت عليـه نسمـات الصبـا — ومســه الـوابــل والـطـــل
وضاع فيه العطر حتى انتشت — بـلابــل — واستيقـظ الحفـل
وكـلـمـا سـحــت لــه دمـعـــة — رقــراقــة .. قبـلـهـا الـرمـل

ونرى شاعرنا أثناء تواجده في بكين عام ١٩٩٢م يزداد شوقا إلى شريكة حياته (أم البنين) ، فينظم قصيدة طويلة يعبر فيها عن شعوره نحوها وهو في الخارج ، وعن دورها الكبير الذي تقوم به في تربية الأبناء .. فينشد شعرا عاطفيا تغلب عليه الرقة وجمال الكلمة وبعد المعنى :

يــا أم أيـمــن بـــل أســامـــة — ردي عـلـى قـلـبــي هـيــامـــه
عـمـت صـنـائـعـك الجمـيـع — وأمـطــرت مـثــل القـيــامـــة
رصدت لفعل الخير جـدواهـا — وآثـــــــرت اهـتـمــــامـــه
ورعــايـــة الأطـفـــال فــهـــي — بـهـــم شـغــوف مستهـامـــة
قـد أحكمــت تـدبـيــرهـــا — بـيــن السمــاحــة والصـرامة
بالـحـــزم أحيـــانا — وحـيـنـا — بالـــرضـــي والابتـســامـــة
في نهجـهـا الطـبـع الأصـيـل — وفـــي تـفـانـيـهـــا شـهــامــة
فهـي الـزعـيـمـة أمـرهـــا — مـــاض .. وتزهـد في الزعـامة

ونظم قصيدة في ابنه (ياسر) في عام ١٩٩٤م مغطيا بذلك جميع أفراد أسرته ، ضمنها شعوره الأبوي ، قائلا :

لـك فـي فؤادي موئل ومـقيل ... منذ إستويت وأنـت فيـه نـزيل
عرش (لياسر) في الحشا أركانه ... حـب وفـي محـرابـه تـرتيـل
سعدت بعيدك في القلوب جوانح ... لم يشفها مـن ثغـرك التقبيـل
وصبت إلى بشرى زفافك فرحة ... يحلو بـهـا التزمير والتطبيل
بوركت من ولد زكا من أصله ... فـرع على سنن الهدى مجبول

القسم الرابع : رسائل شعرية

يضم هذا القسم مجموعة قصائد هي أقرب إلى الاخوانيات ، لا يخلو بعضها من مداعبات ، تطرب النفس ويشتاق إليها القلب ، نقتبس منها قصيدة بعنوان (تهنئة ومداعبة) بين شاعرنا تقي وبين الشاعر احمد محمد آل خليفة ، بمناسبة زواج أسامة . فقد نظم احمد محمد آل خليفة قصيدة بهذه المناسبة السعيدة قال فيها :

زف في (فندق الخليج) أسامة ... لعروس بهـا الصبـا والوسـامة
في احتفال باهى الربيع نجوم ... الأفق مـن نوره ووشـى ظلامـه
عاش في حبها وعاش (تقي) ... فـي وقـار وصحـة و سلامـة
إن من صار في الكهولة جـدا ... لحـري بـه لبـاس العمـامـة

وفي الحال رد تقي على التهنئة

أيها الفاضل الذي زانه الشعر ... وأعلى بيـن الأنـام مقـامـه
همت بالشعر فامتلكت نواصيه ... وأرخـى لك القـريـض زمامـه
فترجلتـه وأهـديتـنـي منـه ... لامـا ومـا ألـذ كـلامـه
وتحسـرت أن تـرانـي جـدا ... ثـم داعبتني بلبس العمـامـة
إن تكـن قـد بدأتني بكـلام ... شاعـري الرؤى .. إليك تمامة
أنـت بالحسن هائم والصبايا ... بتصابيـك قلدتك الزعـامـة
لم تـزل عـاشـق الجمـال ... فللعشق نصبناك شيخه وإمامه
فـأفـدنـا جزاكـم الله خيـرا ... هل تذوقت طعمه ومدامه ؟؟

القسم الخامس : شموع ودموع

خصص الشاعر القسم الخامس من ديوانه للمراثي . فقد رثى والدته ، وآل البيت ، وبعض أصدقائه . ظل في كل ما يقوله من أبيات الرثاء أدبيا رفيعا يعبر بصدق وأمانة عما تكنه مشاعره من إخلاص نحو من يرثيه .

بدأ مراثيه بقصيدة عنوانها (إلى روح الوالده) عبر فيها عن شعوره الخالص نحو والدته التي أحسنت تربيته ، وغذته بالقيم الإسلامية السمحاء ، وبحب آل البيت عليهم السلام . فلنصغ إلى هذه الأبيات الشجية :

ما كنت عن مدح آل البيت منصرفا ... أو ساليا مر ماقاسوه من إحن
(لا عذب الله أمي إنها شربت) ... من منهل النور لا من نطفة الدرن
من حب طه ارتوت في المهد وارتشفت ... (حب الوصي وغذتني من اللبن)
حب تخلق في الأرحام واتصلت ... بحبله نسبا من سالف الزمن
فطيب الله أنفاسا لها حبست ... وقفا على ذكر مالاقوه من محن
ونور الله قبرا ضم تربتها ... وخصها منه بالرضوان ذو المنن
ولم تزل ديمة تسقى مضاجعها ... وتستلين الثرى بالهاطل الهتن
شفيعها عند يوم الحشر عبرتها ... على الحسين وحب فيه لم يهن

القسم السادس : مناسبات

على الرغم من قلة قصائده الخاصة بالمناسبات ، إلا انه أستاذ ماهر في نظمها ، ويتمتع بمقدرة على التعبير المطلوب في كل مناسبة ، مع بصيرة نافذة في إدراك مدلولاتها ومضامينها ، فتأتي القصيدة وكأنها لوحة فنية متكاملة تأخذ بلباب ناظريها .

من بين قصائد المناسبات ، قصيدة بعنوان (تحية للأمير المفدى بمناسبة العيد الوطني المجيد) نظمها في عام ١٩٩٣م :

أوال لها في يوم عيدكم عيد ... تواصل فيه طارف وتليد
وأيامكم زهر وفي القلب حبكم ... تمكن في الأحشاء فهو وطيد
شمائل من حلم وجود وسؤدد ... وعطف ولطف .. والخصال عديد
على الرحب معطاء وفي الخير سابق ... وبالحب ينمو فضلكم ويزيد
إذا كان جود المزن بالدمع هاملا ... فجودكم سمح العطاء سعيد

القسم السابع : صبوة قلب

يختم الشاعر تقي البحارنة ديوانه بقصائد الغزل ، وله فيه أكثر من موقف . فهو يذوب في غزله برقة شاعرية رومانسية ، فيعطي للغزل طعما ولونا ومعنى . انه يعشق بكل جوارحه ووجدانه فينظم شعرا في الغزل يفيض عذرية ، ويزينه بصور جمالية تتمثل في كلماته التي يصبها في قوالبها ، فيوجد موسيقى عذبة تطرب سامعها .

نظم شاعرنا العديد من قصائد الغزل ، ويحار المرء في اختيار أفضلها ، فجميعها تتربع في أعلى الرتب . وللبرهنة على ما ذهب إليه الباحث نقتبس أحدى قصائده بعنوان (الشاعرة) التي نظمها في عام ١٩٨٧م ، يصف فيها منهجه في الحب :

إن كنت شاعرة .. فإني شاعر — الحب عندي منهج ومشاعر
يصبو فؤادي للجمال وإنما — في غير ذلك .. فهو صب حائر
يشتاق لكن التردد مانع — ويهيم لكن التجلد قاهر
بيني وبينك سلم لا يرتقي — لذراه منخلع الفؤاد محاذر
متعثر الخطوات يحمل همه — بين الضلوع إذا تردد خاطر
حسبي جمالك مرتعا أسلوبه — والسحر من عينيك فيض غامر
ما الفوز إلا للجسور إذا رأى — وردا تغشى الورد فهو مغامر

ثالثا: أوراق ملونة

أصدر كتابه الثالثة بعنوان (أوراق ملونة) في عام ١٩٩٨م ويقع في ٣٧٤ صفحة . وحسنا أختار هذا العنوان لأنه يحمل بين صفحاته مواضيع متعددة ومختلفة . فالكتاب تحسبه ترجمة لحياته ، أو مذكرات تحكي نشاطه ، إضافة إلى توثيقه جزءا من تاريخ البحرين المعاصر . كما يغطي الكتاب بعض أعماله الأدبية والثقافية التي نشرت في مجلة صوت البحرين .

وباختصار شديد ينتظم في هذا الكتاب شمل مجموعة من الذكريات والمقالات والدراسات والأفكار والقصائد ، تحمل كل منها طابع عصره وظروف زمانه ومكانه . فهي أوراق شتى كما عبر عنها المؤلف ، يتأرجح ظلالها بين الأدب والسيرة الذاتية والأسفار وشئون الفكر والاجتماع .

يبدأ الكتاب بتقديم بقلم الأستاذ إبراهيم العريض الذي أثنى على بادرة تقي الطيبة بإصدارة هذا الكتاب الذي جمع العديد من المواضيع المتنوعة والمهمة . كما إنه لم يتحدث إلا بما رأى وما سمع نفسه ، ولا يعول مطلقا على ما يروى على الألسن ، وهذه ميزه تجعل الكتاب من المصادر التي يعول عليها .

وصف العريض تلميذه وصديقه فيما بعد " تقي " مبينا ما كان يتمتع به من فطنه وعقل راجح فقال : " إن عشرتي بتقي البحارنة كطالب تبدأ – أول ما تبدأ – في المدرسة الثانوية التي التحقت بها خلال الحرب العالمية الثانية في الأربعينيات كأستاذ معار للتدريس من قبل شركة (بي سي ال P.C.L) ، فوجدت فيه روحا متطلعة للمعرفة ، متفتحة للحياة ، مطمئنة إلى نفسها ، تحاول أن تجمع بين الواسطة والغاية من أوسع الطرق ، ولا تتخلى عن موضوعيتها في أشد الحالات عتمة . كأنما يقترن عندها ما يراه البصر بما تدركه البصيرة ، اقترانا يغمره الهدوء في جميع الأحوال " .

يضم الكتاب أربعة فصول ، مستعيضا بكلمة الورقة بدلا عن الفصل . ففي الورقة الأولى يتحدث المؤلف عن سيرة حياته منذ ولادته إلى مراحل التعليم المختلفة ، وهذه الأمور تم تبيانها في الفصل الثاني من الكتاب .

تناول المؤلف حركة تأسيس نادي العروبة ، والظروف التي مر بها ، والدور الذي لعبه محمد دويغر في تحويل فكرة تأسيس النادي إلى منجز على أرض الواقع . كما تطرق إلى أنشطة النادي مركزا على المكتبة باعتبارها العمود الفقري لنشر الوعي الثقافي . وغطى المراحل التي مرت على النادي بدءا من مقره بشارع الشيخ عبدالله إلى انتقاله إلى شارع الزبارة ، وصولا إلى مبناه الجديد بمنطقة الجفير . وقد تم تناول نادي العروبة بالتفصيل أثناء الحديث عن الكتاب الذي أصدره تقي بعنوان " نادي العروبة وخمسون عاما ١٩٣٩-١٩٨٩م " .

من الأمور الجديدة التي تحدث عنها المؤلف في ورقته الأولى " دعوة الأنصار " وهي الحركة التي قادها احمد صبري في القاهرة ، حيث تحدث عن الأنصار بشيء من التفصيل . وقد صدرت مجلة " الأنصار " لتحمل صور التوجه الثقافي ورسائل الأنصار باعتبارها مادة هذا التوجه ومرجعه ، والداعية إلى حركة التنوير الإسلامي غير المنغلق على نفسه .

تكونت جماعة الأنصار من بعض المثقفين في مصر ، وقرروا الهجرة من عالم المدن الضيق إلى فضاء الصحراء الواسع . وحدث أن توقفت مجلة الأنصار عن الصدور بعد عدد ذي الحجة من عام ١٣٦٣هـ . وخيم الحزن على قراء المجلة لتوقفها ، وتوالت الدهشة ممزوجة بالأسى والمرارة عند جماعة الأنصار ومؤيديها ، وكأنهم لم يتوقعوا أن يسكت هذا الصوت الجريء ، وتنقطع تلك الومضات المضيئة في يوم من الأيام .

تأثرت مجموعة من البحرين بجماعة الأنصار ومن بينهم تقي البحارنة ، وكانوا يلتقون في مواقع مختلفة لدراسة فكر جماعة الأنصار . ومن بين المواقع المدرسة والنادي والسوق، إلا أن أجمل اللقاءات وأهمها كانت تتم في مجلس الشيخ خالد بن محمد آل خليفة . واجتمعوا أحيانا بالمكتبة الخليفية بالمحرق ومجلس الشيخ علي بن خليفة في المحرق أيضا ، أو على ساحل " الجابور " قبالة قلعة البحرين .

بعد توقف مجلة الأنصار وقرار الجماعة الهجرة إلى الصحراء ، انقسمت المجموعة المتأثرة بالأنصار في البحرين إلى فريقين . فريق أثنى على التجربة ، وفريق أظهر التأثر ثم أمسك عند هذا الحد وفي مقدمة هؤلاء حسن الجشي ،

الورقة الثانية : أوراق مسافر

تناول المؤلف في ورقته الثانية رحلاته إلى بعض البلدان مركزا على زيارته للأندلس ولبنان والبرتغال . ففي عام ١٩٦٧م قام برحلة إلى الأندلس ، وقد بدت له فيما تبقى لها من زيها العربي كالعروسة الجميلة المحنطة في ثوب زفافها الأول . ولم تكن له معرفة بأحوال الأندلس آنذاك سوى ما رشح في ذهنه من أن بلاد الأندلس هي الفردوس العربي المفقود . وكتب خواطره وانطباعاته أثناء تجواله في بعض مدن الأندلس وهي : مدريد ، وطليطلة ، واشبيلية ، وقرطبة ، وغرناطة ، وهي كتابات أقرب إلى مذكرات قصيرة .

تعد زيارته إلى لبنان من بين أهم مذكراته ، وقد غطت الحيز الأكبر من صفحات الورقة الثانية . وحاول المؤلف أن يغطي كل لبنان بمدنه السياحية وسهوله ، والحياة السياسية والتعليمية فيه . فقد تحدث عن المدن المصائف ، مبينا أن سكان الجبال الناعمين بالجو اللطيف والأرض اليانعة ، والجمال الطبيعي الفاتن ، هم وسكان المدن الضيقة ذات الحرارة اللاهبة والجو الخانق ، سواء من حيث راحة الضمير واطمئنان النفس .

تناول بشيء من التركيز المقتضب المصايف الهادئة ، والحياة في الضيعة ، وعيون الصحة ، والمصحات والمستشفيات والخدمات التي تقدم للمرضى والتي تتفاوت في كل مستشفي عنه في الآخر .

تطرق المؤلف إلى اللهجة اللبنانية ، والمجتمع اللبناني ، والطوائف والأقليات ، والحياة السياسية ، والحياة الثقافية ، والتعليم وفق مراحله المختلفة . كما تحدث عن المرأة والمجتمع وأبدى إعجابه بالمرأة اللبنانية والحرية التي تتمتع بها ، بخاصة وان زيارته إلى لبنان تعود إلى عام ١٩٥٤م حين كانت بلدان الخليج تحرم على المرأة الاختلاط بالرجل .

كانت رحلته الثالثة إلى البرتغال في عام ١٩٧٢م ، وكانت قلعة البحرين التي كانت تعرف في الماضي بقلعة البرتغال ماثلة في خياله . وقد عبر المؤلف عن انطباعاته الخاصة أثناء زيارته لبعض المدن والمؤسسات الثقافية في البرتغال ، ووصفها وصفاً دقيقاً في كتابه .

ركز المؤلف على ثلاث مخطوطات شاهدها في المكتبة العامة هناك تتحدث عن البحرين . فقد ورد في المخطوطة الأولى فصل عن البحرين من حيث المساحة والأهمية ، وان فيها ثلاثمائة قرية ، وهي غنية بالتمر والتين والرمان والخوخ والبساتين المثمرة . وفيها بيوت من حجر ، وهي غنية بالأسماك ، ومشهورة بأجود أنواع اللؤلؤ .

جاء في المخطوطة الثانية أن هواء البحرين طيب ، وفيها أمراض ، وبحرها فيه صخور خطيرة ، كما أن بها مياه معدنية . وتحدثت المخطوطة الثالثة عن ملك شيراز ، وما كان يدفعه أهل البحرين من مبالغ تقدر ب ٨٠ ألف (بازا تاس) وهي عملة هندية مقابل السماح لهم بصيد الأسماك " الجوافر" فقط ، وأن لديهم ستمائة سفينة والجزيرة غنية باللؤلؤ ، ويدفع أهلها ضريبة للفرس ، لكنهم يفضلون ملك هرمز على الفرس .

الورقة الثالثة والرابعة : أوراق أدبية وإسلامية

ذكر فيهما بعض المقالات الأدبية والنقدية التي كتبها ونشرت في بعض المجلات . كما ذكر المحاضرات التي ألقاها في مناسبات مختلفة . ومن الجدير ذكره أن الباحث خصص الفصل الرابع للحديث بشكل مركز عن أهم الدراسات والمقالات الأدبية والنقدية والمحاضرات التي ألقاها تقي البحارنة في داخل البحرين وخارجها .

رابعا : في خاطري ... يبكي الحنين (ديوان شعر)

صدر ديوانه الثاني (في خاطري ... يبكي الحنين) في عام ٢٠٠٣م ، وتم توزيع قصائده على سبعة أقسام كما كان ذلك في ديوانه الأول .

ضم القسم الأول قصائد عن جلالة الملك في مناسبات مختلفة ، ومن بينها قصيدة (الوطن .. والقائد) التي نظمها في ٢٨ مارس ٢٠٠٢م :

عشقتك إسما .. وناديت بأسمك .. حتى انتشى مسمعي
وقالوا بأنك فوق التراب .. وقلت بأنك في أضلعي
يهيم بك الناس في كل قطر ، ومن كل صوب ، وفي موضع
وأنت الحبيب لكل القلوب ... وأنت المبجل في المجمع
أب واحد أنت فوق الجميع ... لدى المثخنين أو الجوع
ويشقي بفرقتك الأبعدون .. إذا زار طيفك في المخدع
وتهفو قلوب إذا ما نات .. حنينا إلى حسنك الأروع
بك الشمل مجتمع ، والنفوس .. تجود .. بإيماءة الإصبع
حمتك النفوس ، وشم الرؤوس ، وعقل المفكر والمبدع
أنادي بلادي بعهد مليك .. يفيض حنانا على الأربع
أبحرين . سيرى فان الزمان . توقف يدعوك .. سيرى معي

خصص الشاعر القسم الثاني للقضية الفلسطينية ، ونظم العديد من القصائد التي تمتدح الأبطال والشهداء وجميع مناصري الشعب الفلسطيني . ولنقتبس من تلك القصائد بعض أبيات قصيدة (طعم الشهادة) التي نظمها في الخامس من فبراير ٢٠٠٢م :

في شرعة الباغي الجهاد محرم
وجهاد " حزب الله " جرم أعظم
والقادة الأحرار في أرض الفدا
ورفاقهم ، بنضالهم ، قد أجرموا
يا أيها المحتل أرض بلادنا
صلى عليك الخانعون وسلموا
أيصير من يسعى لنيل حقوقه
ساع لإرهاب ، وأنت الأرحم ؟
من غير أمريكا يصدق كذبة ؟
جوفاء... روجها كذوب مجرم؟

ضم القسم الثالث قصائد متنوعة بعنوان "سباق المسافات" تتمثل في: تحية للصين، بائعة الرمان، حوار بين أغادير وايموزار، همسات الغابة، في متحف الإنسان وجميع قصائده ذات أهداف محدودة، تشرح بوضوح تام المناظر التي شاهدها وتأثر بها فقال فيها شعرا.

ففي قصيدته (تحية للصين) التي نظمها في ٣٠مارس من عام٢٠٠٢م رسم لنا صورة واضحة المعالم لطبيعة الصين واهم معالم هذا البلد ونظامه وطريق معيشة ملايينه.

هي الصين تدهش من زارها — وتطوي على السر إخبارها
وتعمل في الصمت كالعنكبوت — وكالنحل ترشف أزهارها
ملايينها أشربت طاعة — وحبا يسير أقدارها
تولت قيادتها أمرها — تقول... فتسمع تأمارها
أطلت من السنوات العجاف — وأضفت على الكون أنوارها

ويختم القصيدة فيقول:

فبوركت يا صين ... شعبا وملكا — يوطد بالعزم إصرارها
ويا "صين" مدي إلينا الجسور — نصد عدو لنا كارها

تناول في القسم الرابع "أشعار التجار" مركزاً على أسواق الأسهم، وفن الإدارة والمعاملة، وغير ذلك من أمور تتعلق بالمال والتجارة والاقتصاد. وقد نظم في هذا المجال القصائد التالية : فن الإدارة، أعراس تأمينية، جمعية عمومية، سوق الأوراق المالية، أشعار في سوق البورصة، إلا أن أجمل قصائده هي تلك التي نظمها وألقاها في الحفل الذي أقامته شركة التأمين الأهلية لتكريم عضو مجلس إدارتها المنتدب السيد علي صالح الصالح بمناسبة تعيينه وزيرا للتجارة في عام ١٩٩٦م.



حبيبة الأهل، ضاقت بالهوى السبل أخلفت ميعادنا، والشوق يعتمل
في كل حين نرى منها مفاجأة فتشغل البال منا... ثم ترتحل
فدع حديث الهوى في وصل غانية وسل عن العشق والعشاق ما فعلوا
حل السرور بنا والشمل مجتمع والقلب منشرح، والأنس مكتمل
في ليلة بدرها أوفى بطلعته (أبو حسين) فاهدأ أيها الرجل
هجرت حسناء قد زالت نضارتها إلى نضارة أخرى، ريقها عسل!

خصص القسم الخامس من ديوانه للمراسلات والمداعبات، وتتمثل بعضها في استلامه دواوين شعر أو إهدائه دواوينه أو قصائده إلى أحد الشعراء. فقد أهدى ديوانه (بنات الشعر) إلى الشاعر محمد حسن كمال الدين، فنظم الأخير قصيدة نقتبس منها الأبيات التالية:

أبا أسامة جاءتني تعانقني "بنات شعرك" تحكي رقة السحر
فرائد الشعر جاءتني بلا وجل فقلت: هذي بنات الأنجم الزهر
سافرت فيها ووجه الصبح أدركني وسافر الشوق بين القلب والبصر
تذيبني كلمات الحب مرسلة من قلب من ارشد العشاق للسهر
"بنات شعرك" أغوتني بطائرها كنسمة عطرتها زخة المطر

وأجابه شاعرنا تقي بقصيدة نقتبس منها هذه الأبيات .

من كمال الحسن قد هطلت مزنة .. للود عنوان
فارتوى روض بوابلها وانتشت بالشعر أوزان
ملهم الإبداع طاف بها وسقاها وهو جذلان
ساقها بالحب ناظمها وهو في الأشعار فنانا

"الألف والسكن" عنوان القسم السادس، وجلها قصائد تتمثل في الأفراح أو ما عبر عنه الشاعر ببطاقة تهنئة.ومن عناوين هذه القصائد: بطاقة تهنئة (لأم البنين) ، بطاقة تهنئة لإبنتنا الحبيبة لميس ، بطاقة لولدنا الحبيب أسامة ، تهنئة لولدي ياسر ، ليلة زواج ياسر ونانسي ، بطاقة تهنئة لولدنا الحبيب أيمن ، تهنئة للجار الجديد رسول الجشي .

ومما نظمه في قصيدته بمناسبة جاره الجديد رسول الجشي .

في يناير من عام ١٩٩٤م، اخترنا الأبيات التالية:

نقل فؤادك في غرامة (جرداب) من بعد المنامة
حسنا فعلت أخي فقد صاب الغرام بها.. "غرامة"
لا تأس للماضي القديم بها ولا تخشى الملامة
أين الجوار وقد مضى عنها الأشاوس و"النشامة"
واحتل ساحتها الأجانب واستباحتها الرطانة

حدد الشاعر تقي "صروف الدهر" عنوان القسم السابع من ديوانه رثى فيه مجموعة من أصدقائه وهم: إبراهيم العريض، وعلي العواجي، ود. علي مطر، وجاسم محمد فخرو، وإبراهيم حسن كمال.

وتعد قصيدته (دمعة على قبرا لحبيب الراحل إبراهيم العريض) من بين أروع قصائد الرثا التي نظمها لقربه الشديد من الأديب الراحل، فجاءت كلماته معبرة عن الوفاء والإخلاص لأستاذه.

أبا الشعر، طال انتظار القوافي فهلا أجبت لهن التماسا ؟
وأطلقت من سجنه طائرا تغنى له الروض شوقا.. فماسا
"عرائس" غابت زغاريدها وطالت على المعجبين احتباسا
أرى الحزن يعتصر المقلتين وما طبع مثلي أن يتناسا
بكى القلب قبل بكاء العيون عليك.. وأفضى شجاه وقاسى
يقولون مت... ولو أكملوا لقالوا: تجرعت في الخلد كاسا

"أشواق" عنوان القسم الأخير من ديوانه، حيث الفرح والبهجة والحب مسك ختام ديوانه. وكان نصيب هذا القسم خمس قصائد تشع في نفسية القارئ البهجة والسعادة. ففي قصيدته (ليالي الأفراح) يعبر تعبيرا صادقا عن الحب، فنراه يصدح قائلا:

كثر الزحام وما ملكت عناني وبكل ثغر فرحة وتهاني
وتباعدت عني شخوص أحبة فإذا الذي أقصاهم، أدناني
يا سائلا عني وأين مكاني إني جلست على فم البركان
كل المليحات الحسان بجانبي وأخال كل مليحة تهواني
الحاظهن.. وآه من نظراتها "تلك" التي ارتعشت على أجفا







الفصل الرابع
المقالات والمحاضرات

أولاً : المقالات

* ابن المقرب العيوني .. شاعر مجهول
* مقدمة في الشعر العربي (١)
* مقدمة في الشعر العربي (٢)
* كتاب " الفتوة عند العرب "
* الإسلام قول وعمل
* إبراهيم العريض كما عرفته أديبا وإنسانا



ثانياً : المحاضرات

* نهضتنا بين العروبة والإسلام

محاضرة بنادي الأهلي بالمنامة - ١٩٥٨م

* أمسية أدبية

محاضرة بنادي العروبة - ١٩٨٩م

* حكايات منسية من أدب البحرين

محاضرة بالنادي العربي بلندن - ١٩٩٤م

* فضيلة الشيخ عبدالحسين الحلي

محاضرة في ديوان الكوفة في لندن - ١٩٩٧م

المقالات والمحاضرات

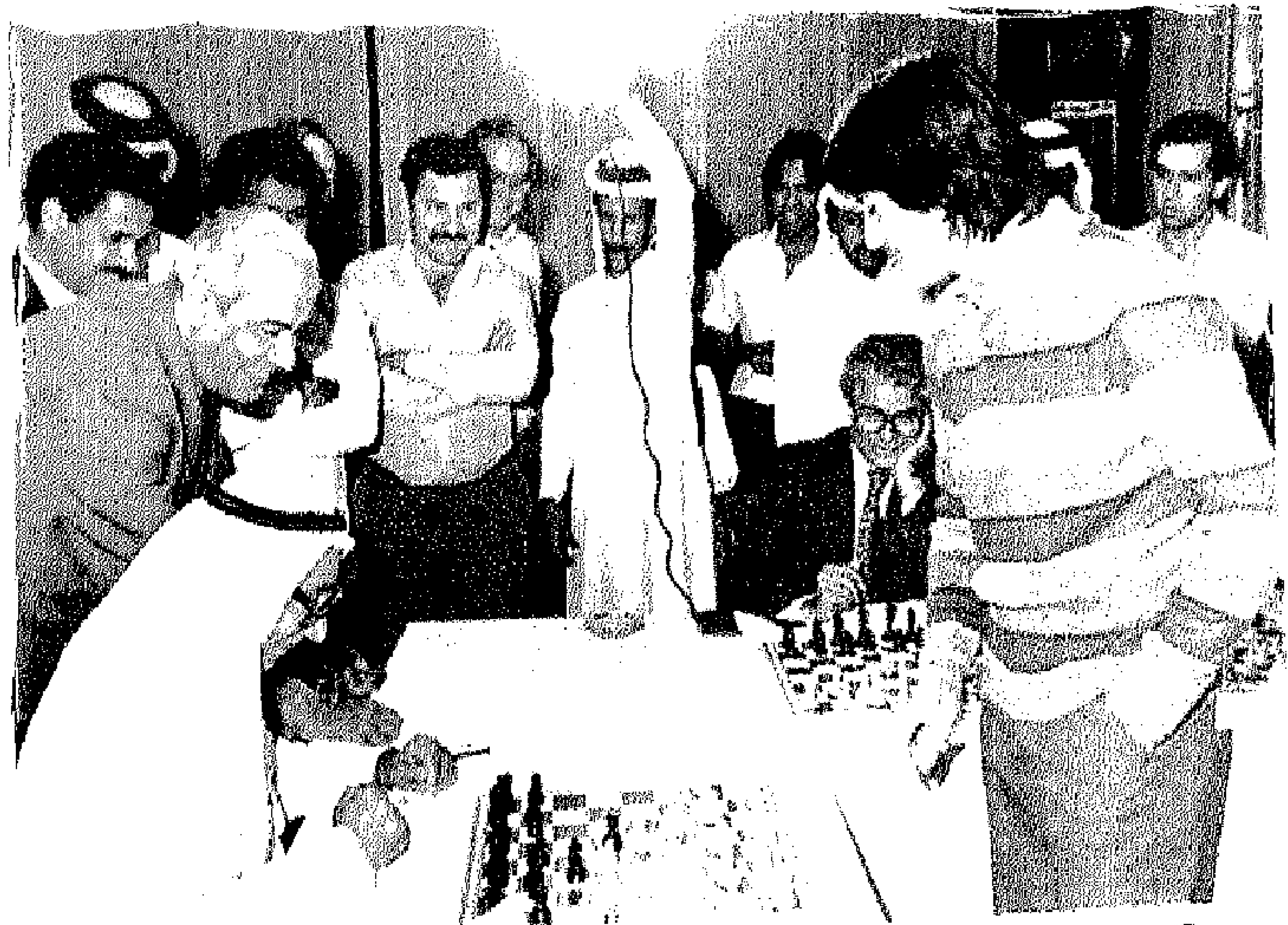
عرف الأستاذ تقي محمد البحارنة بقلمه الرصين في جميع مؤلفاته ، ومقالاته الأدبية والنقدية التي صاغها بلغة عربية رفيعة المستوى ، مستخدما أسلوبا بلاغيا جديدا يمتاز بالسهولة والوضوح ودقة التعبير ، وترابط الأفكار . وكان لأسلوبه هذا الأثير الكبير في جعل المقالات التي يكتبها والكتب التي يؤلفها تنتشر بسرعة بين أيدي القراء .

نالت مقالاته ومحاضراته ، وأمسياته الشعرية ، اهتمام الأدباء والشعراء والنقاد ورجال الفكر والسياسة في داخل البلاد وخارجها .

ومن الجدير ذكره أنه بدأ كتابة المقالات الأدبية والنقدية منذ ريعان شبابه ، ناشرا الكثير منها في مجلة " صوت البحرين " التي صدرت في الفترة من عام ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٥٤م .

وقد اختار الباحث مجموعة من مقالاته المتنوعة ، ومحاضراته المختلفة كمثال حي على الدور الريادي الذي لعبه في تفعيل العمل الثقافي في البلاد عبر سنوات مختلفة .





أولاً: المقالات

ابن مقـــرب ... شـــاعر مجهـــول !

في غمرة الماضي الغابر، منذ قرون سبعة ماضية، طوت يد الزمن صفحة خالدة لشاعر بحراني عظيم، عاش في البحرين، فكان مثالاً للمناضل الحر والشاعر المصلح.

ويتراكم غبار السنين والأعوام على سيرة هذا الشاعر وعصره، وإذا جل ما تبقى لدينا عنه مجموعة من شعره، محدودة التداول بين عدد قليل من الأفراد ، إن يكن بينهم من استطاع التعرف عليه ، فأن معظمهم ممن لا يمكن أن يفيد منها شيئاً .

ذلكم هو شاعر البحرين الأمير أبو عبدالله علي بن المقرب العيوني الذي تطل علينا شخصيته من ثنايا ديوانه ، ثائرة تستدعى الإعجاب والإكبار ، متوثبة تستحق الثناء والتقدير

سأمضى على الأيام عزم ابن حرّة	يرى العود فيها تحمد النفس أحمدا
فأمـا حيـاة لا تمـل حميـدة	تحـدث عنهـا مـن أغـار وأنجدا
أنـال المنى فيهـا ، وإمـا منيّة	تـريح فـؤاداً أجّ مـن غلّة الصدا

والأمير الشاعر – كما يدل عليه لقبه – سليل أسرة حاكمة وليت شؤون هذا البلد حقبة من الزمن ، فهو ينتمي إلى الأمير عبدالله بن علي العيوني،الذي انتزع الإحساء من حكم القرامطة، واستولى على القطيف وجزيرة أوال (البحرين حالياً) فأسس بذلك الأمارة العيونية في منطقة البحرين.

نشأ علي بن المقرب في مسقط رأسه الإحساء وتلقى فيها مبادئ ثقافته. ثم بدأ منه ميل مبكر للأدب والشعر ، فبرز فيهما ولم يزد على العاشرة من عمره ، إلا أن ميله هذا قد اقترن منذ الصغر بعاطفة وطنية حساسة لم تلبث أن تحولت إلى سخط شامل على الوضع السائد آنذاك ، وثورة على القائمين بالحكم ، ممّا أدى إلى تضايق أمير الإحساء منه – وكان آنئذ أبا المنصور علي بن عبدالله – فأمر بحبسه ومصادرة أملاكه وبساتينه دونما ذنب جناه . ولما أفرج عنه توجه إلى العراق ومكث في بغداد اشهراً معدودة ثم عاوده الحنين إلى وطنه فرجع مؤملا زوال الشحناء طالباً رد أملاكه فلم يظفر بطائل .

وقد حدثت تطورات سياسية عدة إثناء إقامته هذه ازدادت بعدها الحالة سؤاً وكثرت الفتن وتعددت رؤوسها ، فعاتب أمير الإحساء بشعر طويل ثم سئم المقام فهاجر للعراق ثانية قاصداً الموصل وديار بكر للقاء الملك الاشرف بن العادل الذي كان قد نهض لقتال الافرنج في دمياط فلم يستطع مواجهته ، فأمتدح والي الموصل فوصله ، وكان ذلك سنة ٨١٦ هجرية ، ثم رجع إلى الإحساء ومكث هناك بقية عهده .

ولابن مقرب، ديوان شعر مطبوع على الحجر في الهند سنة ١١٣١ هـ وهو على النمط القديم في تبويبه وشروحه ، كما أنه خال – مع الأسف – من كثير من المعلومات الضرورية لمن يود الانصراف إلى دراسة الشاعر دراسة مستفيضة .

أما المقدمة التي كتبها الناشر فهي كذلك غير مستوفية لكثير من المعلومات اللازمة ، وكأن كاتبها قد اتخذ من موضوعها مجالاً لإثبات قدرته على حشر الاسجاع ، و تركيب الجمل وتنميقها ، مما أدى به إلى إهمال نواحي عديدة من سيرة ابن مقرب مثل ذكر تاريخ ولادته ووفاته وحالة عصره ، وكذلك فهو قد أهمل جملة واحدة بقية عهد أبن المقرب بعد رجوعه من الموصل فلم يذكر عنه شيئاً وقد ركز الناشر جلّ بحثه عن أخلاق ابن المقرب ومزاياه وتعسف أقاربه الحكام في معاملته ، إلا أنه على الرغم من ذلك لم يوفق في تعليل إلى سماع الأمراء قول الوشاة فيه وتقريبهم أهل السفه والجهل على رجال العلم وذوي الفضل ، وهذا التعليل السلبي ، وأن كان على جانب من الصحة ، إلا أنه ليس في ذاته السبب المباشر في هذه الخصومة ، فمن الواضح أن أبن المقرب كان قد وقف موقفاً إيجابياً من هؤلاء الأمراء حين بدأ يهددهم ويتوعدهم ، وهو لذلك ينوي القيام بما يشبه الثورة على الوضع القائم في عصره ، ونحن لا نجهد كثيراً في تلمس هذه الروح الثورية في شعره والمتحفزة للوثوب في اقرب فرصة مؤآتية .

وثورة ابن المقرب هذه تظهر أحياناً ضمنية في شعره وأحياناً أخرى صريحة لا غبار عليها ، ولا لف فيها وذلك تبعاً لشخصيات خصومه من جهة وظروفه هو من جهة أخرى ، ولقد أدرك ولاة الأمور هذه الحقيقة فعملوا على إخماد النار قبل إن يضطرم أوراها ويصلون جحيمها .

فأحياناً نراه في ثوب الناصح ، يحذر بوخامة العاقبة ، وينذر بزوال الملك طالما كان الملك غير ثبّات على اللعب وهو يغتنم فرصة النصح هذه ليوجه نقده اللاذع ممزوجاً بالسخرية إلى سيرة الأمراء الشخصية المنحرفة وسيرهم في طريق من اللهو مظلم قد يجرّ علهم البلاء والدمار كما جرّ على غيرهم – فيقول مثلاً مخاطباً أمير الإحساء :

كـم في أبـوتك الأمجـاد من مـلك ... بـالمجـد ملتحـف بالتـاج معتصـب

لـم يـبـق إلاكَ فانظـر ما يقـال غداً ... وأن همـمـت بضعـف العزم فانتسب

وغـرعلى الملك مـن لعـب الرجال به ... فـالملك ليـس بثبّات علـى اللعـب

دعـاي يـا رب الهـم رب دولـتنـا ... أن يبلـغ الـرأس منـا رتبـة الـذنب !

وأحياناً تبدو لنا ثورته بين طيات شعره الحماسي يدعو فيه إلى لم شعث بني وطنه ، ويعاتبهم على الخمول :

لا تكثري من مقالات تزيد ضني	ما الخط أمي ولا وادي الحساء أبي
في كل أرض إذا يممتها وطن	ما بين حر وبين الدار من نسب
يا ساكني الخط والجرعاء من هجر	هل انتظاركم شيئاً سوى العطب
بححت مما أناديكم وأندبكم	لخير منقلب عن شر منقلب
فسكتوني بقولٍ لا تفون به	قد صرت أرضى بوعد منكم كذب
لأطلبنّ العلا جهدي طلاب فتى	يدوس بالعزم هام السبعة الشهب
أرى العلا تقتضيني غير وانية	عزماً يبين عن فضلي وعن حسبي
وما نهضت به إلا وأقعدني	خذلان قومي وعبث الدهر في نشبي

إلا أنه كثيراً ما ينصرف عن هذه الأساليب (الملفوفة) فيعلن سخطه وثورته في وجه الأمراء متهدداً متوعداً :

وأمدح أقواماً لواني امتدحتهم	بما فيهم لم يبق عيب لعائب
لكفّ أذاهم لا اجتلاباً لخيرهم	وكيف يدرّ الحول ابساس حالب
فيا عرراً لا يفتأ المدح شرهم	وقد يفثأ الراقون سم العقارب
متى جّر نفعاً مدحكم أو كفى أذىً	وكم نفع السارين حدو الركائب
فيا ضيعة المدح الذي سار فيكم	على السن الراوين سير الركائب
لان كنت . لا كنتم قذى في عيونكم	فأني شفاء للعيون الضوارب
أغرّكم دهر خسيس أحلّكم	مراتب ما كانت لكم بمراتب
رويداً بني المستقرمات فحاضر	وعدتكم إنجازه غير غائب
فوا أسفا إن متُّ لم أوط أرضكم	كتائب خيل تهتدي بكتائب
تريكم نجوم الليل ظهراً إذا بدت	تكدس في ليل من النقع ضارب
فلست أبن أمّ المجد أن لم تزركم	مسومة بين القنا والقواضب

شعـــــــــره :

وشعر علي بن المقرب كما ينتظر منه أن يكون جياش متوثب في جيده، موغل في الحماسة في أغلب قصائده التي تمتاز بطولها ، إلا أنه لا ينسى بين كل مقطع أن يقف برهة عند حكمة يستخلصها أو مثل يضربه ، ثم يسرد طرفاً من أخبار العصور الغابرة يستوحي منها العظة ويضرب بها الأمثال ، وغالباً ما تكون هذه الحوادث مستمدة من تاريخ العرب الجاهلي ، أو من سيرة آبائه العيونيين وتاريخ حروبهم في البحرين . كل ذلك يعالجه ابن المقرب في شعره بأسلوب سهل لا اثر فيه للتكلف المصطنع أو التقعر في انتقاء محسنات اللفظ . وهذه أحدى الميزات التي استطاع بها أن يتخلص من اثر الصنعة الذي كانت تفرضه البيئة الأدبية وتطبع به النتاج الأدبي آنذاك ، والغريب أن عصره يكاد يكون قريب العهد بمخلفات القرامطة في بلاده ، وهم الأنباط الذين مسخوا كل ما وقعت عليه أيديهم من آثار مادية أو أدبية على السواء .

هذا في شعره الجيد ، إما في نظمه العادي ، فغالباً ما يسفّ في أسلوبه ، وخصوصاً حين يتعرض للنواحي التاريخية أو المواعظ والحكم . وتخالط بعض قصائده الجيدة كذلك عدة أبيات من هذا النوع ينزل فيها عن المستوى الذي بدأ به ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى مستواه الجيد . وعلى العموم فإن أقل ما يقال في شعر ابن المقرب غير الجيد انه في درجة النتاج الأدبي لذلك العصر إن لم يكن يفضله في روحه وإحساسه وقيمته التاريخية . ومن قصائده ، التي تحمل قيمة تاريخية رغم ضعفها قصيدة مطلعها :

قم فاشدد العيس للترحال معتزما وارم الفجاج فإن الخطب قد فقما

وعدد أبياتها ١٤١ بيتاً ، فهي رغم ضعف أسلوبها ذات قيمة من الناحية التاريخية ، لأنها عبارة عن ملحمة شعرية تصور كثيراً من تاريخ ذلك العصر وما قبله وتشتمل على حوادث محلية وله عدة قصائد من هذا النوع .

وقد طرق ابن المقرب معظم أبواب الشعر ، وأهمها المديح ، والنسيب ، والفخر ، والرثاء ، وقليلاً من الهجاء . ولكنه قلما يقصر قصيدة كاملة على أحد هذه الأغراض ففخره بنفسه وسخطه على الوضع وتحريضه قومه ، كل هذه لا بد منها في أغلب قصائده . والمديح هو أكثر الأغراض التي نظم فيها ، إلا أن شعره في ذلك كان مقصوراً على أقاربه الأمراء وبعض ذوي الوجاهة ممن أكرموه في سفره . فمدحه الأمراء كان كفا لاذاهم ، ومدحه الباقين مراعاة لودهم :

مديحي رجالاً بعضهم اتقي به اذاه ، وبعضاً للمراعاة والود

ولقد كره على الشعر العطايا فلم يخرج منه القريض تكسباً ، وله مواقف كثيرة أبى فيها أن يمدح من شانته سيرته وأخلاقه ، بل أن مثل هؤلاء غالباً ما يكونون موضع تقريعه ومعاتبته . إلا أنه قد تجنب مع ذلك الهجاء الفاحش المبتذل في شعره ، واقتصر على العتاب الودي أحياناً والتنديد الساخر أحياناً أخرى . والسبب في ذلك

هو استصغاره لقدر من وشوا به وناصبوه العداء ممن كان يربأ بنفسه عن التعرض لهم حتى بالهجاء ، مردداً فيهم حكمته :

أرى الناس منذ كانوا عبيداً لغاشم   وخصماً لمغلوب وجنداً لغالب

أما الغزل والنسيب في شعره ، فهما رغم كونهما توطئة لموضوع قصائده – على عادة القدماء – إلا أنه لا يقف فيهما عند المعاني القديمة الجامدة ، والألفاظ المعادة ، بل يضفي عليهما الشيء الكثير من شعوره الحماسي وعاطفته الوطنية الحساسة ولهذا جاء غزله – رغم قلته – فحلا لا تخالطه أعراض الأنوثة ولا تحلل كلماتها . هذا ولابن المقرب عدا كل ذلك ملكة في الوصف لا يمكن تجاهلها ، وتمتاز بجزالة اللفظ ، وقوة الأسلوب وتتابع المناظر المثيرة ، وغالباً ما تكون قطعه الوصفية ضمن قصائده الفخرية .

الوطنية في شعره :

من خصائص شعر ابن المقرب ما يحمله بين طياته من تأثير اللون المحلى ، وطابع البيئة الخاص . فأن من أول الحقائق التي تواجه القارئ في ديوانه هي أنه لم يتخذ نظم الشعر غرضاً لذاته ، يعتكف له في محراب الفن المجرد ، أو يتأمل فيه رؤى الخيال البعيد . ولا غرابة في ذلك فأبن المقرب شاعر مصلح لم يزل شعره لسان الثورة ، وداعية النهوض في بني قومه حتى الرمق الاخير من حياته . أنه شاعر المجتمع الذي يعيش لقومه لا لنفسه ، وفي الواقع لا في الخيال :

أعربتُ حين دعوت إلا أنه   لا يبلغ الأموات صوت دعاتها

أن ترض قومي الهون في فطالما   عمداً أهنت النفس في مرضاتها

كم قد غدوت ورحت غير مقصّر   في لمّ فرقتها وجمع شتاتها

ولهذا فإن المقرب لا يضيره أن يضرب الأمثال ، أو يستمد العبر من أقرب الأشياء إليه ، وأكثرها مساساً بتفكير مجتمعه ، ومصطلحات بلاده . ففي مواضع كثيرة من ديوانه ذكر لا ماكن لا تزال معروفة ، وقرى ما تنفك آهلة ، وعادات ما برحت مستحكمة في شتى نواحي البحرين . ولا يستغربن المرء وهو يطالع ديوانه ، أن يجد فيه من الأمثال ما يستعمل فيه مثلاً أسماء لأنواع من الأسماك الشهيرة عندنا اليوم كالصافي والكنعد ومن الرّطب ((المرزبان)) ، ومن الأطعمة الشائعة والألبسة المعروفة ، وسائر مرافق الحياة البحرينية .

إلا أن أهم ميزات الشاعر مكانته من الأدب القومي لهذا الجزء من الوطن العربي على الأخص ، حتى أنه ليعتبر بحق شاعر الوطنية فيه ، وهذا ما يفسر لنا سر أعجاب الشاعر بأبي الطيب المتنبي وتأثره به ، ذلك الإعجاب الذي يبدو في كثير من لمحاته وأساليبه ولا غرو ، ففي سيرة هذين الشاعرين نواحي كثيرة يشتركان فيها ، وإذا كان أبن المقرب دون المتنبي في شعره فأنه يشترك معه في طموحه ويقظته ومزاياه الأخلاقية ، اشتراكاً ظاهراً .

وفي شعر أبن المقرب القومي مسحة من الجدة فهو ما يزال يعبر عن أروع الشعور الوطني رغم بعد الشقة التي تفصل بين عصره وهذا العصر الذي تبلورت فيه فكرة القوميات ورغم التباين بين ثقافة كل منهما ، وفي طليعة قصائده التي تحمل هذا الطابع قصيدة مطلعها :

دع الدار بالبحرين تعفو ربوعها ... وسقها ولو لم يبق إلا نسوعها

ومن قطعها الجيدة قوله :

فخير لعمري من بساتين مرغم على ... ذوي المجاري- طلح نجد وشوعها
ومن ماء نهر الجوهرية لوصفا ... ذبابة حسى لا يرجى نبوعها
أما سمنها في أبحر الملح ماؤه ... وفي نخلها القم الطوادي جذوعها
وليس لنا في الدرّ إلا محاره ... ولا في عذوق النخل إلا قموعها
فبعداً لدار خيرها لعدوها ... وقوم بأسوا كل حظ قنوعها
عفاء على البحرين لو قيل أينعت ... ((دنانير)) واديها وجادت زروعها
فهل ذاك إلا للعدو، وغصة ... سيأتي بها متبوعها وتبوعها
لقد صعدوا عمداً عصاها فلا التقت ... ولا التأمت إلا عليهم صدوعها

ومن جيد شعره الذي يصف فيه حاله مخاطباً قومه في قصيدة مطلعها :

أبت نُوب الأيام إلاّ تماديا ... فيا شقوتي ما للّيالي وماليا

قوله :

أقول وقد طال اهتمامي لفتية ... تسامي إلى غرّ المعالي تساميا
إلى م بني الأعمام نسقى نطافها ... أحجاجا ويسقى الغير عذباً وصافيا
فو الله لا أدري وأني لصادق ... عمى ما أرى من قومنا أم تعاميا
تلوّمت قومي كي يريعوا فلم أجد ... على الدهر من قومي هماما مواليا
وطال مداراتي اللئام وإنما ... سفاه لمثلي أن يكون مداريا
ومن لم يفارق منزل الضيم لم يزل ... يروح ويغدو موجع القلب باكيا
فأن علقت قومي لساني بأرضها ... فليس بمعقول إذا كنت نائياً
سأرسل فيها بالدواهي شوارداً ... تنبه ذا عقل وتفهم داعيا

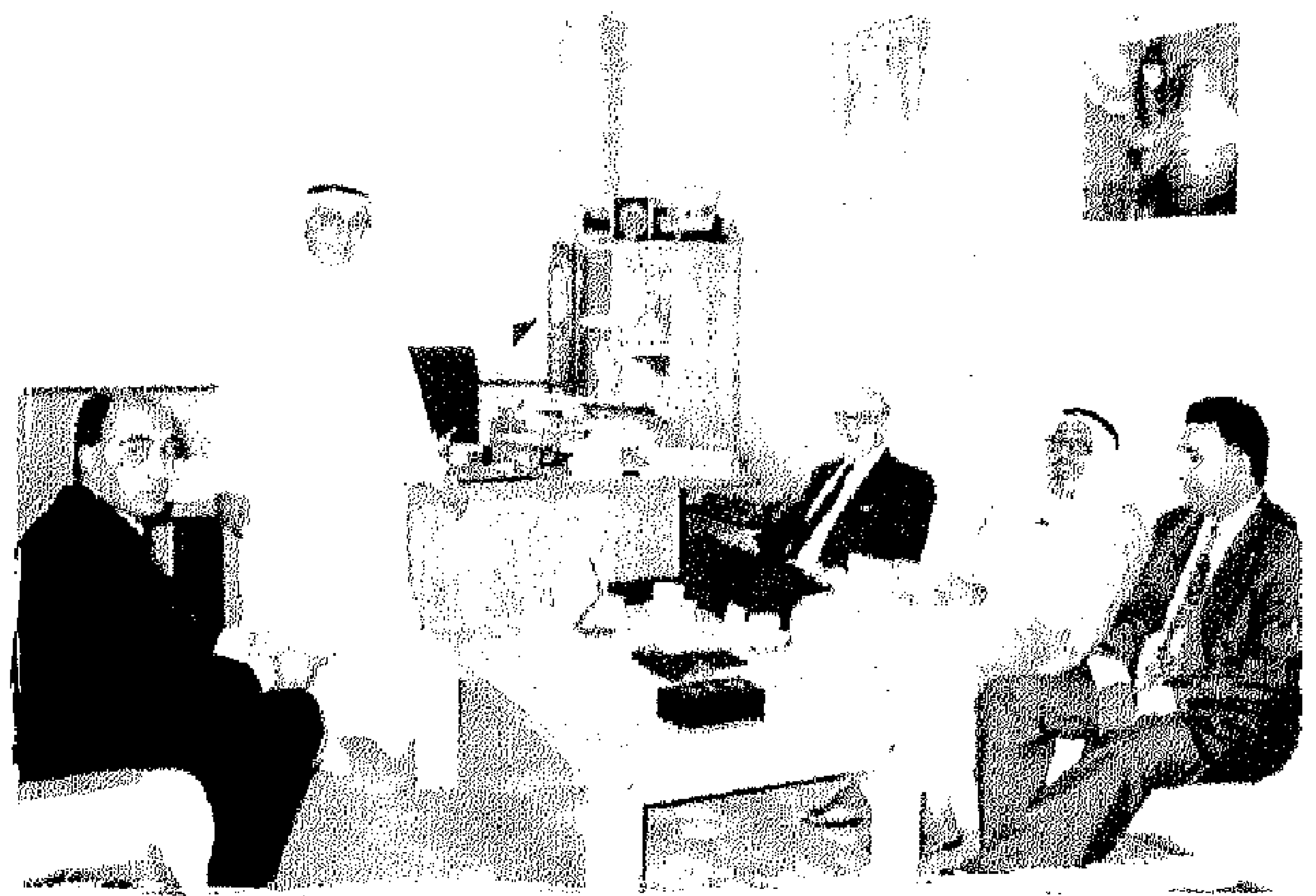
ولقد كانت له في مشاكله الشخصية ومنحته المادية ما يكفي لصرفه عن تناول هذه النواحي الاجتماعية – شأن غيره – ولكنه أبى ذلك ، فلم ينس بلاده وهو يجاهد عن نفسه ، ولم يتجاهل قومه وهو يطالب بحقوقه :

كنت قبل اليوم أبكي بشجىً ... همّ نفســـي وطـريفي وتـلادي

ثم قد أصبحت أبكي بـأسى ... شجـو أخواني ورهطــي وبـلادي

وبعد : فأن مجال التحدث عن شخصية أبن المقرب وشاعريته لمتسع الأرجاء ، على أني أرجو أن أكون قد استطعت في هذه الالمامة أن أبين شيئاً عن هذا الشاعر وطرفاً من شاعريته كما أني آمل أن يجد ديوانه من يقوم بالعناية به وطبعه ليتسنى للجميع الإطلاع عليه وليتمكن شبابنا من دراسته .

(نشرت في مجلة صوت البحرين العدد ٢ السنة الأولى / ذو الحجة ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠م).





مقدمة في الشعر العربي

- ١ -

إن صفات الأدب الخالد وعناصر الإعجاز فيه ، من المواضيع التي كثر حولها الخلاف وتعددت في تحديدها قواعد اللغة ، وأبواب البلاغة ، فلم يزدها ذلك إلا بعداً عن الجلاء وإيغالاً في التعقيد والغموض ذلك لان عماد الفهم الصحيح لقيمة أي إنتاج أدبي فني إنما هو الذوق الفني الخاص ، وموضوع كهذا أساسه الذوق ، لا يخلو بحثه من صعوبة ، طالما كان نقاد الأدب يصدرون بطبيعتهم عن أذواق مختلفة ، وتستوحي كل جماعة منهم أثر البيئة في اتجاهاتها ، وتيارات الوسط الأدبي في مفهوماتها .

على أن من الآثار الأدبية ما يستعلي بطبيعته عن المستوى الذي نجد فيه الأذواق المتنافرة في عصورها المتغايرة ، ما يدفعها على الاختلاف في تحديد قيمته من وجهة عامة ، وأن كانت قد لا تتفق اتفاقاً تاماً في بعض نواحيه الخاصة ، وجزئيا ته الصغيرة . وهذه طبيعة لا تتوافر إلا في الناتج الأدبي الخالد يتمتع بكافة عناصر الخلود ، تلك العناصر التي تخلق من القدم جدة ، ومن الماضي حاضراً يفيض بالإبداع ومستقبلاً يشرق بالحسن والجمال .

وقد قدر للشعر العربي القديم أن تكون له من صفة الخلود هذه ما يجعله ضمن حقائق الكون الثابتة التي تدور مع الزمن في ماضيه ، ثم تطالعه في مستقبله وهي على أشد ما تكون رسوخاً ، وأقوى ما تكون ثبوتياً واستقراراً .

فبالرغم من الأزمان المتعاقبة التي تقلب بها الشعر العربي القديم فإنه لا يزال إلى عصرنا يتلألأ بجوهره النقي ، كله جدة ، وكله قوة ، وكله بلاغة وأعجاز . ولعل أول ما تطالعنا من سمات ذلك النتاج الخالد هي صفة (الاصالة) بجميع خصائصها ومعانيها . وتلك هي أولى القيم الروحية التي تربط حقائق الشعر العربي بحقائق العرب القومية لأن هذا الأدب الأصيل وحده الذي يستطيع أن يكشف عن خصائص النفس العربية ، ويشف عن مدى قابلية تلك الخصائص للخلق والإبداع .

فإذا تجاوزنا بنظرنا حدود القيم الأدبية والقومية ، فإننا نجد للشعر العربي القديم علاوة على كل ذلك ميزة أخرى لها صفة علمية تتصل أتصالا وثيقاً بأدب القرآن وعلوم الإسلام . ولكي ندرك هذه الحقيقة ليس علينا إلا أن نرجع بذاكرتنا إلى الوراء عدة قرون ماضية حيث نقف على أبواب النهضة العلمية الإسلامية عند بداية القرن الثاني للهجرة حين صار تدوين كلام العرب – وفي مقدمته الشعر – أولى الخطوات في سبيل تدعيم حركة الازدهار العلمي وتركيز جهود التدوين الأدبي . فقد كان فضل الشعر العربي كبيراً على هذه الحركة العلمية ، إذ كانت حاجة ذلك العصر إلى تصنيف كتب التفسير ، وتدوين الحديث ووضع النحو ودراسة السيرة

متعلقة به . كما إن الفقهاء كانوا يجعلون المهارة في الشريعة والفقة والفتيا مفتقرة إلى الكتاب والسنة وأقسام العربية . وقد رووا عن الأمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان يطلب اللغة والأدب والشعر عشرين سنة لا يريد بذلك إلا الاستعانة على الفقه .

على أن عناية علماء التفسير والحديث برواية الشعر العربي واستظهار معانيه ، لم تكن بالشيء الجديد آنذاك ، فهي تمتد إلى عصر صدر الإسلام والخلفاء الراشدين ، وإن كانت تلك العناية لم تصل في هذا العصر إلى درجة النشاط العلمي المنظم الذي أمتاز به عصر التدوين فيما بعد . فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يحب رواية الشعر ويرى أنه وسيلة لتفسير غريب القرآن ولكن هذا الاتجاه العلمي كان أكثر وضوحاً في زمن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، فهو الذي حسن ذلك للمفسرين ، وقال إن الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه. أما رواية الشعر العربي لذاته وحفظه مجردا من غاية المفسرين، فقد كان حتى قبيل عصر التدوين ، طبيعة في العرب ، وهم أكثر الأمم حبا لكلامهم وإعجابا به ، ذلك الحب الذي يستمد قوته من انجذاب العربي بفطرته إلى عناصر هذا الكلام نفسه ، بروعة ما له من الصدق والبيان ، والبلاغة والإيجاز ، وإنما كانت تلك الصفة العلمية مما زاد قيمة الشعر العربي ، ومما أضاف إلى ذلك الميل الفطري ، جهودا علمية ترمي إلى تنقيحه ودراسته .

إلا أن حركة علمية أخرى لها صفة مغايرة ، وهي حركة الترجمة والنقل عن الثقافات الأجنبية ، كانت قد نشأت بجانب هذه العلوم العربية . وكان أول من تزعم الترويج لها نفر من الموالي وأهل الذمة.

هذه العلوم الأخيرة ، بما صحبها من آثر المنطق اليوناني الدخيل والبحث الفلسفي العقيم كانت على النقيض من الأولى ، ذات أثر سيء على اللغة العربية وآدابها ، ذلك لأن أكثر أولئك الذين خاضوا في علوم العربية بعدئذ ، كانوا من الأعاجم والفلاسفة الذين لم يصعدوا إلى عصور العربية الأولى ، ولم يرزقوا الذوق العربي السليم وفي هذا ما يفسر لنا كنه كثير من قواعد اللغة ، وعلوم البلاغة التي أخذ معظمها عن أصول أدبية لا يسكن إليها الذوق العربي ولا ينسجم معها . ونظرة واحدة على تلك الأصول تدلنا على عناصر المنطق اليوناني والتفكير الفلسفي المعقد الذي بنيت عليه . بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن كثيراً من كتب البلاغة والنقد التي بدئ بتأليفها عن اليونان ، وصدرت قواعدها عن عقلية أجنبية محضه لا تمت بسبب إلى العقلية العربية الأولى ، ولا تركن إلى أصولها المعروفة ، وإنما تستمد كل شيء من الخارج ، وتجلب له الشواهد أجتلابا عنيفا من الأدب العربي . ولا يزال التاريخ يحمل لنا صورة من ذلك النزاع الشديد الذي نشأ بين أنصار العلوم العربية ، وبين دعاة الترجمة وعلوم الكتاب ، وفي أخبار الرسول وصحابته ، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها ، وأنهم يعتاضون عن ذلك بعلم (هو قبح لهم في الألفاظ ، وقيد لهم في الالسنة وعيّ لهم في المحافل) – على حد تعبير أبن قتيبة –.

على ضوء هذا التطور الذي شهده مطلع القرن الثاني ، يجب علينا قبل أن نتجاوز هذا العصر أن نرسم خطا فاصلا بينه وبين العصر الذي سبقه متجاوزين بذلك حدود التقسيم الزمني في تاريخ الأدب العربي القديم الذي وضع أسسه المستشرقون ، ذلك التقسيم الذي يستند أكثر إلى الحوادث السياسية دون النظر إلى الاعتبارات الأدبية والاجتماعية الأخرى .

ففي الأدب العربي عهدان طويلان يشطرانه شطرين : عهد القدماء ، وعهد المحدثين . ويبتدئ عهد القدماء بنضوج الشعر العربي قبل الإسلام بقرن أو نحو ، وينتهي في أوائل القرن الثاني ، ويشمل الأدب الجاهلي والأدب الإسلامي ... أما عصر المحدثين فبدؤه قبيل قيام الدولة العباسية بدؤه في الواقع من عهد بشار ، ومروان بن أبي حفصة ، ومطيع بن أياس وغيرهم من مخضرمي الدولتين . ويشمل كل من جاء بعدهم من الشعراء الذين كتبوا باللسان العربي إلى اليوم ... فمهما اختلفت مذاهب الجاهليين والإسلاميين ، ومهما تنوعوا في الصياغة والطريقة وفتون القول ، فإنهم جميعاً ينهلون من ينبوع واحد ، ويصدرون عن ذهنية واحدة ، ويتقاربون تقاربا ملحا في التفكير والتعبير. يختلف زهير عن طرفة، وذو الرمة عن جرير، وعمر بن أبي ربيعة عن العرجي، ولكنه اختلاف الجداول انحدرت عن جبل واحد وأخذت ماءها من سحب واحدة ، اختلاف في التطبيق ، واختلاف في التأتي للأمور ، فأما الأصول التي تحتذي ، فأما المناحي العامة فواحدة لا اختلاف فيها ، وليس بعجيب أن يظل الشعر الإسلامي في جملته جاهلي الروح ، فالدولة عربية محضه ، والثقافة عربية صقلها الإسلام ، والشعراء عرب إلا ثلاثة أو أربعة ، والصحراء مقام الأكثرية فيهم ، والطبع هو غالب على شعرهم .

تلك حال الشعر العربي حين ورثه الاقدمون في أوائل القرن الثاني ورثوه صحيحاً ، قوي العبارة واضحها ، جزل التراكيب متماسكها ، لا تزال فيه روح البداوة القديمة في المنهج والصياغة والخيال والمعنى . إلا أن الحياة في القرن الثاني (حين مجيء بني العباس) كانت تبتعد كثيراً عنها في العصر الجاهلي، إذ تبدلت تبدلاً حقيقياً ، واستحالت الحياة العربية السامية إلى حياة معقدة ملتوية تجمع بين السامي والآري ، وتأخذ من هذا ومن ذاك .

لقد ظهرت للوجود طبقة الشعراء المحدثين تناهض الشعر القديم سلطته ، محاولة الحد من تيار الإعجاب الذي كان يمتلك الوسط الأدبي آنذاك لروعة الشعر العربي . لقد حاول هؤلاء المحدثون أن يحدثوا تجديداً في الشعر القديم ولكن محاولتهم هذه باءت بالفشل نظراً لسقم تلك الجهود ، وبعد أصحابها عن السليقة العربية ، والذوق العربي السليم . وهذا هو السبب الذي تجرد من أجله نتاج المحدثين من عناصر القوة والحيوية التي أمتاز بها شعر العرب . ولا غرابة في ذلك فإن معظم الذين تزعموا هذه الحركة كانوا من غير العرب ، وسواء كان اتجاههم هذا مسايرة لا وضاع الحياة الجديدة والتي تغيرت تغيراً أساسياً عن الحياة العربية الأولى ،

أو أنه هو مجرد استجابة لدوافع النزعة الشعوبية ، فإنه مما لا بد منه الاعتراف بأن ضعف السليقة ، وفساد اللغة ، وتحلل الأخلاق ، كل هذه الصفات كانت من أهم عوارض الانحلال التي لازمت شعر المحدثين هؤلاء . (ونستطيع أن نرى عند بشار ، ووالبه ، وأبي نواس ، والحسين بن الضحاك ، نماذج من ضعف الشعر ، ونماذج من ضعف الأخلاق فهذه الروح السامية الحارة القوية الصافية التي كانت من عهد عند جرير وجميل ، هذه لروح القوية الصافية التي فسدت في أول امتزاجها بالروح الفارسية . فالمديح غداً فاتراً ، والهجاء أصبح مرذلا!

لقد كانت روعة الشعر العربي القديم تتجلى في صدقه وإيجازه ، فمن الصدق اكتسب شعر العرب صفة التأثير في النفس العربية ، ولقد قيل : (ما خرج من القلب وقع في القلب) . كما إن الشعر العربي بما يشع في أطرافه من التصوير الصادق كان يأخذ سبيله في التعبير ، فيبتعد بذلك عن التعقيد والتكلف ، وعن سائر الصفات التي يتعثر فيها النطّق ، وتتلبد عندها القريحة حين تحمل حملاً على المعالجة والمعاناة في أبراز معنى متكلف ، أو تقريب خيال بعيد . فالبلاغة الصادقة هي كما وصفها صحار بن عياش العبدي لمعاوية حين سأله : (ما هذه البلاغة التي فيكم ؟) فقال : (شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على أفواهنا) . ومن الإيجاز توفرت للشعر العربي صفة النفاذ إلى الغاية ، وبلوغ صميم المعنى المقصود ، والاكتفاء في ذلك بالإشارة الواضحة واللمحة الدالة . ومتى توفرت للكلام هاتان الصفتان ، فكان صادقاً ، واتخذ الإيجاز سبيله في الأداء ، فإنه يكون عندئذ قد وصل إلى ذروة الإعجاز البلاغي .

والغريب في الأمر أن تكون هذه الصفات ، أو ما يقاربها ، الأصول التي لم يجد علم البلاغة الذي وضعه المتأخرون ، بدا من تقريرها ، ثم لا يكون لذلك إلا أثره الضئيل في النتاج الأدبي المتأخر الذي طغت عليه موجة الصنعة ، وأتت على جماله قواعد المحسنات اللفظية والبديع . فهذا الجاحظ يقرر كثيراً من تلك الأصول التي أجملناها في كلام له عن بلاغة العرب في كتابه (البيان والتبيين) فيقول :

(وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكرة ، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف همَه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني إرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأمهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس . وليس هم كمن حفظ علم غيره ،

واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب) .

ذلك هو رأي الجاحظ في بلاغة الكلام العربي ، وموجز الصفات التي قصدها هي أولاً : البديهه والارتجال ، وثانياً : الطبع وعدم التكلف . وهي صفات في الكلام لا تتعدى حدود الصدق والإيجاز التي أشرنا إليها من قبل .

على أن هذا المفهوم الأدبي الذي يبسطه الجاحظ في كلامه لم يكن ليجد له السبيل العملية لتسلم زمام التوجيه ، سواء في عصر الجاحظ نفسه ، أو فيما تلى ذلك من العصور . فلقد كان تلبد الذوق بفعل المفاهيم الأدبية المتأخرة الخاطئه مما حال دون ترسم تلك العصور خطى البلاغة الصحيحة ولعل نظرية (أبلغ الشعر أكذبه) هي خير ما تمخضت عنه عبقرية المتأخرين في تحديد قيم النصوص الأدبية ، تلك النظرية التي رضى هؤلاء الوقوف عندها قانعين بما يستجلبونه من عصيرها القاتل ، والتي تكشف لنا بوضوح مدى الانتكاس الذي منيت به العقلية المتأخرة . وهكذا قدر للشرق العربي أن يظل أجيالا طويلة يقتات من سموم النظريات التي وجدت في ظل حياته المضطربة ، وعقليته مرتعاً خصباً للاستقرار والنمو .

ثم جاء العصر الحديث ، ودبت حركة النشاط الأدبي في أوساط المجتمع العربي ، ووجد النقاد والباحثون أمامهم تراثاً ضخماً من مخلفات عصور التاريخ العربي والإسلامي ، فخلطوا بين مختلف تلك العصور – إلا قليلاً منهم – ووضعوا على الأدب العربي وزر العصور التي سلفته ، والتي افترت عليه ، وشوهت من مفهومه فكان هذا الاتجاه الخاطئ مدعاة إلى قيام نفر ممن ادعوا لأنفسهم التجديد ، فتنكروا للأدب العربي برمته ، وأحدثوا فيه كثيراً من النظريات الخاطئه ، والآراء المضللة . وجاء بعدهم دعاة المدرسة الحديثة ، واغلبهم من فئات المستعربين الذين تلقوا ثقافاتهم من المستشرقين ، وتابعوهم في آرائهم التي ينادون بها ، فعمدوا إلى نصوص الأدب العربي القديم يحكمون فيها نظريات الغرب ومقاييس آدابه . فلما تنكر لهم وسخر من مقاييسهم ثاروا وزعموا أنه أدب متأخر فقير ، واتهموه بشتى الأباطيل ، حتى أن من بينهم من لم يؤمن بصحة الأدب الجاهلي بتاتاً ، وادعى برمته شعر إسلامي منحول !

والواقع أنه لا غرابة من تردي دعاة التجديد المعاصرين إلى هذه الهواة السحيقة من سقم الفهم ، وفساد المنطق ، وضعف الرأي في الحكم على الشعر العربي القديم ، فإن فساد هذه النتائج هو بدوره نتيجة لفساد المقدمات التي بنوا عليها بحوثهم ونظرياتهم فلقد غاب من إدراك هؤلاء إن كل دراسة من هذا النوع ما لم تبن على ذوق عربي خالص ، وحس قومي مرهف ، وإنها ما لم تستمد ضوءها من أصول الأدب العربي نفسه ،

فإنها لن تعدو أن تكون دراسة بتراء لا ينتظر من وراءها غير الإساءة لهذا الأدب وجعله ضحية من ضحايا النظريات الدخيلة ، والنظرات الأعجمية المنكوسة .

أن قوانين النقد الأدبي (لا تفرض على الأدب فرضاً ، وتلقى عليه إلقاء ، وإنما يجب أن تستنبط من نصوصه الممتازة على إنها خواص وجدت فيها فألبستها القوة والجمال ، وجعلتها قادرة على التأثير والخلود . ولذلك فإن قوانين النقد العربي يجب أن تنشأ من دراسة أدبه ، وتؤلف من خواصه وطوابعه الممتازة) .

صوت البحرين العدد ٢، السنة الأولى، شعبان ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م .



مقدمة في الشعر العربي

- ٢ -

إن شكوك دعاة التجديد واعتراضاتهم هي أكثر من أن تحصى ، فهي تتناول بالإنكار وسوء التعليل كل ما وراد في تاريخ الأدب العربي على أنه من النتاج الجاهلي ، وهي لا تقتصر على ناحية منه دون أخرى ، بل تراها منبثة في كل صوب ، تدور حيناً حول نفسه : أصحيح هو أم منحول ، وحول أشخاصه : أحقيقة هم أم مجرد اختلاق ، وبعد طائفة لا نهاية لها من الشكوك والمزاعم فهي لا يسندها دليل صائب ، ولا يقوم بها رأي واضح ، تعود فتتساءل منكرة : لماذا لم يوجد في الأدب القديم أثر للقصص والملاحكم وغيرها مما نجده عند اليونان والرومان ؟ وليتها تقف عند هذا الحد فهي تتجاوز العصور القديمة إلى العصر الحديث ، فتعيب على الأدب القديم افتقاره إلى كثير من مظاهر التجديد في الآداب الأوروبية المعاصرة ، كما تعيب عليه انعدام وحدة الموضوع فيه ، ثم ترميه بالتقليد والتكرار المعيب . ومثل هذه الاعتراضات التافهة ، توجيه غريب لا يعتمد على ابسط قواعد المنطق والتفكير السليم . ونحن نود هنا أن نستعرض من تلك الأقوال ثلاث نقاط رئيسة هي :

١- الانتحال : الانتحال معناه ادعاء الشخص ما ليس له من الكلام أو القول . والأدب المنحول هو الأدب الذي نسب إلى غير قائله هذا هو التحديد الموجز لمعنى الانتحال ، وهو ما كان متعارفاً عليه عند علماء اللغة والأدب . فلقد كان من جراء حركة التمحيص العلمية الواسعة التي نهج فيها علماء العربية على غرار إسناد الحديث ، ووضعوا لذلك طرق الأخذ والتحمل ، إن تميزت من شعر العرب طائفة من الإشعار ثبت إنها منحولة ، كما عرفت جماعة من الرواة بالوضع والصنعة ، وقد جاء على رأس هؤلاء النقاد جمع غفير من العلماء في طليعتهم محمد بن سلام الجمحي والأزهري ، وعلي بن حمزة البصري وغيرهم . وقد قسم هؤلاء الشعر المنتحل إلى عدة أقسام تبعاً للأسباب التي دفعت على قوله أهمها :

- شعر القبائل التي وضعت في الإسلام أشعاراً نسبتها إلى غير أهلها ، للمفاخرة والمكاثره وقد عرفت قريش بذلك في صدر الإسلام وممن اتهموا بمثل هذا الوضع في القرن الثاني محمد بن عبدالله الفقعسي ، رواية بني أسد .

- شعر الشواهد : وهو شواهد القرآن ، وشواهد النحو ، وقد كان الكوفيون أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها ، كما وقع للبصريين شيء من ذلك ، ثم ازداد الوضع بعد تفرع المذاهب وشياع الكذب في الرواية على ألسنة الموالي والمستعربين . كما حملوا على الوضع الاتساع في الرواية ورأس هذا الأمر حماد الرواية الكوفي ، وقد أخذ في مذهبه خلف الأحمر . ومنه التزيد في الأخبار وقد كان هذا النوع مما تفرغ له الأعاجم والشعوبيون فهم يكذبون

مبالغة في الإغراق والتزايد ، وهؤلاء هم الذين كتبوا في تاريخ العرب وإخبارهم ومثالبهم ، وقد كان اتساعهم في الافتراء على أشده في أوائل القرن الثالث حين استفحل أمر الشعوبية.

تلك هي باختصار أهم مظاهر الانتحال التي توصل إليها نقاد الشعر الأقدمون، وهي نتائج أوصلتهم إليها عنايتهم الفائقة بالنقد والتمحيص فكان أحدهم لا يجزم برأي إلا وبيده الدليل الثابت عليه . ونحن لو نظرنا إلى الأشعار العربية القديمة التي يشك في صحتها على ضوء تلك الاستنتاجات لوجدنا إنها أشعار قليلة لا تضير الشعر العربي برمته . وقد لا يؤثر حذفها فيه شيئاً . على أن هذا القليل نفسه من الشعر المنحول لا يفقد قيمته كلياً ، و قصارى ما يتجرد منه النسبة التاريخية لقائلي هذه الإشعار حيث تكون هناك ضرورة ما لتشخيص الشاعر بالذات ودراسته من شعره . فهذه المجموعة من الأشعار التي يرى أنها قيلت في الإسلام ونسبت إلى شعراء جاهليين لا تفقد غير العنصر التاريخي ، وغير الظل الشخصي للشاعر الذي نحلها ، أما قيمتها الأخرى فإنها تظل على ما هي عليه . إن مثل هذا الشعر المنحول لا يعدو في جوهره أن يكون شعراً عربياً له نفس خصائص الشعر العربي الجاهلي ، لأن قائله وهو عربي بطبيعته لم يكن في صدر الإسلام ليستطيع التجريد عن خصائص الشاعر القديم ، هذا مع العلم أن قائله لم تخف عليه ضرورة محافظته على نفس الجو، ونفس الطريقة والأسلوب الجاهليين لتتم له بذلك أسباب الوضع ، وليجوز عمله على الناس . ليس هناك أذن خطر على طبيعة الشعر العربي القديم من ظاهرة الانتحال لأن المعين الشعري الذي يصدر عنه الجاهليون والإسلاميون يكاد يكون واحداً في جوهره ، فإذا وجد من هذا الشعر المنحول ما ليس يتفق ومميزات الشعر العربي المعروفة أو ما هو شاذ عن طبع العرب وأسلوبهم ، فإن ذلك أكبر فضيحة له ومثل هذا الشعر يطرح ويجفى لأول وهله تقع عليه العين لأن ظاهر الانتحال فيه ظاهرة .

ومن هذا القبيل ما نراه في ظاهرة وضع الإشعار التي يستشهد بها ، فهذه هي الأخرى قليلة جداً في الشعر القديم ، إذ من دلائل صحة الشاهد ونواحي قوته أن يكون قائله معروفا ثم أن هذه الشوارد من أشعار الاستشهاد لا تمثل إلا أقلية ضئيلة من الشعر القديم ، ولما كان وضعها لغرض الشاهد فقط ، فإن واضعيها لابد وأنهم قد التزموا حدود الشعر الجاهلي ليتم لهم بذلك دسها بين النماذج الجاهلية الأخرى وألا فإن زيفها سرعان ما يبدو وأثر الصنعة سرعان ما يظهر عليها .

ذلكم هو معنى الانتحال عند العرب كما فهموه ، وهم أدرى به وأولى من غيرهم بالحكم عليه ، فهو لم يكن في حال من الأحوال مطية للطعن في صحة الشعر الجاهلي ، بل لعله جاء من عكس ذلك تماماً . أي نتيجة للحرص على تنقيحه ، وحفظ عماد الصدق في روايته على عادة العرب من التمسك بالخبر الصادق ورواية

الصحيح من الأنبياء خلفا عن سلف إلا أن هناك نوعاً مستحدثاً من الانتحال يزعم فيه أصحابه بأن الشعر الجاهلي القديم موضوع برمته . وقد نحله الشعراء الإسلاميون ، وأنه لا يمثل اللهجات العربية القديمة . وهم يقررون بناء على ذلك أنه لا يصح أن يتخذ مادة لتفسير القرآن لأن القرآن هو الذي يمثل العصر الجاهلي كما تمثله الخرافات والأساطير العربية السائدة ! ولقد تطرفوا في زعمهم تطرفات خرج بهم عن نطاق المعقول إلى الهذيان والبحران حتى أن من بينهم من لم يتورع من التعرض إلى نصوص القرآن الكريم والشك في صحتها التاريخية . ونحن نرى أن الأخذ بهذه الآراء المضللة يؤدي إلى المقاصد التالية :

أولاً : فصل اللغة العربية ممثلة في الشعر الجاهلي عن القرآن الكريم ، ومن البديهي أن ما يقصده هؤلاء من وراء ذلك هو تجريد اللغة العربية من أكبر مميزاتها وخصائصها ، وهي كونها لغة القرآن والمفتاح إلى إدراك بلاغته وأعجاز أسلوبه .

ثانياً : اتهام مسلمي الصدر الأول صراحة بالإجماع على الوضع وترويج الكذب ، وهذا الرأي طعن سافر في رجالات الإسلام في أزاهي عصوره التاريخية تمسكا بنصوصه وحرصا على شريعته .

ثالثاً : الحكم بضياع جهود الرواة الذين تناقلوا أشعار الجاهلية ، وعلماء التفسير الذين استغلوا تلك الأشعار ونقاد الأدب الذين بنوا على شواهدها الكثير من أصول اللغة والأدب وعلوم العربية طالما كان هناك مجال للقول بأن الشعر الجاهلي كما هو معروف لا يمثل اللغة العربية ، ولا اللهجات القديمة وأنه لا يصح لذلك أن يؤخذ مادة لتفسير القرآن أو دراسة العربية ، وهذا القول ما فيه من تحطيم لأكبر الجهود الدينية والعلمية في تاريخ الإسلام .

والعجيب في الأمر أن تجيء هذه المزاعم كلها باسم التجديد في الأدب كأنما التجديد في الأدب هو نفس التجديد في الماديات من الأشياء المستعملة حيث يطرح كل ما هو بال قديم ويصبح معنى القديم مرادفا للرداءة ، ومعنى الجدة مرادفا للجودة، وهذه معادلة لا تجوز على غير السذج والبسطاء من ضحايا أولئك الكتاب الذين يغتنمون كل فرصة سانحة للنيل من الأدب العربي والدس فيه مع أنهم يعيشون عالة عليه ويرتزقون من وراء المتاجرة باسمه .

وأول من نادي بهذه المزاعم — بعد المستشرقين — هو طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) ولقد تجرد للرد عليه غير قليل من الكتاب العرب ، تناوله كل منهم من زاويته الخاصة ، وارجعوا كل ما جاء في كتابه إلى مصادره سواء تلك التي سرقها المؤلف من القدماء وأساء استغلالها ، أو التي تابع فيها أساتذته المستشرقين، واستوحى عناصرها من مصادر نقمته الشعوبية على الأدب العربي . وممن كتب رداً عليه محمد لطفي جمعه في

كتابة (الشهاب الراصد) والأستاذ الغمراوي في (النقد التحليلي) والخضري بك في (نقد الشعر الجاهلي) ومصطفى صادق الرافعي في كتابة (تحت راية القرآن)

٢- القصص والملاحم : ومما أخذ على الشعر الجاهلي خلوه من عنصر القصص والملاحم والتمثيليات التي وجدت عند اليونان والرومان وغيرهم . ومعظم القائلين بهذا الرأي ينقلونه عن المستشرقين ، ويعبرون عن وجهة النظر الغربية ، وهي وجهة نظر لا ينتظر منها أن تكون صائبه لأنها لا تصدر من زاوية النظر العربية التي قبل كل شي ذوق أدبي لا يتسنى لهؤلاء أن يدركوه . فهؤلاء المستشرقون ما فتئوا يدأبون على تلمس نقاط الضعف والانحلال سواء في التاريخ السياسي أو الأدبي للأمة العربية . وتوجيه الرأي العربي نحو تلك النقاط بالذات بغية صرفه عن استجلاء نواحي القوة في أدبه وتاريخه . ولقد وجد هؤلاء في الخليط الشعوبي المتناثر من نتاج العصور الأدبية المتأخرة ضالتهم المنشودة ، وأشادوا به ، وتضافروا على دراسة شخصياته ومنظماته ، لأن ذلك مما يتماشى مع غاياتهم ومقاصدهم . أما في الأدب القديم فقد عز عليهم ذلك ، وخشوا أن يبعثوا منه ما يعيد إلى الأذهان عناصر تلك القوة والحيوية التي كان يتمتع بها ، باعتباره نتاج أمة غلاّبة فاتحة ، ذات أثر توجيهي مباشر في تاريخ العالم ، فلم يجدوا ما يصرفون به الاهتمام المباشر بعناصر الحياة فيه غير إثارة أمثال تلك المواضيع التافهة ، واتخاذها سلما للتنقص من الأدب القديم برمته . ونعود إلى الفن القصصي فنقول أن عناصر الحياة العربية ، وطبيعة الفكر العربي لا تستسيغ مثل هذا النتاج ، بل إنها لتأباه حتى ولو كرهت عليه . وفي هذا دلالته الكافية على أصالة هذا الشعر الذي وصل إلينا نقياً من ظاهرة القصص ، وذلك في تماشيه مع روح الأمة التي أوجدته فإذا وصل أدب الأمة إلى هذه المرحلة فإنه يكون قد تبوأ أرقى منازله ، لأنه يصبح عندئذ عامل تقدم ونمو ، بقدر ما يكون الأدب الزائف الذي لا يمثل خصائص الأمة والتعبير عن متطلبات القومية عامل تأخر وانحطاط . ونحن نكتفي في هذا المجال بأن ننقل رأياً لمصطفى صادق الرافعي في هذا الموضوع لأنه أقرب إلى ما نراه من خلو الشعر القديم من عنصر القصص والتمثيليات . وقال في كتابه (تاريخ أدب العرب) ج ٣ .

(ولقد حار المتأخرون الذين كتبوا في تاريخ العرب و آدابهم عندما ألموا بذكر هذا النوع في أشعارهم ثم قطع بهم دونه — كيف يعللون ذلك ويتأولونه ، فمنهم من زعم أن العرب نظموا كثيراً وضاع ما نظموه ، ومنهم من زعم أن سفر أيوب في التوراه ليس إلا منظومة عربية نقلت إلى العبرانية ولحق بدفائن العدم ، وكلام على هذا النحو لا يحمل على التاريخ فإن حمل عليه خطا به إلى الخطأ ، لأننا لا نتصور أن العرب خلقوا من فطرتهم شعراء ينحتون الأوزان ، ويؤلفون الكلام على هذا النحو الذي وصل إلينا ، كما أن الرواة يقطعون بالجزم بعدم ضياع شيء من شعر الجاهلية . فإذ كان الغرض من الشعر القصصي ما يجمع من التاريخ ويحفظ من الأخبار ،

فذلك موجود في أشعارهم ، ولكنهم لم يطيلوها أطاله الإلياذة وغيرها لأن ذلك يقتضي له عمل من النظم وضرب من تأليف المقصود لا يتم حسنه بين فصل وفصل، وبين قطعة وقطعة ، ثم تحكيك الألفاظ وتصفية الأسلوب واستيفاء صنعة التأليف . ولا يكون ذلك جمعيه إلا بالصبر والمطاولة ورصد الأوقات التي هي أجم للنشاط واصفي للخواطر ولو أن في العرب من انقطع لهذا العمل لهجنوا صنيعه ، ورموه بالعي ، ولتركوه مثلا وآية. فهذا النوع لا يتفق على الارتجال أبدا ، ولا بد فيه من الصنعة ، فلم يقله العرب بإجماع الرواة ، فدل ذلك على أنه ليس من حاجة اجتماعهم . ووجه أخر ، وهو أن العرب لا يطيلون أشعارهم إلا في المواقف وفي أيام الحفل ، ثم أن طبيعة لغتهم تأبي الإطالة إلى أكثر مما تبعث عليه حاجة المفاخرة والمقارعة ، لأن البلاغة فيها مبنية على الحذف أو الإشارة والإيجاز والاكتفاء من المعنى باللمحة الدالة ، ومن القصة بالمثل المعروف ثقة بينهم بعضهم عن بعض . وهم أنما يتفاخرون على هذه السنة ، وبهذه البلاغة ، فلوا أنهم ابتلوا بمفاخرة اليونان أو الرومان مثلاً لاحتالوا في نوع آخر من الشعر يبسطون فيه اللغة ، ويمدون معاني الخطاب . ومن تدبر طرق الخطاب في القرآن الكريم ، وهو أبلغ ما يمكن أن تصل إليه العربية وجده يوجز في مخاطبة العرب ، فإذا خاطب اليهود بسط الكلام فكذلك كان يفعل العرب . وإذا كان الغرض من الشعر القصصي ما يحمله من الخرافات أو القصص الموضوعة، فهذا أيضاً قد نظم فيه العرب ، ولكنهم لم يفردوه بالقصائد ولم يطيلوه أطالة بالغة لذهاب معنى التقديس من عقائدهم .

فليس لهم آلهة ولا أنصاف آلهة، ولا أساطير من هذا القبيل. وإنما كانوا يتناقلون من ذلك أشياء تناسب طبيعتهم ومذهبهم الاجتماعي.

يخرج من أن ذلك الشعر القصصي (بالمعنى المصطلح عليه لم يكن من طبيعة العرب ولا هو من مقتضيات اجتماعهم، فهم لم ينظموه في جاهليتهم قطعاً ولم ينظمه من بعدهم لوقوفهم عند حد التقليد)

٣- خشونة الشعر الجاهلي: وقبل أن نبدأ في تحليل معنى الخشونة في الشعر الجاهلي، نود أن نشير إلى أن كثيراً من السذج من يسمي هذه الظاهرة (تعقيداً) .ومثل هذا الوصف جهل واضح بطبيعة الكلام العربي التي تأبي التعقيد في أي صورة من صور الكلام. و نعود فنتساءل بعد هذا: أي الأذواق هي مرد الحكم في خشونة الشعر الجاهلي ؟ فمفهوم الخشونة كما نحددها اليوم بالنظر إلى أنه ذوق في الفهم محدود في نطاق زمني ضيق هو عصرنا هذا، لا يعتبر حجة بالنسبة للمفهوم الأدبي العام الذي له أن يقرر وحده ما إذا كان وصف الشعر العربي القديم كله، والجاهلي منه على الأخص بالخشونة هو حكم عادل وصحيح ! فإذا ما حكمنا المفهوم الأدبي العام فإننا نجد أن كثيراً من الألفاظ والأساليب التي نعدها خشنة بالنسبة لما نستعمله اليوم من ألفاظ رقيقة

وأساليب لينه، ليست هي كذلك في حكم الذوق العام. هناك بالطبع ألفاظ خشنة وأساليب جافة نجدها منبثة في نواحي الشعر القديم لأن مثل هذه الألفاظ وتلك الأساليب قد فقدت صورتها الذهنية في مجتمع اليوم نتيجة للتطور الزمني ولتغير الظروف التاريخية التي أوجدتها، ولكن هذا لا يشمل إلا ذلك القسم الضئيل من الكلمات التي ظلت رهن ظرفها التاريخي، مما لا يصح معه تعميم صفة الخشونة على الشعر القديم كله، وفيما عدا تلك الألفاظ فإن مظهر الخشونة الذي نجده، هو مظهر نسبي يرجع في حقيقته إلى أحد أمور ثلاثة هي:

١- من أولى خصائص الشعر العربي أنه يمثل مجتمعه ويعكس بيئته، فهو سجل بأيام العرب وتاريخ اجتماعهم كما أن فيه كثيراً من أسماء الأماكن ومواضع الدمن وأنساب القبائل وأسماء الرجال إلى غير ذلك من الأسماء والمصطلحات التي لا ترجع خشونتها إلا لمجرد جهلنا نحن بها ، فلو أننا عنينا بتتبعها وتكرار ذكرها لما بدت لنا خشونة جافيه ، شأنها في ذلك شأن كثير من أسماء الأماكن والقرى والمواضع الأخرى في كافة الأنحاء اليوم .

٢- الجهل الذي يعم أرجاء عصرنا بالأدب القديم وما يقوم عليه تاريخ العرب وأيامهم. ويقع عبء المسئولية في ذلك على نظام التعليم فهذا النظام لم يراع الذين وضعوه المصلحة القومية فيه، ولم يركزوه على دعائم توجيهية ولهذا جاءت برامجه خليطا متنافراً لا يضع الطالب أمام وجهة ثابتة . ولعنا لا نعدو الصواب إذا قلنا أن برامج الدروس في العالم العربي ما تزال تمليها وجه النظر الأجنبية دون اعتبار لمصلحة الأمة العربية في تلك الوجهة إلا فيما ندر . ويمكن أن نتصور نوع ذلك الخطأ المريع ، خصوصاً في برامج الدراسة الأدبية في فترة العصر الجاهلي ، حيث تقدم للطلاب أعسر النماذج على فهمهم ، فتبعث فيهم السأم والملل ، مع العلم أن الشعر العربي حافل بكثير من النماذج السهلة اليسيرة التي لا يجد أقل الطلاب اليوم مستوى ، صعوبة في تتبعها والإلمام بها ، لو وجد من بين واضعي أسس التعليم من يولي هذه الناحية ما تستحقه من عناية . أما باقي العبء فيقع على الاتجاه الأدبي المعاصر فهذه المطابع وتلك الدور الصحفية وأولئك الكتاب المأجورون ممن يقتاتون بضمائرهم وأقلامهم ، وقد ساعد كل ذلك على خلق جو أدبي مائع لا يمت بصلة إلى ما يجب أن تكون عليه البيئة الأدبية التي تستهدف التوجيه القومي والسمو بالمستوى الأدبي العام . كل هذه ولا شك أسباب مباشرة أدت إلى النظر للشعر القديم على أنه لا يستسيغه المزاج الأدبي الحاضر .

٣- من صفات الكلام العربي ميله إلى الجزالة والإيجاز في اللفظ والمعنى ، مما يعسر تتبعه على من هو ضحل التفكير، والثقافة . والبيئة التي نشأ فيها الشعر العربي القديم كان لها التأثير المباشر في طبعه بصفات الصلابة آناً ، والسهولة أحياناً أخرى والتدرج به إلى مراتب فيما بين ذلك تبعاً للظواهر الطبيعية والنفسية

والاجتماعية على السواء .. يقول ألرافعي في هذا المعنى ((أما السبب في أن العرب لم ينظروا في تصفية معانيهم ونحت ألفاظهم الشعرية حتى تخرج نحيفة لا تتمالك فذلك راجع إلى فطرة الاستقلال وحالة البداوة. (فإن شئت قلت : إن ألفاظهم أنما تقطر من سيوفهم ، أو تدب في حشراتهم ، ولكنك لا تستطيع أن تقول أنها تتردد ألفاظا مذعورة ، أو تتمثل وهي معبودة ، أو تتهالك رقة دينية ونحو ذلك مما لا يلائم نشاط البداوة ولا يكون إلا وهنا من هرم الحضارة وتماوت الحياة الاستقلالية بما يفشو في أطرافها من جراثيم الانقراض. واظهر ما تجد ذلك في الشعر العبراني فإن الذلة والمسكنة والرعدة الدينية أخص مميزاته) .

وبعد : فإن الناتج الأدبي الخالد لا يضيره ، وهو في أوج جودته ، أن يكون عرضة للنقد عند من لا يفهمه ، أو مجالا للتأويل عند من يتعمد الإساءة إليه ولقد تبين لنا فيما سبق كيف أن كثيراً من العيوب والتنقصات التي أخذها دعاة التجديد على الشعر القديم لا تتعدى كونها مجرد اتهامات لا مبرر لها عند من يستهدف في حكمه جانب العدل والأنصاف إلا أن ذلك لا يعني أن القديم أو أي أدب آخر ، مبرأ من جميع العيوب ، سالم من كافة المآخذ الأدبية ، فذلك شأو في الكمال لا يمكن لبشران يدعيه ، وهو ما لا نقصده بداهة ، لأن في مثل هذا الحكم إيصاد لبابي النقد والتمحيص اللذين هما أداتان مهمتان لتجديد القيم الأدبية الصحيحة والسعي بالجهود الأدبية نحو التطور والوجود إلا أن الذي يجب أن نشترطه في تطبيق هاتين الأداتين أن يكون استعمالها منوطا بالتحري الصادق والغرض النزيه .

صوت البحرين، العدد ٩، ١٠، السنة الأولى ، رمضان شوال / ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م.



كتاب (الفتوة عند العرب)

من الحقائق المقررة في تاريخ الأمم أن دلائل اليقظة فيها ما هي إلا صورة لما يختلج في نفوس أبنائها من شعور قومي وما تتصف به جهودهم من أخلاص ووطنية . ولقد أدركت كثير من الأمم – حتى أقلها مجداً وأحقرها تاريخاً – هذه الحقيقة فصرفت اهتمامها الشديد نحو (التوجيه القومي) محاولة إيجاد ذلك الرابط الروحي المتين بين أفرادها في ماضيهم وحاضرهم على السواء .

ومن الغريب حقاً أن تكون أجدر الأمم بهذا التوجه القومي، أقلها سعيا اليه، واثقلها خطى في سبيله تلك هي الأمة العربية . فبالرغم من توفر عناصر التوجيه القومي في تاريخ الأمة العربية ، فأن حملة الثقافة من أفرادها لم يجشموا أنفسهم بعد عناء النظر في حقائق التاريخ العربي الذي عبثت به الأيدي وطمست الكثير من حقائقه أهواء المغرضين ، اللهم إلا في الشيء اليسير والنزر القليل جداً . ولعل كتابنا ((الفتوة عند العرب)) والذي نحن بصدد التعرف به على صفحات هذه المجلة هو من بين تلك الجهود الفردية التي ما يزال يبذلها الشباب العربي المتيقظ في هذا السبيل. وهكذا .. فإن يداً واحدة قد امتدت إلى أطمار ذلك التاريخ المظلم ، الذي تراكم عليه غبار السنين والأعوام ، واستطاعت أن تجلو الشيء الكثير من صفاته النابضة بالحياة والمثل العالية .

مؤلف الكتاب هو الأستاذ (عمر الدسوقي) الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد هو يعرفنا بكتابه في المقدمة فيقول أن الغاية من عمله هي تعريف الشباب العربي المعاصر ، بتاريخه على حقيقته ، وتقديم بعض صفحات مشرقة من سيرة الآباء تفيض بالخير والسخاء ، والخصال العربية الكريمة ، علّ أن تستفيد منها الأمة العربية اليوم ، في كفاحها المرير مع عداتها الغادرين ثم .. يتناول المؤلف ظاهرة عزوف معظم الشباب الحاضر عن الأدب العربي مع عظمته وقوته وصفاته ، إلى الآداب الأخرى التي هي نتاج بيئة غير بيئتنا ومجتمع قد كثرت علله و أوصابه ، وتعقدت مشكلاته وأدواؤه ، ونخرت فيه الآفات التي تصيب الأمم المترفة المتكالبة على المادة . أدب ولده الاضطراب النفسي ، والكبت والحرمان والضيق والظلمة – ظلمة الجو وظلمة الحياة – والآن لنلق نظرة عجلى على أبواب الكتاب ومواضيعه :

ينقسم الكتاب من حيث تبويبه إلى مقدمة تعقبها فصول تسعة يتناول المؤلف في الفصل الأول – وهو أصغرها – تحديد معنى كلمة (الفتوة) في اللغة وأنها من الفتاء ، وهو الشباب والقوة الجسيمة . ثم يتبع تطور معنى هذه الكلمة عند العرب في استعارتهم إياها للتعبير عن القوة المعنوية ، كالحرية والكرم إلى غيرها من صفات الرجولة الكاملة . وبعد هذا الفصل ينتقل إلى موضوع الفتوة وأثر الطبيعة العربية في الحواس واثر الصحراء في تكوين العرب الجسماني والعقلي . ثم يتناول بالتحليل الصفات الخلقية واحدة بعد أخرى فيعرضها

بأسلوب واضح ، بسيط ، حافل بالنماذج الحية . وهو يرى أن هذه الطبيعة العربية في البادية قد انعكست على نفس العربي قوة ، وصرامة ، وجلدا . وأن الفتوة عند العرب نشأت نشأة طبيعية في الصحراء الشاسعة ، التي فرضت على العرب أخلاقا خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولا ، صارت لهم على مر السنين جبلة وطبيعة وفطرة ، وصارت لهم عنواناً بين العالمين . ويتابع المؤلف رأيه ، فيشرح بجلاء كيف أن الحواس التي تصقلها عوامل البيئة في الصحراء . أمام حواس الإنسان ، ضرورية لتربية هذه الحواس . والحواس السليمة النامية تؤدي إلى قيام الجسم بوظيفته الطبيعية ، وأدائها أداء منتظما لا اضطراب فيه . كما تؤدي إلى وجود عقل سليم ، وحكم صحيح ، وحياة معتدلة) .

وهكذا يقرر المؤلف (قانونا) له خطورته وقيمته في مجال الدراسات الاجتماعية ، والتوجيهات القومية على السواء .

والفصل الثالث من الكتاب يدرس فيه المؤلف الفتوة في الإسلام – جاء ليكمل تلك الصفات عند العرب ، ويوجهها لخدمة صالح الجماعة الإسلامية . وقيمة هذا البحث تتجلى فيما ينطوي عليه من توجيهات قيمة في تعليل موقف العرب من الإسلام ، والحقائق التي ينطوي عليها ، مما استعصى فهمه على الكثيرين من كتاب التاريخ ، الأوائل منهم والمحدثين .

يقف المؤلف عند سر اختيار الله العرب للإسلام ، فلا تفوته الأدلة لإثبات أن اختيار الله ألامه العربية لتأدية تلك الرسالة ، إنما كان لأن العرب قد تميزوا عن معاصريهم بخلال وسجايا وعرف كريم . ولأنهم خير من يفهمها ويستجيب لها ويعمل بها . وينقلها إلى الناس كافة في جدّ ودأب وتواضع ومرحمة . فيعارض بذلك اتجاه جمهور السذج والمغرضين إلى الحط من قدر العرب الجاهليين وطمس جميع ما لهم من خصال حميدة في مجال الحديث عن فضل الإسلام الذي كانوا هم مادته ، ولسان الدعوة إليه لقد جاء الإسلام منظماً للجماعة العربيـة ، وموجهـاً تلك الأصـول الأخـلاقيـة فيها ، وجهتها الصحيحة ، دونما جهل أو إسـراف ينفيان المصلحة منها .

فالفرق بين رشد العقل الجاهلي ، ورشد العقل الإسلامي ، هو فرق بين نتيجة العزلة بالبداوة ، والإكتفاء بوعي شؤون العرب وحدهم ، وبين التوسع الذي يشمل نظر العرب في موقفهم من العالم المحيط بهم ، وبخاصة إذا أوشك أن يطغى عليهم فيهلك فضائلهم . وعلى هذا الاساس وحده نهض الخلاف بين الجاهليين والإسلاميين وسرعان ما أنتهى بالتآلف على التقوى .

ويعقد المؤلف بعد ذلك فصلاً خاصاً يتناول فيه صفات الفتوة عند الرسول العربي الكريم (صلى الله عليه وسلم) تعقبه دراسة مفصلة لرجالات الإسلام البارزين . ومن أطرف ما في هذا الفصل حوادث رواها وما يؤثر عنه من تشجيعه لهما . ومن المواضيع الأخرى في الكتاب فصل يبحث عن الفتوة عند المتصوفين . وفيه يظهر المؤلف مدى إنحراف معنى الفتوة عند هذه الفئة عن معناها العربي الصحيح . ويبدو لي أن رغبة المؤلف في تتبع الفتوة ، وما يتعلق بها على كافة مظاهرها ، وميله جمهور المتصوفين . وإن كان هذا المدلول قد مسخ الفتوة العربية الإسلامية مسخاً واخرجها عن معناها الصحيح كما يقرر المؤلف نفسه.

ويلي هذا الفصل بحث شائق عن فتوة من طراز آخر (أرستقراطي) هي فتوة (المترفين) وهم بالطبع لا يمتون الى من قبلهم بصلة من حيث انهم ليسوا من عامة الشعب وسواد الناس ولانهم كانوا من اصحاب الثراء والجاه والسلطان ويتزعم هذه الطبقة (الناصر لدين الله) وميزة هذا الفصل انه يصف كثيرا من انواع الرياضات الممتعة كالطراد والفراسة والرماية الى غير ذلك.

وبعد ان ينتهي المؤلف من فتوة المترفين يعقد فصلا خاصا يقارن فيه بين فتوة العرب وفروسية الغرب وينتهي الى ان فروسية الغرب لم تكن في البدء الا صورة واضحة كاملة من مآثم النبلاء ووحشيتهم ومفاسد قصورهم واستعبادهم للشعب وان الفروسية الغربية قد تطورت بعد ذلك الى شيء من سماح العقل والصفات الانسانية بتاثير الفتوة العربية فيها. ولكن هذه الصفات الانسانية ما لبثت ان تلاشت منها، بعد زوال النفوذ العربي من اوربا، وبعد ما صارت حضارة الغرب مادية لا تؤمن بغير الحديد والنار والقهر والغلبة والجشع والطمع واستعباد الشعوب واستنزاف دمائها.

الى هنا ينتهي المؤلف من اهم اجزاء الكتاب، ولكن ميله الى الاكثار من الشواهد والامثلة حدا به الى ان يخصص القسم الاخير، لعرض نماذج مختلفة من "قصص العرب" تبلغ الثمان، وهي نماذج حية من التاريخ العربي القديم، حافلة بالمثل الاخلاقية النبيلة.

من هذا الاستعراض السريع لمواضيع الكتاب تتبين لنا ضخامة المجهود الذي بذله المؤلف في كتابه الذي يتجاوز ال٤٥٠ صفحة فهو بالاضافة الى انه جديد في موضوعه سجل حافل باحاديث الفروسية والمثل الاخلاقية وقد نفخ فيها المؤلف من روحه وطعمها بتوجيهاته السديدة. واذا كان المؤلف لا يكتم القارىء المصادر التي اعتمد عليها، او التي استمد منها الكثير من آرائه الا ان الميزة التي يختص بها وحده، هي تبسيطه لتلك الآراء باسلوب سهل بعيد عن ضجيج الجدل واساليبه المعقدة، وحسبه من ذلك ان يضع بين ايدينا النموذج التاريخي، ويضرب لنا المثل الاخلاقية، لنستنتج بانفسنا ما ينطوي عليه كل ذلك من حقائق بعيدة وتوجيهات سديدة.

على ان للكتاب بعد ذلك ميزة اخرى تتمثل في نظرته للتاريخ من زاوية اخرى جديدة، تظهر لذلك التاريخ وجها اكثر اشراقا بالحياة والجمال، من ذلك المظهر الذي درج معظم المؤرخين على حصر جهودهم في مجال التنقيب فيه، مهملين الجوانب الاخرى من المجتمع الاسلامي، وهذه النظرة قد تكون اكثر اهمية واعظم نفعا بالنسبة الى تهيئة ثقافة النشء العربية الاسلامية، وان كانت بالنسبة للتحريات التاريخية المجردة لا تخلو من تصوير مبالغ في مثاليته. فنحن لسنا محتاجين — كما احتاج غيرنا- ان نتخذ من رجالاتنا السابقين "آلهة" متجاهلين طبيعة البشر وقانون الحياة، ولعل اكثر ما يخشى من ذلك، هو انه قد يؤدي الى نزع جانب الاسوة المتوخاة، والقدوة المرجوة، من عرض سير تلك الشخصيات التارخية.

على ان لدينا مع ذلك بعض المآخذ الطفيفة لا بأس من الاشارة اليها ولو من بعيد لاتمام البحث. واول ما نلاحظه هو كثرة استشهاد المؤلف بآراء المستشرقين. انه قد يكون هناك ما يبرر الاستشهاد بآراء الاجانب في مجال التحقيق العلمي المجرد، اما بالنسبة الى القيم الاجتماعية والخلقية فان من الخطأ الاسترسال في التمسح بآراء هؤلاء المستشرقين حتى ولو بدا كلامهم ما يشبه الانصاف. فنحن نعلم ان المقياس الخلقي او الروحي هو مقياس نسبي بين امم العالم — يستمد قوته في الغالب — من قوة تمسك الامة به، ومحافظتها عليه، الامر الذي يرغم الغير على احترامه وتقديره. وبالرغم من ان النصوص التي استشهد بها المؤلف لهؤلاء، قد جاءت في مجال انصاف العرب، فقد وقع ما كنا ننتظره، ففي عدة مواضيع من الكتاب لا يسع المرء الا ان يبدي اشفاقه من تلك العقلية الغربية حينما يقدر لها ان تحكم باسلوبها الخاص على مثلنا الاخلاقية، او تنظر فيها بموازينها. فمن ذلك ما نقله المؤلف (ص٥٦١) "عن فيطاني" ما نصه:

"ان دخول الاسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على بعض العادات البربرية فحسب وانما كان انقلابا كاملا لمثل الحياة التي كانت من قبل" فاذا عرفنا ان المؤلف ساق هذا النص في بحث له عن اثبات استعداد العرب الفطري للاسلام، ادركنا ان المؤلف قد ناقض نفسه بايراده كلام فيطاني هذا الذي ان دل على شيء فانما يدل على مدى جهله بمثل الحياة عند العرب وعاداتهم.

اما "فلوريمان" و"سيسموندي" فلهما كلام غريب عن منزلة المراة عند العرب. ولا ادري كيف اجاز المؤلف لنفسه ان يستشهد به رغم ما فيه من زيغ ظاهر. تأمل قول فلوريمان "من اجل النساء سعى العرب وراء المجد ولكي يسطعوا امام اعينهم (يريد اعينهن) سعوا في سبيل الثراء حتى يقدموا لهم اغلى ما يملكون من مال وحياة". فالسعي وراء المجد عند العرب انما الغاية منه ان (يسطعوا) على حد تعبير فلوريمان — امام النساء

ولو تطلب منهم ذلك التشبه باليهود في طلب الثراء ! اما سيسموندي فهو يرى ان الحجاب للنساء المسلمات " هيكل يعبدن فيه" ثم يكرر كلمة "العبادة" على نحو يتناقض معالم الاسلام صراحة وان كان يتفق بالطبع مع التقاليد الوثنية في العالم الذي يجهل حكمة الاسلام من وراء الحجاب وهي الصيانة وحفظ العرض.

اما اسلوب المؤلف فقد اشرنا من قبل الى انه من ميزات الكتاب سهولة اسلوبه وتبسيطه للآراء على ان الملاحظ ان المؤلف قد اسهب في بعض المواضع اسهابا يقطع حبل التفكير على القارىء المسترسل ويدعو الى الملل، لما فيه من تكرار واعادة، هي اقرب الى اسلوب الكتب المدرسية.

ومن الملاحظات الاخرى على بحث المؤلف انه وقف بتاريخ الفتوة العربية عند القرن الخامس أي عند انحلال الزعامة العربية في كيان الدولة الاسلامية ثم وجه دراسته بعد ذلك على اسلوب الكثيرين من الكتاب والمؤرخين – شطر الخليط المتحلل بينما كنا نود ان يستمر في تتبعه لتاريخ الفتوة ونماذجها في حياة ابنائها الاصليين التي هي امتداد للحياة العربية الصحيحة في الاخلاق والعادات، ولو انه فعل لاخرج لنا سلسلة تكمل بها حلقات التاريخ العربي المفقود في هذا العصر. على ان تلك المآخذ الطفيفة لا تنقص بالطبع شيئا من قيمة الكتاب وحسب المؤلف انه استطاع ان يحقق عملا قوميا لم يتيسر للكثيرين غيره من دعاة القومية بلغة الاقوال والادعاءات المجردة عن العمل.

مجلة صوت البحرين ، العدد ١٠ ، السنة الثانية، شوال ١٣٧١هـ / ١٩٥١م.



الإسلام قول وعمل

حينما اخذت القلم لأكتب في هذه المناسبة، بدأت اتفحص جوانب "المشكلة الاسلامية" التي تثيرها في هذا العصر اقلام الكتاب ويتفنن في ابرازها الاسلاميون، علني اجد فيها منفذا للقول او اعثر بين ركامها على مادة تصلح لارسال الحديث على النحو المألوف في هذه الاجتماعات التي نحتفل فيها بذكرى إسلامية جليلة. وكان مما اثار انتباهي بصورة خاصة، وانا اتطلع عن كثب الى ذلك الركام من الاقوال والاحاديث التي تدور حول قضايا الاسلام في السياسة والحكم والاجتماع والعلم، ما لاحظته من ان هذه المشكلة الاسلامية التي تضخم بها رأس المجتمع الاسلامي منذ ان فقد سيطرته في العالم، هذه المشكلة لا وجود لها الا في ادمغة اصحابها.

وكنت كلما اردت ان ادير القول حول ناحية من نواحي الدين الاسلامي الحنيف وجدتني انتقل بصورة الية للحديث عن المسمين انفسهم في موقفهم من الاسلام ووعيهم لمبادئه وتطبيقهم لنصوصه واحكامه. وهذه حقيقة واضحة بسيطة لولا ان جمهور المسلمين قد تجاهلوها او درجوا على تجاهلها، فوصفوا الاسلام بادواء انفسهم، واحاطوه بمخازي اطماعهم، وطمسوا معالمه في حياتهم، ثم تنادوا فزعين يتوهمون ان في الاسلام" مشكلة" تعوقه عن السير، او علة تقف به دون التطور. وكأنهم في تظاهرهم هذا بالاشفاق على مستقبل الاسلام والخوف عليه من التخلف عن ركب الحضارة والعلم، يجهلون ان حقائق الاسلام الثابتة لا يمكن ان تتغير كما لا يمكن لاية حقيقة ثابتة او سنة محكمه في هذا الكون ان تتبدل او تتغير، وان احكامه وقوانينه ومبادئه وتشريعاته لا يمكن ان تخرج بحال من الاحوال عن مجال الحكمة الالهية الثابته في تنظيمها، لتساير رغبات البشر اذا كانت تلك الرغبات خارجة عن نطقها المشروع في دين الله، او تماشي تيار حضارة وعلم يتحدى كل منها حكم الاسلام او ينافي شرعة القرآن. نعم، يفهم الاسلام ان تتحر النفوس المريضة من ربقة الجهل وتتجرد العقول من خزعبلات الباطل فتجيل النظر بالعين المبصرة الواعية ايات الله البينات تستخلص منها الحكمة وتستمد منها النور والايمان. وهكذا يحتم الاسلام ان تكون جميع التشريعات مستمدة من روحه، فليس من الاسلام في شيء ان يدخل الاسلام شيء من باطل العصر، او تساور احكامه نزوة من رغبات النفس المريضة. وبالمثل فان الاسلام لا يسمح ان يؤخذ تجزئة او اقساطا فهو نظام يشمل الحياة الانسانية بجميع مرافقها فيقيمها على دعئم من الايمان الراسخ ويسيرها وفق نظام شامل دقيق.

قلت في اول حديثي ان المشكلة هي مشكلة المسلمين لا مشكلة الاسلام، واود ان اضيف ايضا ان مشاكل الحضارة ومخازي الحياة السائدة هي ليست من مشاكل الاسلام ولا من قضاياه. والذين يحاولـون ان يحملوا

الاسلام تهمة العجز عن معالجة مشاكل المدنية الحديثة وقضايا الاجتماع وغيرها كما هي منتشرة اليوم. عليهم ان يثبتوا اولا اذا كان شيء من هذه المشاكل التي يجاهدونها ناشئا عن تطبيق نظام الاسلام الصحيح حتى يصبح مسئولا عنها مطالبا باقناع الناس حول وجهة نظره فيها، بعد ان انفضوا عنه الى طواغيتهم فارتضوا غيره حكما واتخذوا سواه بديلا. انهم يحبسون الاسلام في زنزانة ضعيفة من مقولاتهم لا تتجاوز بضعة اركان هي من الدين بعضه لا كله ثم يضيقون عليه الخناق في دائرة سلبية من حياتهم لا تتجاوز عدة طقوس او مجموعة مراسيم يؤدونها مكرهين وياتونها متثاقلين. او هل ينتظر هؤلاء العاجزون المقعدون من الاسلام وهو الحبيس بين جدرانهم ان يحقق لهم المعجزة فيمهد لهم نعيم الحياة او يستخلفهم في الارض او يصرفهم في شئونها؟

لقد بات من الحقائق الواضحة ان سعي المسلمين الايجابي نحو بناء مجتمع اسلامي سليم امر لا مفر منه ولا بد من تحقيقه اذا ما ارادوا الحياة او طمعوا في نيل العزة الكرامة. فما هو هذا السعي يا ترى وكيف يكون؟ .

ان الفئة الغالبة من الناس لا تزال تتصور ان حال المسلمين بخير ما دام فيهم من يدعو الى التمسك بالاسلام ويتمنى النصر للمسلمين بعد كل صلاة او في شتى المناسبات السانحة، وهذا هو مصدر الخطأ الاكبر في حياتنا. ذلك لأن كثيرا من هؤلاء يحسبون انهم يحسنون صنعا بتزيين الخير للناس وهم يبتعدون عنه، وتحبيب الايمان الى القلوب مع خلوهم منه، ثم هم يصبحون مع ذلك اسوة سيئة لغيرهم فيستسلم المجتمع لداء النفاق وتستنيم الجماهير لخدر الامنيات وإغفاءة الذكريات.

لذلك، لا ابالغ اذا قلت ان السعي الايجابي يجب ان يبدا من هنا... من ضمير الفرد المسلم أولا، وان المعركة هي معركة النفس قبل كل شيء. وان كل تقدم يبدو بعيد الاحتمال ما لم تظهر في المجتمع الاسلامي تلك الطائفة من الدعاة الذين يحسنون فهم الاسلام قولا وعملا ويضربون لغيرهم المثل في صحة الايمان والتفاني في العقيدة والتضحية من اجل الواجب ابتغاء مرضاة الله دون التماس اجر او انتظار كسب. والله عز وجل يقول "ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم". نريد رجالا كتلك البقية الصالحة التي وصفها الخلفية عمر بن عبدالعزيز بقوله (الا وان لله بقايا من عباده لم يتحيروا في ظلمتها ولم يشايعوا اهلها على شبهتها، مصابيح النور في افواهم تزهو، والسنتهم بحجج الكتاب تنطق، ركبوا نهج السبيل وقاموا على العلم الاعظم، هم خصماء الشيطان الرجيم وبهم يصلح الله البلاد ويدفع عن العباد).

هكذا بدأ الاسلام وبدأت قبله جميع الاديان: احادا عظاما وافرادا كراما اقاموا نفوسهم على النهج القويم وربطوا ابرارا على قلوبهم ثم جابهوا الباطل فهزموه بقوة ايمانهم وطهروا الارض من رجس الاوثان ودرن البهتان... ونحن اليوم نستقصي جوانب حياتنا فلا نجد ما يدل على تمسكنا بحقيقة الاسلام قولا وعملا، او اقتدائنا بسيرة رجالاته المؤمنين الزاخرة بالبطولة والمليئة بالتضحيات، ولكننا مع كل هذا التخلف المريع في مضمار الحياة الحرة الكريمة لا نزال نتشبه بالمظاهر وقد استعضنا عن اتباع سبيل الصالحين قبلنا بتعداد ماثرهم والترحم على سيرتهم كلما حانت مناسبة للقول او سنح مجال للخطابة، حتى ليتصور احدنا وهو في نشوة من ذكرى الماضي انه لا يزال يجري في نفس الميدان الذي جرى فيه من كان قبله، وما هي الا لحظات معدودات حتى ينتهي ميدان الخطابة لينكفئ كل فرد خفيف الظل سريع الحركة الى حيث ياخذ موضعه في عجلة المجتمع الدائرة ويتوارى بعيدا عن الانظار. ان سيرة الرسول الكريم التي يجب ان تظل شاخصة امام كل مسلم طيلة اوقاته، لا تذكر عندنا الا بالمناسبة في معراج او مولد او عيد، اما في سائر ايامنا وفي غمرة حياتنا فاننا نضع سيرة الرسول على الرف، او نفرد لها ركنا بعيدا عن نطاق تفكيرنا ودائرة اعمالنا.

في مفهوم البرامج الاصلاحية الهزيلة، وفي عرف المجاملات التي حجبت عن اعيننا صراحة الحق، اننا نؤدي واجبا كبيرا ونقدم للاسلام خدمة جلى بمجرد تنظيم الاحتفالات بالمناسبات الاسلامية.. اما في حكم الحق والواقع فاننا لا نعمل شيئا، وما اقامة الاحتفالات على هذا النحو الرتيب وبهذا الشكل الباهت الا مظهر اخرا من مظاهر الفراغ الذي نحسه والحيرة التي نتقلب فيها. الا فلنسأل انفسنا بعد هذه السنوات الطويلة عن رصيدنا من الاصلاح الذي ننشده والغاية التي نسعى اليها..

لا اخالني بحاجة الى ان اجيب ان مجتمعنا لا يزال يتردى من سيء الى اسوء بل اخشى ان اقول ان عوامل النكسة الاولى في تارخنا المظلم لتوشك اليوم ان تكتمل اسبابها لترجع بنا قرونا الى الوراء، ولا يعلم الا الله أي مصير تعس سوف يكون بانتظارنا هناك.

ان بوسع كل منا، بل ان بوسعنا جميعا ان نعمل كثيرا لتدارك الحال ودرء الخطر اذا ما اردنا لانفسنا ان نحيا كراما وان ننال العزة والسيادة. وعندما يعقد كل منا النية الصادقة على العمل ويتفاني كل فرد في انكار الذات متوخيا كل فرد في مجتمعنا روح الاخوة وتاخذ المشاريع الاجتماعية النافعة سبيلها الى التحقيق، حينئذ فقط يكون لهذه الاجتماعات اثرها القيم في ايقاظ الوعي الشامل، وادارة الراي الصالح وتحقيق العمل المثمر.

ابراهيم العريض... كما عرفته أديبا وانسانا

العريض في كلمات:

العريض.. استاذ رائد لجيل من الرواد في الثقافة والفكر والادب، وموسوعة للمعارف والفنون تمشي على قدمين... وقبل ذلك وبعده، شاعر مبدع يتغنى بشوق الطفل لاصطياد الفراشات الهائمة. انه استاذ بمعنى الكلمة.

ما زلت اذكر وانا صغير - في المرحلة الابتدائية من الدراسة - كيف انني كنت يوما في بيت اخي الاكبر، اعبث باوراق مهملة وجدتها في صندوق خشبي فعثرت على دفتر للنصوص والمحفوظات يحتوي على اشعار جميلة غيرما الفناه في المدرسة. واتذكر مطلع احدى قصائدها من شعر الشريف الرضي، وهو:

"يا ظبية البان ترعى في خمائله   ليهنك اليوم، ان القلب مرعاك"

(.. فأعجبت بها كثيرا.. ولما واصلت تقليب تلك الأوراق وجدت عليها اسم ابراهيم العريض صاحب ومدير المدرسة الاهلية، التي انتهى امرها في اوائل الثلاثينيات. ويتذكر اخواني والاخرون الاكبر مني سنا من تلامذة مدرسة العريض ومدرسيها اخبارا غريبة ومثيرة عن هذه المدرسة الفذة وعن اسلوبها غير المالوف. وتمتزج كل تلك الذكريات باحداث رائعة كلها من صنع الاستاذ العريض ومنها روايته الشعرية "وامعتصماه" وديوان شعره الاول (الذكرى) وعن معاناته وصبره في مجال تنوير العقول.

ثم سنحت لي الظروف بعد ذلك ان اواجه الاستاذ العريض عن كثب خلال زياراتي لنادي العروبة اوائل الاربعينيات، حيث كان الاستاذ الكبير ابراهيم العريض، النجم اللامع في معظم حفلات النادي.. اذ كانت تفرد له في العادة امسيات خاصة بكاملها يستغرقها في القاء الجديد من شعره القصصي محفوفا باعجاب الحاضرين وتصفيقهم. فقد القى بين عام ١٩٤٠-١٩٤٢ عددا من اروع قصائده مثل "قبلتان- والتمثال الحي- واسطورة الخيام، وقلب راقصة.. وغيرها.

كنت اتابع حفلات النادي بشوق واحضرها فاجلس بين الصفوف المتراصة محشورا في مؤخرتها، لايحفل بي احد لكني أتجاسر على الوقوف بين الحين والاخر لمتابعة حركات الاستاذ العريض.. التعبيرية (ونزوات اطراف العباءة التي يلبسها حين ينقلب كاس الماء الموضوع على الطاولة مثلا) ولم يكن ليعكر صفو هذه السعادة عندي شيء سوى قلقي من الرجوع بمفردي الى المنزل خلال الازقة الموحشة المظلمة، تتجاوب عبرها اصداء من اصوات الحراس (النواطير) المفزعة.. تجرح صمت الليل وسكونه ...

وفي غير ذلك فان صوت الاستاذ ابراهيم العريض ونبرات كلامه مما يدور في اروقة النادي من احاديث هما مميزان لدى معظم اعضاء النادي من اسلوبه الهادئ الحاني الرقيق تتخلله عبارة (يا ابني .. او يا ابنائي) والاستاذ نادرا ما يغضب .. فاذا فعل فانه يزأر زئير الاسد.. فيصمت المتجادلون .. وكان معروفا عن العريض انه بسيط ومتواضع يقنع بالاشياء البسيطة التي ترمز الى الحب والاعجاب كما يرتاح الى الكلمة الطيبة التي تهدأ بها نفسه.

ولكن لقائي الحقيقي بالاستاذ العريض تحقق حينما عين استاذا معارا في مدرستنا التي كانت تعرف بالمدرسة الثانوية وذلك خلال عام ١٩٤٢م. وفي مرحلة دراستي الثانوية شغفت حبا بعالم السماء ومسار النجوم .. وكان من وراء ذلك استاذنا الكبير الشاعر ابراهيم العريض، الذي جمع في شغفه بالنجوم بين جهد العالم، وتأمل الفيلسوف، واحساس الشاعر المرهف.

ومن قبل، عرفت من نجوم السماء النجم القطبي، حتى جاء الاستاذ العريض الى الثانوية مدرسا معارا فاخذت من شرحه الكثير عن عالم السماء الدنيا. وما كانت حصة الدروس عند العريض لتنتهي بانتهاء الوقت كنت اسأله دائما وكان يجيبني دائما حيثما لقيته وقد الف الطلاب وألفوه من اول درس وكأن له مع كل منهم معرفة سابقة. وباشر بتدريس الرياضيات باللغة الانجليزية ابتداء، فلم يعسر فهمها على معظم الطلاب بفضل اسلوبه في التدريس . ومع ذلك كان يضيق ببلادة الفهم والاحساس، وسخف السؤال، وشرود الذهن.

وبعد ذلك تعددت لقاءاتنا وكثرت مناسباتها حتى اصبحت جزءا من برنامجي اليومي او الاسبوعي – تقريبا.

اذا دخلت السوق من منزلنا القريب ماشيا اجده في الاغلب على مشارفها يتسلى مع الحاج منصور الخياط باحاديث يدور معظمها عن احوال المعيشة وعن هموم الناس وشئونهم. آخذا بين آونة واخرى نفسا من الغليون (الارجلية او القدو) الذي يواظب الحاج منصور على اصلاح شأنه حسب ذوق الاستاذ.

واذا خرجت من السوق عصرا اصادفه خارجا لوحده او مع شلة من اعضاء النادي فنتمشى على طريق القضيبية... على عادة اهل البحرين قبل حلول الظلام. والاحاديث شتى.. من اخبار الحرب العالمية، الى تحليلات السياسة، فالشعر والادب ونظرات فلسفية في الدين والمجتمع، واخبار الكتب والصحف.

وكانت مهمتي الظاهرية في تلك الاثناء توجيه الاسئلة العشوائية فهو يجيب على بعضها ويستهجن غير الوارد منها لانه يكره الاسئلة (السخيفة) اما المهمة الاساسية عندي فكانت "اصطياد" الاراء والافكار لتحليلها فيما بعد.

وقد وجدت من الصعب مواجهة الاستاذ بنقد مباشر او مجابهة فكرية لآرائه مبعثها العاطفة وليس الاطلاع الراسخ. ولم اعرف فيما اذكر شخصا يتقبل منه الاستاذ مثل ذلك النقد الصريح والمواجهة الحادة سوى الاستاذ علي التاجر وهو كالعريض محب للقراءة واسع الاطلاع. ولعل الاستاذ العريض انما كان يحرص على مجاراته بدافع رغبته الكامنة في التعرف على الوجه الاخر المضاد وذلك فن يتقنه جيدا على التاجر حيث ينقض على الفكرة الاساسية من احدى مواطن الضعف فيها فينسفها في عصبية وحماس..

وقد نشأت بين العريض وبين كل من علي التاجر وحسن الجشي والسيد رضي الموسوي محبة ورفقة وزمالة... كما نشأت بينه وبين فضيلة الشيخ عبدالحسين الحلي عالم النجف والحلة والاديب الشاعر، علاقة حميمة فكرية وأدبية من نوع خاص وذلك بعد قدوم الحلي الى البحرين وتعيينه قاضيا للتميز بالمحكمة الشرعية في عام١٩٣٧م، وكان الحلي معجبا بالعريض من حالة اليأس التي الت به على اثر اغلاقه المدرسة الاهلية وانسداد ابواب المعيشة في الثلاثينيات وانصراف ذوق الجمهور عن الشعر الابداعي وتمسكهم بشعر التقليد فقد جاء في زمان دأب الشعراء فيه على الاجترار، وكان مبدعا فلم يفهمه الآخرون فسبب له ذلك هما والما وشعورا بعدم التقدير لمحاولاته الفنية. وقد عبر العريض عن هذه الحالة النفيسة في اشعار من بينها قطعة لم تنشر خصني بها مؤخرا بعد ان فتحت معه الحديث عن هذه لمرحلة من حياته، نظمها سنة ١٩٣٤ (١٣٥٣هـ). وعنوانها (نفضت كفي) يقول فيها:

نفضت كفي من ورد ومن اس ... وعدت بالشوك اكليلا على راسي
لم ال جهدا على انعاشها بيدي ... لكن مضى بشذاها حر أنفاسي
ينكر الحس من نوّارها أرجا ... بعد الذبول فليس القلب بالناسي
وكيف انسى جمالا كان مشهده ... يزيل ما فيّ من همّ وسواس
لا شأن للفن في دنيا اعيش بها ... فليس ينشد اهلوها سوى الباس
كم رحت ابعث في ارجائها نغما ... يرق كالماء لكن قلبها قاس

فلو شكوت لها من غلتي أثرا لمـا سقتني إلا أدمع اليـاس
أظل أشعر في حلقي مرارتها كـأن حظي منها شرقة الحاسي
لا يطمح الطير- والاشراك ترصده- ان يستقل بـوكر فوق ميـاس
تبقى الخميلة بالاغصان مائسة مـا دام يغفل عنها حامل الفاس
قد كنت في مجلسي اولى بنشوته لـولا الذي انا ساقيه لـجلاسي
يا ناهلين كؤوس الراح في دعة رفقا فذاك دمي في سورة الكاس

ثم هجر الشعر ردحا من الزمن فاستحثه الشيخ الحلي على نظم الشعر بما لا يقل عن اربع قطع شعرية يدعوه فيها الى مواصلة عطائه الفني حتى وصل الالحاح الى درجة التعنيف.

وهكذا نجد الشيخ الحلي يمضي قدما دونما هوادة في حث العريض على مواصلة قول الشعر بالحاح تدرج في استمالته الى حد التعنيف، وما كان الشيخ الحلي ليفعل ذلك لولا معرفته وتقييمه للمعدن الفني الذي ينهل منه العرض، وتحسره على تلك الموهبة الفنية ان تضيع وعلى تلك الشعلة المتقدة ان تخبو من جراء اليأس والاحباط.

هذا مع العلم انه كان معروفا عن الحلي ان له موقفا صريحا من مدعي الشعر والادب، فهو ينصحهم بالابتعاد عن قول الشعر واحيانا يهجوهم اشد الهجاء.

وعودا الى توطد معرفتي بالاستاذ العريض، اقول بالاضافة الى ما ذكرته، انني جمعتني به- ومازلت طالبا في الثانوية- علاقة جديدة منشؤها مجلة "الانصار" والتي كانت تعرف نفسها بانها (مجلة الفكرة العربية والثقافة الاسلامية) وقد تنبه الاستاذ العريض الى جدية هذه المجلة في دعوتها للعروبة والاسلام، وصدق كتابها، وجمال اسلوبها مقترنا بقوة الحجة والاستشهادات.. فلفت انظار خاصته اليها وسرعان ما اصبح لمجلة الانصار فئة مختارة من (الانصار) ضمت بجانب الاستاذ كلا من حسن الجشي وعلي التاجر وخالد محمد الخليفة ودعيج الخليفة والشيخ عبدالرحمن الجودر، وآخرين.. كنا جميعا نقرأ الانصار ونجتمع لمناقشة افكارها.. مما اتاح لي شخصيا ان اجتمع مع الاستاذ العريض على فكر مشترك وان اجالسه اكثر من ذي قبل.. وقد بلغ من تقدير العريض واعجابه بصاحب الانصار.. انه خرج عن عادته في ابتعاده الكلي عن شعر المديح والمناسبات وخص صاحب الانصار بهذه الابيات وهي مما لم ينشر من شعر العريض:

الى الاستاذ احمد صبري:

يا عبقري العصر غير مدافع والكوكب الوقاد في ظلمائه
مضت القوافل وهي تخبط في الدجي حتى استضاء، فكبرت لضيائه
ما سرني مدحيه الا بعد ان الفيته للشرق، باب رجائه
تلك القرون... كانما هي ليلة ليلاء، اسفر صبحها بذكائه
ان الذي برأ العقول سما بها صعدا.. وخصك دونها بسمائه
فاسلم، فما هذا الزمان سوى فم يشكو، وتعلم انت موضع دائه
ما كان للصحراء ان تظما وفي اعماقها هذا الغدير بمائة

ثم افتقدت العريض كثيرا بعد سفره الى الهند، عام ١٩٤٣ رغم انى سافرت ايضا للدراسة. فلما عاد وعدت، توطدت تلك العلاقة على سابق عهدها واضيف اليها عنصران جديدان:

اولهما اقبال العريض بروح لا تكل ولا تمل، على اعداد ما كتبه شعرا ونثرا للطبع في الوقت الذي يواصل فيه النظم والتأليف. وقد شهدت سنوات النصف الثاني من الأربعينيات قمة الانتاج الادبي للستاذ العريض واستمرت ذروة النشاط في الخمسينيات والستينات حيث شهدت هذه الفترة صدور معظم مؤلفاته الادبية والنقدية والشعرية المعروفة.

اما المناسبة الاخرى، فهو مواظبة الاستاذ العريض على اتحاف مجلة "صوت البحرين" بكتاباته المسلسلة (نفح الطيب) التي تناولت تحليلا فنيا للمختار من الشعر العربي، وكذلك (في الميزان) ودنيا الكتب وتناول فيهما التعريف والنقد للكتب- الادبية والفكرية. حيث تم بعد ذلك استيعاب بعض تلك المقالات في كل من كتابيه (جولة في الشعر العربي المعاصر) والشعر والفنون الجميلة وغيرهما وقد تسنى لي بحكم لقائي المتواصل بالعريض ان اعيش معه همومه في تتبع ما ينشر في الصحافة حول مؤلفاته ومقالاته وما يصله من تعليقات حول اصداراته الشعرية والادبية الجديدة- وفي اخراج مؤلفاته للطبع كما كنت استمع اليه معجبا بحماسه وسهره ومواظبته.

وصحبت العريض في بعض الاسفار الى لبنان فكان نعم الرفيق والاب العطوف وتعرفت بصحبته على عدد من اصحاب الصحف والناشرين من بينهم البير اديب صاحب مجلة الاديب، وتعرفت برفقته على مركز اذاعة الشرق الادنى، ودار الكشاف ودار العلم للملايين والشاعر الصافي النجفي وغيرهم وزرت معه جبل الارز للمتعة وللترويح ولكن النزهة تحولت بصحبته الى معارف وفنون وشعر وزيارات للاثار وللمتاحف، وكان على عادته يضع ملاحظات مسبقة عن الاماكن التي تهمه ويلتزم بزيارتها. ومنذ مطلع الخمسينيات اصبح للاستاذ العريض حضور مستمر وبارز في العديد من المؤتمرات والمواسم الادبية والشعرية والثقافية على امتداد الوطن العربي والشرق الاوسط، وقد رافقته أول مرة إلى مؤتمر الأدباء العرب الرابع في الكويت عام ١٩٥٨ الذي عني بعدد من القضايا الفكرية والأدبية بالإضافة إلى إلقاء عدد لا بأس به من أشعار وقصائد للمشاركين. وقد لاحظت على العريض عدم الارتياح لكثير من تلك الأشعار باعتبارها شعرا للمناسبات ليس فنا شعريا. ولم استغرب ذلك. فلطالما سمعته يردد نظرته إلى الشعر بأنه احتفال متجدد بالحياة وجوانب الجمال فيها، وتعبير جميل عن خوالج النفس البشرية. أو كما جاء في تقدمة الأستاذ حسن الجشي لأحد دواوين العريض: (إن الفن عند العريض مرآة الوجود وتجسيد للأشياء الأبدية، وروح خلاقة يحتذيها حتى الخالق في إبداعه. لان الفن أداة الاتصال بهذا الوجود). ومن هذا المنطلق جاء افتتان العريض بالطبيعة، وبالمرأة كرمز للجمال الحي الخلاق.

ومن المناسبات الأخرى التي جمعتني برفقة الأستاذ العريض والزميل الدكتور محمد جابر الأنصاري فكانت خلال مؤتمر الكتاب الأسيوي الأفريقي في بيروت عام ١٩٧٠ حيث شارك العريض ببحث قيم يتضمن شرحا لنظرة جديدة في تعريف القيمة الفنية للشعر والنثر ووجوه الاختلاف بينهما.. وهي نظرية رياضية طالما فكر فيها العريض مليا قبل ذلك وشهدت إرهاصاتها وبداياتها عنده من حديثه المتكرر عنها في البحرين.

ومن الطريف في هذه المناسبة انه بينما كنا مشدودين إلى حديث العريض وهو يلقى كلمته باللغة الانجليزية في حفل الافتتاح، وقد وصل إلى عبارة "تسليط مزيد من الأضواء..." وإذا بالأنوار تنطفي فجأة ويغرق الجميع في ظلام دامس..

وفي جميع المناسبات التي حضرتهما مع العريض تابعت بإعجاب نشاط العريض متعدد الأوجه في الاجتماع بأعضاء الوفود، ومناقشة الأفكار بيقظة وحيوية كانت كلها موضع تقدير وإعجاب من المشاركين واعتزاز بالنسبة لوفد البحرين. واعرف عن الأستاذ العريض بهذا الصدد حرصه الشديد على الاحتفاظ بملف كامل لتلك المناسبات

بما في ذلك صورها التذكارية كما اعرف انه من أدق الناس في ترتيب أوراقه ومجموعاته واستكمال الناقص فيها. واذكر بهذه المناسبة سعيه الحثيث لاستكمال مجموعاته من مجلة "الأنصار" حيث عرض على نادي

وقد توج الأستاذ العريض نتاجه الأدبي بكتاب "فن المتنبي بعد الف عام (١٩٦٢) ثم ترجمة رباعيات الخيام (١٩٦٦) وتفرغ بعد ذلك لمجموعات متنوعة من الأبحاث الأدبية والمشاركات في المؤتمرات والمنتديات الفكرية والأدبية ونظمت له لقاءات ومقابلات صحفية عديدة ونشر مقالات في الأدب والشعر وآراء نقدية تعرض فيها لموقفه من شعراء الحداثة وموجة شعر التجديد، ولا شك انه قد تجمع من كل تلك الأنشطة قدر كبير لم ينشر ويحتاج للجمع والعناية باعتباره نتاجا مكملا لأدب العريض وشعره.

وللأستاذ العريض حضور مميز في الندوات الفكرية التي تدور في محافل الأندية والجمعيات في البحرين، وخاصة في نادي العروبة التي لم تنقطع صلته به حتى هذه اللحظات- فهو بمثابة الأب الروحي لهذا النادي في البحرين. وفي أواخر الستينيات أهدى العريض جزءا كبيرا من مكتبته لنادي العروبة ذكرى وفاء ومحبة وقد اشرف بنفسه على نقلها إلى حجرة خصصت لها في النادي وترتيبها وتعهدها بجهد دؤوب حتى تم ترقيمها وإعداد الفهارس والبطاقات لها. وفي نفس الفترة تعهد العريض نشاطا مميزا في النادي لممارسة لعبة الشطرنج التي نمت وترعرعت وأصبح العريض من هواتها ومشجعيها الدائمين.. حيث يتيح حضوره اليومي للنادي لمشاهدة هذه الهواية مجالا فريدا للقاء العريض وتأكيد الصلة المستديمة معه في رحاب النادي الذي شهد تأسيسه منذ عام ١٩٣٩. وفي أبيات نظمتها ونشرتها مجلة (العروبة) التي يصدرها النادي بعنوان (مداعبات شطرنجية) أشرت إلى دور العريض في هذا المجال قائلا:

يشرفنا "الأستاذ" فهو مواظب ... رقيب على حسن الأداء.. وساهر

ومن غير "إبراهيم" يعرف قدرها ... وقد سبقت منه إليها البوادر

يكن له في "الدست" كل مربع ... من الحب ضعفا، بدؤه فالأواخر

وما ذاك بالشئ الكثير، فكم زهت ... عرائس أشعار به.. ومنابر

توقف العريض عن التأليف بعد رباعيات الخيام على ما اعلم وآخر ما قرأت له من الشعر أبيات عاطفية بمناسبة ذكرى عزيزة على قلبه لرحيل شريكة حياته "أم جليل" وذلك في عام ١٩٨٥- وهي:

أحب لحبك دنيا الحسان لأن لحسنك فيها انعكاسا
حضورك يضفي على الحفل طيبا فان غبت ظل الحضور اقتباسا
أثغرك في تلك يبدي افترارا وطرفك يرنو بهذى اختلاسا؟
فسبحان من ماز حسنك وردا وحول حبك في القلب آسا

وسرعان ما تلقف الشاعر غازي القصيبي هذه المناسبة فأضاف عليها أربعة أبيات من شعره، ثم أضاف عليها الشاعر عبدالله الشيخ جعفر أربعة أبيات أخرى.. فلما اطلعت عليها في نفس اليوم أضفت إليها هذه الأبيات :

أبا الشعر طال انتظار القوافي فهلا أجبت لهن التماسا؟
وأطلقت من سجنه طائرا تثنى له الغصن شوقا... فماسا
"عرائس" غابت زغاريدها وطالت على المعجبين احتباسا
أرى الحزن يذرف من مقلتيك على الماء درا، وفي الترب ماسا
وينبت في الروض ريحانه ويكسو الجنائن وردا وآسا
وان طال ليلك عهدي بمن تمرس بالدهر، أقوى مراسا..

ثم أقام نادي العروبة حفلة تكريمية للعريض، فنظمت الأبيات كلها في قطعة شعرية وصفية أنهيتها بهذه الأبيات:

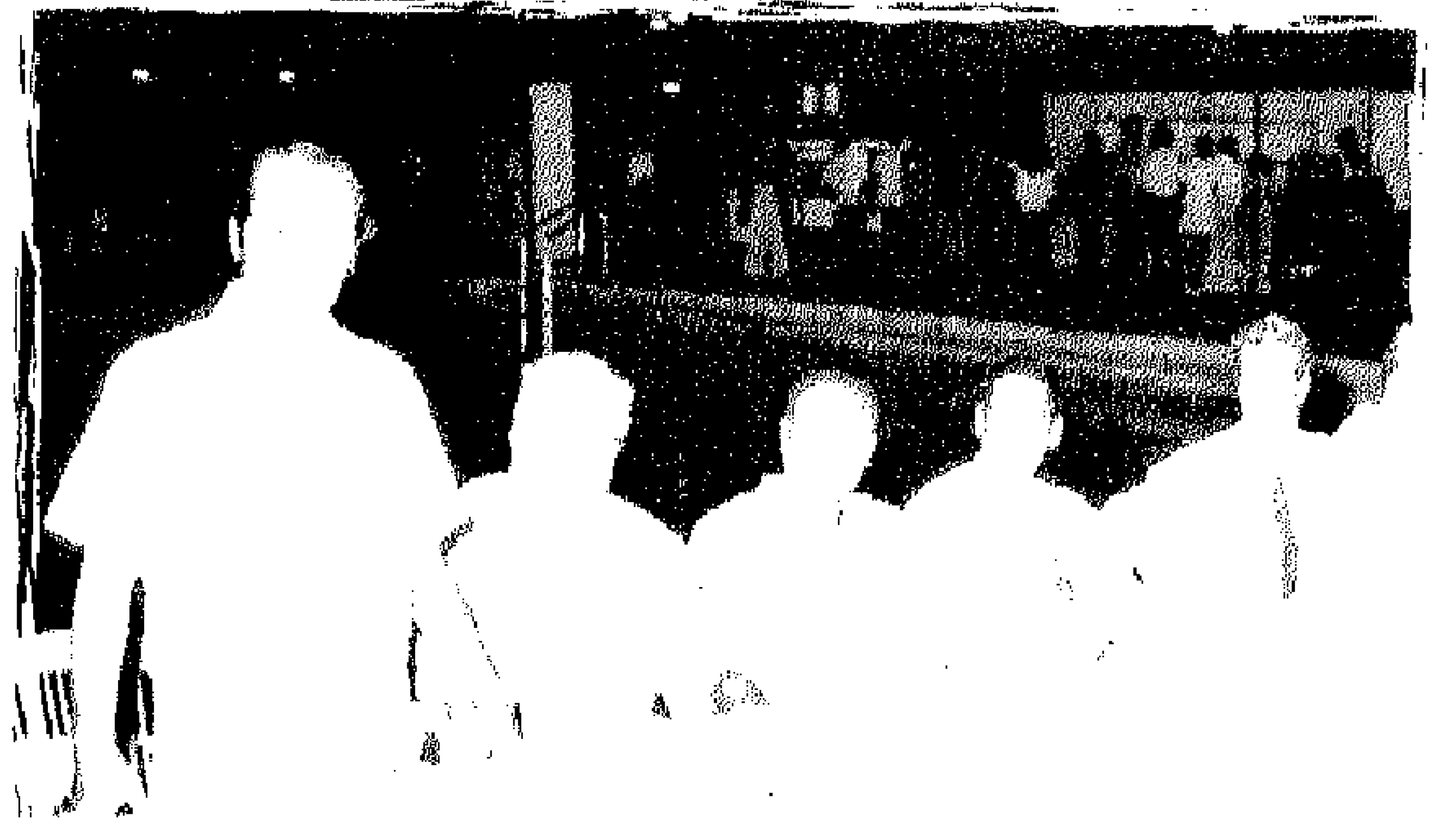
وسرعان ما عج ذاك المكان بجمع من الناس تأوى ارتكاسا
يحيون شاعرهم اذ اتى وأعرقهم في المعاني جراسا
وضج الهتاف من المعجبين يمدون كفا، ويحنون راسا
فيا بشرهم اذ اتى نحوهم فعانق ناسا، وحيا اناسا
وحط على برده بلبل فصاح به- زاجرا- لا مساسا!
هجرت القوافي وربلتها واحكمت من دونهن التراسا!

إن هجر العريض للشعر وابتعاده عن التأليف ربما كان من أسبابه تعب الجسم، إذ مازال العريض بحمد الله قادرا على العطاء الفكري الذي لا ينضب ويقيني انه مازالت لديه مواضيع لم تكتمل ومن بشارة ذلك انه عاكف على إعداد بحث مقارن حول رباعيات الخيام ولعله يخبئ لقرائه والمعجبين به الكثير غير ذلك، عسى أن يحالفه التوفيق ويديم الله عليه الصحة لإبرازه في المستقبل القريب بمشيئة الله وصدق المتنبي حين قال:

وإذا كانت النفوس كبارا　　　تعبت في مرامها الأجسام

وختاما أزجي تحية تقدير وإعجاب بالمبادرة الكريمة من الدكتورة سعاد الصباح التي أتاحت لي ولغيري مجال الكتابة عن الأستاذ العريض كما عرفته إنسانا وأديبا وأستاذا لجيل من الرواد.

من كتاب " أبراهيم العريض وإشعاع البحرين الثقافي" تحرير منصور سرحان، دار سعادة الصباح للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.











ثانياً: المحاضرات

* نهضتنا بين العروبة والإسلام

محاضرة بنادي الأهلي بالمنامة - ١٩٥٨م

* أمسية أدبية

محاضرة بنادي العروبة - ١٩٨٩م

* حكايات منسية من أدب البحرين

محاضرة بالنادي العربي بلندن - ١٩٩٤م

* فضيلة الشيخ عبدالحسين الحلي

محاضرة في ديوان الكوفة في لندن - ١٩٩٧م



نهضتنا بين العروبة والإسلام
(محاضرة بنادي الأهلي بالمنامة - ١٩٥٨م)

نهضتنا بين العروبة والإسلام
- ١ -

بين عشرات الاتجاهات الفكرية المعاصرة ومعسكرات الرأي الموجودة اليوم في وطننا العربي، ينتصب اتجاهان كبيران يتميز كل منهما عن الاتجاهات الأخرى بصلته القوية المباشرة بحياة العرب، وثقافاتهم وتاريخهم ورسالتهم الحية. هذان الاتجاهان تكتلا في جبهتين، هما المعسكر العربي والمعسكر الإسلامي. ونحن حينما نقوم بتحديد أسس نهضتنا، على ضوء من الدراسة الواعية المستنيرة التي تستهدف قيام يقظة عربية شاملة وبناء مجتمع سليم مستوضح لأسباب وجوده، ومستوعب لمقومات رسالته الخالدة، فإننا نؤدي واجبا ثقافيا وفكريا لا غنى لنهضتنا عنه ولا مناص لمفكرينا عن معالجته ومواجهة ما يثيره من قضايا حيوية هامة.

ولعل أول سؤال يعترضنا ونحن بصدد البدء في تناول هذا الموضوع الخطير من مختلف نواحيه هو: هل هناك فارق جوهري بين الثقافة العربية والثقافة الإسلامية منهجا وهدفا، وهل من الممكن حقا قيام معسكرين مستقلين على أساس الفصل بين العروبة والإسلام؟ هذا السؤال هو ما سأحاول الإجابة عليه في هذا البحث، وقد رأيت ان أؤجل الجواب ريثما يتسنى لنا ان نبدأ باستعراض عناصر هذه المشكلة من حيث نشأتها التاريخية، ومن حيث اختلاف وجهات النظر فيها.

نظرة تاريخية :

إذا ما تركنا جانبا العوامل التاريخية الموغلة في القدم والتي ترجع إليها أصول تكوين الجنس العربي ومقومات نشأته البدنية والنفسية والعقلية وتأثير عوامل البيئة والمناخ والوراثة في كل ذلك، وبحثنا أصول هذه القضية وعوامل تكوينها المباشرة فإننا نرجع بطبيعة الحال إلى بدء ظهور الإسلام في بلاد العرب وانتشار الدعوة الإسلامية فيها. ففي هذه الفترة بالذات انقسم العرب، ربما لأول مرة في تاريخهم، على صعيد عقائدي، إلى معسكرين منفصلين، هما: عرب الجاهلية، وعرب الإسلام. وليس معنى هذا ان العرب لم يعرفوا في تاريخهم الطويل قبل الإسلام دينا أو عقيدة انقسموا من حولها، فالتاريخ يؤيد ان العرب قد عرفوا عقيدة التوحيد منذ أقدم عصورهم وقد حملوا هذه العقيدة مع ما حملوه في موجاتهم التاريخية المتعاقبة التي استقرت على حدود

شبه الجزيرة العربية فكونت عددا من الحضارات كالحضارة اليمنية، والفينيقية والبابلية وغيرها مما هو معروف في التاريخ. والقرآن الكريم يشير إلى ان العرب كانوا على إبراهيم الخليل، وهو دين الفطرة أو دين الحنيفية الذي كان عليه معظم العرب. وما دين الإسلام – كما يشير القرآن الكريم – إلا امتداد لرسالة إبراهيم الخليل عليه السلام، فهو الذي سمى العرب بـ .. (مسلمة) ... (**ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا امة مسلمة لك**) – البقرة -، وفي آية أخرى (**هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس**) – سورة الحج -.

وإلى جانب دين إبراهيم، طرأت على العرب أديان أخرى كاليهودية والمسيحية كما ان الوثنية قدر لها ان تداخل حياتهم بفعل اختلاطهم بالأمم المجاورة حتى استشرى أمرها قبيل البعثة النبوية ومع ذلك فإن هذه الوثنية، التي استكان لها معظم العرب قبل الإسلام لم تحل بينهم وبين معرفة الله تمشيا مع ما تقتضيه فطرتهم العربية وطبيعة حياتهم فكانت عبادة الأصنام كما وصفها الله عز وجل على لسانهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى).

- ٢ -

إنما تطرقنا إلى تاريخ العرب قبل الإسلام وما عرفوا خلاله من عقائد واديان لنستخلص ظاهرة واحدة تتصل بموضوعنا .. هذه الظاهرة هي ان التيارات العقائدية والفكرية هذه لم يقدر لها ان تقسم العرب قبل الإسلام إلى شطرين متباينين على صعيد عقائدي، كما كانت الحال حينما جاء الإسلام وانقسم العرب من حوله انقساما تاما إلى عرب مسلمين وعرب مشركين بينهما خط فاصل، وفيما قبل ذلك عاش العرب، على ما نعلم، عربا في نطاق أفعالهم وأقوالهم ومقولاتهم وصلة بعضهم ببعض في الاحساب والأنساب، رغم ما كان بينهم من تباين في الاتجاه الديني، اللهم ألا بقدر ما كان هذا الخلاف يتعلق بعدد من لهجات العرب وعاداتهم في نطاق إقليمي. بل لقد عرف العرب في أنحاء الجزيرة العربية عددا من المناسبات خرجوا فيها من نطاق القبلية إلى مجال عربي أوسع، وكان ذلك غالبا في الظروف التي رافقها تهديد خارجي مباشر كما حدث مثلا في موقعة ذي قار. وقبل ان نتجاوز هذه الظاهرة الفريدة لابد وان نستخلص في ضوئها عددا من الحقائق لها صلتها بهذا البحث :

وأولى هذه الحقائق، ان ظهور الإسلام جعل للعروبة مفهوما خاصا ما اكتفى من الدين الإسلامي بكونه مجرد شعار رمزي، أو ظاهرة روحية تمس جانبا من حياة الفرد العربي وإنما كان عنصرا أساسيا في علاقة العربي بأخيه. ولقد قام هذا المفهوم على أساس مزدوج يعكس جانب منه انصهار العروبة بالإسلام، وليس أدل على ذلك من المعارك التي دارت من غير هوادة بين العربي المسلم وبين العربي المشرك دون ان يكون لروابط

دون ان يكون لروابط النسب واللغة والأرض والتاريخ أدنى اعتبار. فالوحدة العربية التي تمت في صدر الإسلام والتي أشاد بها القرآن الكريم بقوله (**لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما الفت بينهم ولكن الله الف**)

لقد كان الصراع الفكري بين مفهوم العروبة الجاهلي، ومفهومها الإسلامي مريرا وقاسيا، أدى إلى حرب طاحنة انتهت بانتصار الجانب الإسلامي، وتاريخ هذا الصراع وأثره في النفوس، وما رافقته من أحداث ملئ بالعبر. من ذلك مثلا ان عمرو بن العاص كان من غلاة العرب المتحمسين في مقاومة الدعوة الإسلامية، وقد تطوع في سبيل ذلك ان يذهب بصحبة عبدالله بن أبي ربيعة إلى النجاشي ضد جعفر بن عم النبي (ص)، وكان مما قالاه (**أيها الملك انه قد ضم إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم على آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إلينا**). ان عمرو بن العاص الذي يؤلب نجاشي الحبشة على إخوانه العرب للإيقاع بهم قبل ان يسلم هو نفسه الذي فتح مصر بعد ان اسلم.

أما الحقيقة الثانية التي نستخلصها من تاريخ هذه الفترة فهي ان تقبل العرب للمفهوم الإسلامي لم يأت اعتباطا أو مجرد مصادفة، وإنما جاء ناتجا عن عاملين: الأول استعداد العرب بطبيعتهم للإسلام، والثاني توفر عناصر عربية حية جاء بها الإسلام واستطاع بواسطتها ان يمزج بين المفهوم العربي والمفهوم الإسلامي بصورة دقيقة بحيث يتقبلها كل عربي سليم الفطرة، ويجد فيها مجالا واسعا لتحقيق صفاته العربية الأصيلة التي مازال يعتز بها. أما استعداد العرب للإسلام فتدل عليه شواهد كثيرة لا مجال لحصرها هنا، منها اصطفاء الله العرب دون غيرهم لتأدية رسالة الإسلام، والله اعلم حيث يجعل رسالته، ومنها كون التوحيد الذي جاء به الإسلام هو دين الفطرة وانه قد عرفه العرب من قبل كما تؤكده آيات القرآن الشريفة .... (**أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آبائهم الأولين، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ...**).

أما العناصر العربية الحية التي توفرت في الإسلام فكثيرة نذكر منها: ١ – نزول القرآن بلغة العرب وان الله بعث محمداً من العرب. ٢ – عروبة الإسلام لغة وحكما وبيانا، (**إنا أنزلناه قرآنا عربيا .. وكذلك أنزلناه حكما عربيا .. ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين**) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن .. ٣ – ومن الشواهد على توفر عناصر عربية معينة في الإسلام ان الرسول (ص) إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق الإسلامية ما هي في مجموعها إلا مكارم عربية صقلها الإسلام ووجهها على نحو يوسع من مدلولها الإنساني ويبعدها عن الإسراف المفرط والتعصب المتطرف. فالشجاعة والكرم والصفح عن الإساءة وكظم الغيظ وإغاثة الملهوف وجميع هذه الصفات الخلقية تحولت بالإسلام من مزايا فردية عند العرب إلى مبادئ عامة، ولم يزد الإسلام عليها إلا من حيث الصقل والتهذيب.

كما ان الإسلام ساهم في القضاء مبرما على عدد من العادات الذميمة التي كانت عند العرب والتي لم يخف عقلاؤهم استنكارها كوأد البنات، والإسراف في القتل بالظنة وغير ذلك.

والحقيقة الثالثة التي تواجهنا في هذا المجال هي ان العبقرية التي تفجرت عنها الامكانات الواسعة للمجتمع الإسلامي في جميع الحقول عبقرية عربية في البدء. وقد فسح الإسلام المجال للأمم الأخرى غير العربية ان تشارك في مجهودها من هذا التراث بعد ان فرض عليها ان تتعرب لغة وثقافة وتفكيرا. فالإسلام أشاع بهذا المعنى ثقافة عربية إسلامية مشتركة بين معتنقيه على اختلاف أجناسهم.

- ٣ -

والآن بعد هذه الوقفة القصيرة، نترك هذه الحقبة الحيوية من تاريخ العرب لننتقل عبر مراحل التاريخ الأخرى، نتتبع مصادر القضية العربية الإسلامية تاركين فرصة الرجوع إلى هذه المبادئ التي استخلصناها منذ برهة إلى محلها المقبل من هذا البحث.

في أواخر عهد الخلفاء الراشدين نقف عند ظاهرتين طرأتا على المجتمع العربي الإسلامي وكان لهما اثر كبير في تطوير الأحداث آنذاك. الأولى — شيوع مظاهر الترف والتحلل الذي أصاب العرب نتيجة لتدفق الثروات وتسرب مظاهر الأبهة والملك، والثانية — دخول الأمم غير العربية في الإسلام. فتدفق الثروات أثار في المجتمع العربي الإسلامي مشكلة التوزيع والعدالة الاجتماعية. ودخول العناصر غير العربية في الإسلام بدأ يهدد السليقة العربية بالتبلد والعجمة وما يتبع ذلك من تأثير على المفهوم الإسلامي بين حدين اولهما غموض النصوص وحداثة العهد بالتفكير الإسلامي وثانيهما خطر العقلية الوثنية والتقاليد القومية لهذه الشعوب التي غلبها الإسلام. وقد شعر الخلفاء الراشدون بخطر هذين الطوفانين، وتسجل هذه الفترة المحاولات الجبارة التي بذلها الخلفاء الراشدون للتغلب على هذين الخطرين بما انتهجوه من سياسة حكيمة عادلة وتطبيق لمبادئ العدالة الاجتماعية، وكان مما أوصى به الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) بهذا الخصوص قوله لعماله موصيا بعرب البادية (**وأوصيك بأهل البادية خيرا، فإنهم اصل العرب ومادة الإسلام**) أما حرصه على تحقيق العدالة الاجتماعية فمما يدل عليه قوله في آخر أيام حياته (**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء**).

ولكن السيل ظل جارفا وجاء حكم الأمويين فكان من أولى النكسات الخطيرة للمفاهيم العربية الإسلامية. فالعروبة الخلقية التي وجدت تعبيرا صادقا في ظل الإسلام أصبحت في عهد الأمويين — عروبة تقوم

على التعصب للنسب والوراثة. كما انحرف ميزان توزيع الثروة ومفهوم العدالة الاجتماعية انحرافا خطيرا. وتغير نظام الإسلام السياسي والشوري إلى الملكية الوراثية. وقد ساعد انغماس الفئة الحاكمة في الترف وجمع الثروات إلى بدء تكون عدد من عناصر النكسة في الحكم العربي التي عاناها المجتمع منذ ذلك الوقت والتي قدر لها أن تستكمل أسبابها في أواخر العصر العباسي بإقصاء العنصر العربي عن مجال النفوذ والحكم حيث انتهت الخلافة بعد صراع طويل،إلى أيدي العثمانيين الأتراك.

لقد وجدت الحركة الشعوبية المعادية للعرب والخارجة على المفهوم الإسلامي مرتعا خصبا لبذر سمومها وذلك نتيجة لرد الفعل الذي أحدثه خروج عدد من الحكومات العربية الإسلامية عن قاعدة العدالة والحرية والتسامح التي جاء بها الإسلام، ويعتبر قيام الدولة العباسية أول انتصار للعناصر غير العربية، وبزوال الحكم العباسي انتقل تراث الحكم الإسلامي وما تبعه من تركة ضخمة إلى الأمم الإسلامية الأخرى من غير العرب. بعد أن تخلى العرب عن آخر معاقل نفوذهم وانكمشوا في زاوية من زوايا التاريخ. وهنا مر العالم الإسلامي بتجربة أخرى تقابل تجربة العرب الأولى بالإسلام ولكن في اتجاه مضاد.

فالتجربة الأولى كانت تجربة عربية، مادتها العرب، وقوامها وعي العرب وإيمانهم واستعدادهم للتضحية والجهاد، أما التجربة الثانية فقد كانت إسلامية غير عربية حمل العثمانيون الأتراك لواءها ومن ورائهم خليط من أمم الأرض التي دانت بالإسلام في وقت استكان فيه العرب إلى رقاد عميق ... ونود أن لا نتجاوز هذه المرحلة قبل أن نستخلص عددا من الحقائق المتصلة بموضوعنا :

١- كان زوال النفوذ العربي إيذانا بزوال نفوذ المسلمين كأمة متحدة ذات اثر ايجابي في توجيه العالم وتطويره.

٢- كانت الدعوة الإسلامية بالنسبة للحركات غير العربية مجرد شعار يخفي وراءه تنازعا ضاريا لنيل السلطة والحكم.

٣- كانت الرغبة في التخلص من النفوذ العربي وتقويض الأسس العربية التي قامت على دعائمها نهضة الإسلام، هي الدافع الحقيقي لمعظم الدعوات التي سادت هذه العصور والتي قدر لها أن تتسلم زمام السلطة وتعمل ما وسعها على تشويه تاريخ العرب ونضالهم ومسخ المقومات العربية الأصيلة في المجتمع.

٤- تخلى العرب عن تعهد الحركة العلمية والفكرية والتشريعية في العالم الإسلامي في ظل الآنفة الذكر كان ذا اثر بالغ السوء أدى إلى جمود التشريع الإسلامي وتحجره وتخلفه عن اللحاق بركب الزمن.

٥- فساد الحكم باسم الإسلام وسوء تطبيق مبادئه وما نجم عن هذا من فوضى دينية وتسخير الدين في سبيل خدمة المآرب الشخصية والصراع الطائفي كل ذلك أحدث رد فعل خطير في نفوس النشئ العربي أشاع فيما أشاع موجة من الكره والاستياء والحذر من الأوضاع الإسلامية القائمة.

٦- لم تستطيع العواصف الشعوبية العنيفة وطوفان الأهواء التي مزقت الوطن العربي ومسخت تاريخه لم تستطيع جميعها القضاء على الروح العربية التي كانت تتوق للوحدة والتحرر وجمع الصفوف، فبقيت جذوتها مشتعلة في نفوس العرب تنتظر الظرف المناسب لانبعاثها من جديد.

٧- استطاع الحكم العثماني على مساوئه أن يضع حاجزاً جباراً على جنبات الغرب حالت بينه وبين التوسع الاستعماري والصليبي على حساب الوطن العربي والإسلامي في آن واحد.

- ٤ -

على مثل هذه الحالة من الفوضى السياسية والاجتماعية والدينية والأخلاقية، فاجأت العرب أنوار الحضارة الغربية الساطعة في أوائل العصر الحديث، ولم يكن واقع العرب، من جميع الوجوه بما في ذلك واقعهم السياسي الذي فرض عليهم تبعية مطلقة لسلطة غريبة عنهم تحكمهم باسم (الخلافة الإسلامية) بعد إن تجردت هذه الخلافة من كل معانيها القومية، ولم يكن في هذا الواقع ما يسمح لهم بمقابلة التحدي الذي واجههم به العصر الحديث. وإذا كانت مقاومة الغزو دون الاستسلام أمرا حتميا وطبيعيا فقد وجدت حركة المقاومة العربية للتحدي الأجنبي الصارخ مجالا لتنظيم سياسي اتخذ عددا من الصور والأساليب في فترات متعددة من تاريخ الأمة العربية الحديثة، حتى استطاع العرب أن ينتهوا إلى المرحلة التي وصلوا إليها اليوم، إذ تمكنت الأمة العربية أن تحقق خلالها عددا من الصفات اللازمة لإثبات وجودها كأمة ذات سيادة وذات وزن دولي وهنا أيضا لابد لنا أن نقف قليلا لنستعرض أسس القضية العربية الإسلامية والشكل الذي اتخذته في مرحلة نضال العرب الحديث...

إن أول ما يمكننا ملاحظته هو ان بوادر المقاومة العربية بدأت أول ما بدأت في أواخر الحكم التركي باتجاه إسلامي بحت، وانتهت اليوم باتجاه يوشك أن يكون قوميا بحتا. الاتجاه الأول كان طبيعيا في وقت كان العرب فيه يدينون بالتبعية للحكم العثماني ويواجهون تحديا غربيا ممزوجا بالتبشير الديني. وكان هذا الاتجاه مبنيا في الأصل على أساس ان النقص الذي يعانيه المسلمون يمكن أن يتلافى عن طريق تجديد بعض المفاهيم الإسلامية المندثرة، وإلهاب الحماس الديني في أرجاء المجتمع الإسلامي لمقاومة القوة الغازية. وكان الأمل في

إن يهب العالم الإسلامي كله من رقاده ويستعيد مجده وماضيه. وهكذا نشطت هذه الدعاية على يد طائفة من الدعاة الإسلاميين كالأفغاني والكواكبي ومحمد عبده. وعقدت المؤتمرات الدورية التي أقيمت في مواسم الحج آنذاك. ولم يقدر لهذا الاتجاه القائم على الدعوة لجامعة إسلامية عامة أن ينجح بالطبع فقد كانت تعوزه العوامل المهمة القائمة على تفهم أكثر عمقا لأسرار النكسة الإسلامية من جهة وتخطيط أكثر شمولا ووضوحا للعوامل التي تحول بين العرب وبين اجتماع شملهم واستعادة القيم الروحية التي أضاعوها.

وبالإضافة إلى النقص من الوجهة الإسلامية الذي اصطبغت به الدعوة الإسلامية المنبعثة من أرجاء المجتمع العربي، فقد كانت هذه الدعوة فاقدة لأسباب الفتوة والقوة والتطور مع الزمن وهي العوامل التي امتاز بها وضع العالم الغربي في حملاته العدوانية المتكررة على الديار الإسلامية والوطن العربي. ثم تمضي التجربة العربية الحديثة مترنحة في نهضتها بين الاتجاه الإسلامي والعربي كما يصوره لنا الشيخ عبدالله العلايلي، في كتابه دستور العرب القومي حيث يقول :

((لم يكن الفرق قبل الحرب العالمية في سنة ١٩١٤ بين القضية الإسلامية والقضية العربية إلا على وجه طفيف يتصل ببعض العنعنات، هذا الفرق الذي اتخذ درجة الوضوح التام بعد الحرب بأمد غير قصير أيضا، وأسبابه في نظري ترجع إلى :

١. الاستعمار الأوربي المشفوع بالتبشير الديني أثار المشاعر وملا النفوس رغبة حادة بشيء جديد، وبتحدب الاستعمار على بلاد العرب في مصر والجزائر تحدد هذا الشيء الجديد نوعا من التحديد فأصبح إسلاميا عربيا بعد ان كان إسلاميا فحسب. وبسبب وجود الدولة الإسلامية المركزية الماثلة في الدولة العلية صار هذا الشئ الجديد إسلاميا عربيا يدور على قطبها (أي قطب الدولة العلية).

٢. حركات البلقان الاستقلالية وعجز الدولة العلية عن إخمادها جعل العرب يفكرون في مستقبلهم حيث لم تعد الدولة العثمانية ضمانا كافيا له، ورؤية أمير عربي عجزت الدولة عن دفع الخطر عن بلاده وهو الأمير عبدالقادر الجزائري بينهم قلل ثقة العرب بالدولة العلية وجسم أمامهم خطر المستقبل فرغبوا بان يحفظوا قواهم في حدود بلادهم)).

ويضرب لنا الشيخ العلايلي مثلا على ذلك في أثناء الحرب الطرابلسية حيث دعا العرب إلى عمارة كل قطر وإعداده للدفاع عن نفسه وتشكلت الأحزاب العربية كحزب اللامركزية القاهري برئاسة رفيق بك العظم، وجمعية الإصلاح البيروتية، والمنتدى الأدبي وجمعية البصرة الإصلاحية برئاسة طالب بك النقيب، ففكر العرب

في اللامركزية وصاغوا فكرتها صوغا محكما بشكل نظرية يبشرون بها في الوسط العربي على إنها اقتراح لشكل الدولة. وبذلك أصبح هذا الشيء الجديد إسلاميا عربيا يدور على قطب نفسه في صلة رمزية بالدولة العلية.

٣. رغبة الشباب التركي بالانقلاب وإزالة هيكل الحكم القديم الذي باد جعلت آمال العرب تقوى في أنهم، لابد، فائزون بشيء من التشكيلات الجديدة، فأيدوا جمعية الاتحاد والترقي وساهموا في الانقلاب بقوتهم. ولكن انكشف الليل عن انتكاسة مختلفة من جانب الترك جعل العرب يلمسون خطة تآمر رهيبة سوف تنتهي بتحطيم كيانهم فانطلقوا يبشرون بالانفصال ولو أدى إلى العنف، أضف إلى هذا الشعور بالضغط والاضطهاد وصراع أمير اليمن في قسوة وبمادة عربية تقريبا، وكان للاحتكاك بين العرب في الصراع ما قذف في أفئدة العرب وعيا جعل هذا الشيء الجديد إسلاميا عربيا فقط ... أي لم تعد له صلة بالدولة العلية.

٤. اتصال العرب بالثقافة الأوربية واعتناقهم للنزعة القومية الجديدة في أوربا وتشبعهم بفلسفتها جعلهم يزودون الحركة بسلاح جديد نشط الأقليات الدينية الأخرى للمساهمة في الحركة التحريرية العربية فأصبح هذا الشيء الجديد عربيا يدور على نفسه مع صلة رمزية بالإسلام.

٥. اتصال العرب السياسي بأوروبا بعد الانتداب وانتقال الحركة القومية إلى حركات إقليمية بما تسرب من إغفال سياسي جعل هذا الشيء الجديد ((عربيا)) يدور على قطب القومية العربية فقط.

ولي على ما أوردته من كلام الشيخ العلايلي ملاحظات أدونها فيما يلي :

١. ان الانفصال الذي تم على مراحله الأنفة الذكر بين الدعوة العربية والإسلامية، إنما جاء استجابة لظروف وملابسات خاصة في مرحلة معينة من مراحل الوعي والتحرير العربي، وهذا لا صلة له مطلقا بزعم إخفاق الشعور الإسلامي كوسيلة فعالة لدعم الحركة العربية التحررية. ان الشعور الإسلامي الصادق كان وما يزال عاملا مهما لاستثارة عوامل النضال والتحرر بين الجماهير العربية، والحركة الاستقلالية في مصر وسوريا والعراق والمغرب العربي وأرجاء متعددة من الوطن العربي توضح لنا قوة شعلة الجهاد والتضحية التي قدح الإسلام زنادها في النفس العربية الأولى ولازالت جذوتها باقية إلى اليوم. لقد وحد الإسلام نضال الشعب الجزائري، أما في هذا الجزء من وطننا العربي فقد رأينا ولمسنا ما كان لكلمة (الله اكبر) وهي شعار الجهاد الإسلامي من اثر سحري في نفوس الجماهير التي حاربت في معركة بور سعيد وهي أحدث مراحل الصراع العربي.

٢. ان سعي العرب لتحقيق اتحادهم وحريتهم واستقلالهم كان يتطلب منهم دخول الوحدة من اقرب أبوابها وأسهل طرقها، فكان البدء باختيار اتجاه عربي وليس من المعقول ان يستطيع العرب القيام بعملية تجديد البناء الإسلامي وتراثه الضخم بما يتطلبه من مشقة وجهد، في الوقت الذي يفتقر فيه العرب إلى مقومات وجودهم كأمة. يقول الأستاذ ساطع الحصري: (ان تحقيق الوحدة العربية أسهل بكثير من الوحدة الإسلامية، وفكرة الوحدة الإسلامية أوسع واشمل من مفهوم الوحدة العربية، غير انه ليس من الممكن ان نقول بالوحدة الإسلامية دون ان نقول بالوحدة العربية).

- 0 -

كتفي بهذا القدر من استعراض القضية العربية الإسلامية من وجهتها التاريخية لننتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل البحث نتناول فيها تحليل آراء القوميين والإسلاميين من زاوية كل منهم الخاصة. ولا بأس ان نبدأ أولا بوجهة النظر القومية :

أولا - مفهوم القومية وأركانها: لم يتفق دعاة القومية على تحديد دقيق لمفهوم (القومية العربية) فمنهم من يحدد القومية العربية بأنها شعور العرب بوجودهم الاجتماعي شعورا ذاتيا لا موضوعيا بحيث يلازمهم خيال الجماعة العربية كمركب نفسي وحيوي ملازمة وجدانية بالغة وفي جبر غريزي ... ومنهم من اكتفى من هذا الشعور المتناهي في العمق إلى مجرد توفر (الشعور الجامع للأمة العربية التي تسكن الوطن العربي) بحدوده كما ذهب إلى ذلك الدكتور منيف الرزاز. أما أركان القومية فلازالت بدورها موضع تضارب شديد من ناحية وغموض غريب من ناحية أخرى، على حد تعبير الأستاذ ساطع الحصري.

يقول الدكتور منيف الرزاز: ان من أصعب الأمور وأشقها ان تحدد تماما أركان أية قومية، فاللغة وحدها لا تصلح ان تكون ركنا من أركان القومية، وكذلك الدين والبيئة والجغرافية والتاريخ والمصالح المشتركة لا يصلح كل منهم أساسا للقومية.. ثم يجيب الدكتور منيف الرزاز على السؤال (مم تتكون القومية العربية) بقوله: الحقيقة ان القومية لا تحدد بأي عامل من هذه العوامل وإنما تحدد بشعور مجموعة من الناس بأنهم أبناء قومية واحدة، وهؤلاء قد تجمعهم هذه العوامل التي ذكرناها، وغيرها جميعها أو بعضها، وقد لا يجمعهم إلا القليل، ولكن العامل الأساسي الأوحد الذي يفوق كل هذه العوامل قوة ومتانة وهو شعور أبناء الأمة بأنهم أبناء امة واحدة، فإذا اضعف هذا الشعور فلن ينفع القومية اجتماع كل أركانها، وإذا قوي هذا الشعور ما ضرها ان لا تشترك

إلا في أسباب قليلة جدا، من أسباب القومية الموحدة. وكذلك اختلفت الآراء في تعريف (من هو العربي) وفي ذلك يقول الأستاذ ساطع الحصري مشيرا إلى التبلبل في تحديد مفهوم العرب والعروبة (فهناك من يقول ان العربي هو الذي يتكلم العربية، ومن يقول هو من يريد ان يكون عربيا، ومن يقول هو من يفخر بالعروبة. على ان الاتجاه الغالب في تعريب العربي هو من كانت لغته العربية وعاش في الأرض العربية أو تطلع إلى الحياة فيها، وآمن بانتسابه إلى الأمة العربية.

وكذلك اختلف في حدود الوطن العربي كما اختلف في النظرة إلى البقاع التي اغتصبت خلال أزمنة التاريخ كالأندلس مثلا، مما حدا ببعض القوميين ان يشرك في صفة الوطن العربي ضرورة الدفاع عن الكيان فأضيف إلى تعريب الوطن العربي بأنه كل بقعة أصبحت ضرورية للدفاع عن كيان العرب.

ولا داعي لان نسترسل في استعراض الآراء حول هذه الموضوعات ولكنا نشير إلى ظاهرتين: الأولى، انه ليس لمفهوم القومية من الأسس الواضحة المخططة ما هو أكثر وضوحا من عنصر اللغة والوطن، أما باقي الصفات كالأيمان بالانتساب للأمة العربية أو التطلع إلى الحياة العربية فلا تزال غامضة وليس باستطاعة احد ان يفرق بها بين العربي وغير العربي أو يصدر حكما دقيقا على مقادير تأثر كل منهما بهذه العوامل. والملاحظة الثانية هو خلو هذه التحديدات من الإشارة إلى (عروبة الخلق) وهي العنصر الأساسي الذي كان يتمايز به العرب فيما بينهم والذي كان له الفضل الأول في ان تكتسب كلمة العروبة خصائص خلقية معينة. وقد أشار إلى هذا المعنى الأستاذ عبداللطيف شرارة بقوله: (الواقع الذي لا واقع غيره هو ان هناك عروبة كما ان هناك إسلاما أو كما ان هناك نصرانية وبوذية، أي ان العروبة عقيدة لها مبادؤها وشرائعها التي تعكس عن الروح العربية الأولى وتمثلها تمثيلا صادقا صحيحا. ثم توجه في ذات الوقت سلوك العربي والمستغرب على السواء وتدفع بهما نحو مثل عليا قويمة ثابتة. ويستشهد الأستاذ عبداللطيف شرارة لإعطاء العروبة معنى خلقيا خاصا، من جملة ما يستشهد به، قول الإمام الحسين بن علي لجند يزيد: (**ان لم يكن لكم وازع من دين وكنتم لا تخشون المعاد، فارجعوا إلى أنسابكم واحسابكم ان كنتم عربا كما تزعمون**).

ثانيا – الصفات القومية: تنص الدساتير القومية على عدد من صفات الأمة العربية، وهذه الصفات لا تخلو بدورها من لبس وغموض ... يقول دستور ((البعث العربي)) (الأمة العربية وحدة روحية ثقافية وجميع الفوارق بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي). وتصف مادة أخرى

الرابطة القومية بأنها الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية.فهل تعتبر رابطة الإسلام بين العرب على هذا الأساس رابطة عرضية زائفة؟ وهل يفهم من ذلك ان ليس من حق العربي المسلم ان يستشعر رابطة روحية خاصة مع أخيه المسلم؟.... تحدد مادة أخرى رسالة الأمة العربية بان (الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بإشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ وترمي إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم ....)وهذه أوصاف عامة تحتاج إلى توضيح على ضوء حقائق ذات صبغة أصلية في تاريخ العرب وليست مفترضة افتراضا.

يشرح الكتاب القوميون هذه الرسالة الخالدة للأمة العربية بقولهم إنها كانت منذ أربعة عشر قرنا تتمثل في الإسلام. أما اليوم فإنها كما يعبر الدكتور منيف الرزاز، (تبعث من جديد برسالة مستمدة من حقيقة وجودها كأمة عربية ومن تاريخها الذي جبل مع طبيعتها، ومن كونها حملت رسالة في الماضي وستحمل رسالة في المستقبل ....) ما هي إذن هذه الرسالة الجديدة، وأين شريعتها التي جاءت على أنقاض رسالة الإسلام، والتي أصبحت لا تصلح اليوم لنهضة العرب، كيف ومتى وضعت أساسها، ومن الذي يملك ان يسبغ على هذه الرسالة الجديدة صفة كونها دون غيرها رسالة الأمة العربية اليوم. وهل يجوز مثلا ان يختلف مدلول هذه الرسالة باختلاف الدعوات والاتجاهات القومية. وكذلك ما هو موقف هذه الرسالة المستجدة من الإسلام، هل تنسخه، أم تجاريه في اتجاهه، أم تنسجم معه أم تعارضه. وما هو موقف العربي المسلم حينما يكتشف ان هناك تعارضا بين الإسلام الذي يدين به وبين إيمانه بمبادئ قومية معينة ؟

٣- موقف القومية من الإسلام: الذي عليه اغلب الدعاة القوميين ان الإسلام كدين شيء بين الإنسان وربه، وأما كونه نظاما للدولة والمجتمع فلم يعد يصلح لهذه الصفة. ويرى القوميون ان الإسلام لبى حاجة العرب في زمان معين ومكان خاص، وقد اختلف الزمان وتغير المكان فلا يجوز ان نحبس الطاقة العربية في عقائد ونظم لا تلائم العصر وان لاءمت حياة العرب الأولى. ومفهوم الدعوة الإسلامية سواء من الوجهة الروحية الصرفة أو الاجتماعية، يختلف عند عدد من القوميين شدة وضعفا، فمن هؤلاء من يدخلها ضمن مجموعة دعوات رجعية تمثل المبادئ والأفكار المتهرئة التي لفظتها الحياة الحديثة على حد تعبير الأستاذ نديم البيطار، الذي يعتبر الإرادة القومية هي وحدها شريعة الحق والحقيقة التي يجب ان تحكم الحياة العربية. وتبعا لهذا المفهوم الذي يجعل الإرادة القومية فوق كل اعتبار آخر يواصل الأستاذ البيطار قوله

الجامعة العربية سوف تخلد إلى الأبد، وبها يجب ان يرتبط العربي بطاعة عمياء وولاء لا يسال ولا يستفهم، يؤمن إيمانا عميقا بتفوق امتنا على كل امة، فكل شيء فيها سام وجميل وفي كل عمل من أعمالها وكل نتاج من انتاجها كل الخير وكل الحق فالأمة آلة! نوجه إليه عبادتنا ونحن القوميين نحبها، نعبدها، وفي عبادتها نجد كل قوة وسمو، فهي وحدها التي تجعل ينبوعا حياً من الخير والحق والجمال ينبع من أنفسنا ....). وتمشيا مع هذا الشعور الذي يجرد القومية من كل رقابة روحية خارجة عن نطاقها استعمل عدد من القوميين تعبير (الدين الجديد المنبعث) كما كتب احدهم في إحدى مجلاتنا المحلية، في وصف القومية العربية. إلا أن هناك من الكتاب القوميين من يقر بان الدين الإسلامي يشكل ركنا من أركان القومية العربية المهمة رغم ان الدين لا يمكن ان يحدد القوميات. وهذا ما ذهب إليه الدكتور الرزاز على أساس ان الإسلام لم يكن دينا فحسب بل كان تاريخا وحضارة وحياة عقلية وان الإسلام قد أدى إلى توحيد العرب جميعا مسلمين ومسيحيين في إطار فكري معيشي واحد. ويوضح الأستاذ ميشيل عفلق هذا الرأي بقوله: (**البعث العربي حركة قومية توجه إلى العرب كافة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وتنظر إلى الأديان نظرة مساواة في التقديس والاحترام ولكنها ترى إلى جانب ذلك في الإسلام ناحية قومية لها مكانتها الخطيرة في تكوين التاريخ العربي والقومية العربية وتعتبر هذه الناحية ذات صلة وثيقة بتراث العرب ومميزات عبقريتهم**).... وهذا المفهوم يعترف بان الإسلام هو انبعاث للإمكانيات العربية في السابق ومن حيث هو مصدر خلقي يستقى من منبعه فضائل الإيمان والمثالية، ألا انه لا يعترف بالإسلام كمصدر للقيم التي يجب ان تقوم على أساسها حركة البعث العربي ويوضح الأستاذ ميشيل عفلق ذلك في موضع آخر بقوله: (**فالقيم عند العرب في الجاهلية كانت تستمد من المجموع، والفرد مقيد بها، والقيم في الإسلام لم تعد تستمد من المجموع كما ان الفرد ليس هو الذي يفرضها، إنها تصدر من مكان هو فوق المجموع والفرد معا. أما في هذا العصر فالفرد يستمد القيمة من نفسه وهكذا لم تعد القيم فوق الفرد والمجموع معا بل أصبحت قيما فردية يخلقها كل فرد بنفسه**).

- ٦ -

تلك هي أهم الأسس التي تقوم عليها النظرة القومية فيما يتعلق بالإسلام، والآن نعود إلى الجانب الآخر لنتعرف على موقف الدعاة الإسلاميين ونظرتهم للقومية العربية.

يمكننا ان نلخص موقف المعسكر الإسلامي من الدعوات القومية في عدد من النقاط، اعتمدت في إيراد معظمها على ما قرأته لعدد من الكتاب الذين يمثلون الاتجاه الإسلامي الحاضر كالسيد قطب وسعيد رمضان وغيرهم ....

١. يؤمن دعاة الاتجاه الإسلامي بان الإسلام نظام حياة كامل يصنع الفرد المسلم الذي يحكمه الوازع العميق من صلته بالله ورقابه الله عليه، والأسرة المستقرة المتراحمة التي تقوم على آصرة الزواج المقدس والتوزيع العادل لتبعات الحياة بين الرجل والمرأة، والمجتمع المتكامل التي تنظمه معايير العدالة الاجتماعية والأخلاق الكريمة التي فرضها القرآن وبلغها النبي، والدولة القوية التي تنبثق عن اصل الشورى.

٢. ان الإسلام جمع شمل العرب وصنع مجدهم وعرب أكثر أقطارهم التي يتخذونها اليوم وطنا ودارا، وانه بعدما جحد العرب هذا الدين غافلين أو عامدين ديست أرضهم وانتكس مجدهم وتقطعت أواصرهم.

٣. الدعوة إلى الإسلام لا تغني ان ينكر على غير المسلم تمسكه بدينه، ولا يقوم في ظلها أدنى ظلم في التعامل وممارسة الحقوق والواجبات باسم الدين.

٤. ينكر الدعاة الإسلاميون أن تكون الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة عند العرب، إذ إن من حق العربي المسلم ان يستشعر رابطة خاصة تجاه أخيه المسلم بغض النظر عن جنسيته.

٥. يعتبر الاتجاه الإسلامي التعابير التي ينادي بها القوميون، أمثال (الطبيعة العربية، والمزايا الخاصة المتجلية عند العرب، أو الرسالة الخالدة، وتجديد القيم الإنسانية ...) وغيرها باعتبارها كلها تعبيرات غائمة لا تصلح أساسا لوضع نظم اجتماعية أو اقتصادية وسياسية. فالطبيعة العربية التي يستمد منها القوميون أسس النظم التي يضعونها لا تجعل للعرب طبيعة غير طبيعة الناس، ولكنها كفيلة بان تجعلهم أصلح الناس إذا صلحوا وقد تجعلهم افسد الناس إذا فسدوا. ولابد إذن من أن تخضع هذه الطبيعة لنظم وقوانين خارجه عن سلطانها كيلا ينحرف مدلولها ويفسد مفهومها... وهو ما يتوفر بالإسلام وكذلك فان المزايا الخاصة

المتجلية في نهضات العرب المتعاقبة لا تجعل للعرب رسالة خاصة متميزة عن غيرها ... والمقاييس التي تنطبق على العربي وعلى غير العربي قسمان: أحداهما قديم قدم الحياة البشرية على الأرض وهو ما أودعه الله في ذات كل إنسان من فطرة تهديه إلى الخير وتجعله مسئولا عن فعله، وثانيهما، رسالات الأنبياء ومجموع هذه الرسالات هو وحده الذي يمكن ان يقال عنه (الرسالة الخالدة) التي صحبت ركب الإنسانية في تاريخها الطويل، والتي يرجع إليها الفضل فيما بقى للناس من الفضائل والقيم.

٦. تمتاز رسالة الإسلام بعالميتها التي تستند إلى قاعدتين : الأولى : الروح الإنسانية التي تعلو على العصبيات القبلية والإقليمية والجنسية والدينية ، وتكفل بين الجميع لقاء كريما على القيم الخلقية التي اشتركت فيها الأديان جميعا.والثانية : ضوابط دينية دقيقة محدودة تنظم السلوك والمعاملات في الفرد والأسرة والمجتمع .وهي موضوعه بحيث تمسك بعنان النشاط البشري كيلا تجمح به شهوة أو نزوة وبحيث لا تقيم حاجزا أمام تقدم الفكر والعمران . فهي في نطاق المعاملات لا تعدو ان تكون دوائر عامة (اوتلاينز) ومن شأن هذه الضوابط ان تقيم أمه مضبوطة الفكر والعاطفة والسلوك ، أمينة بواقعها و بروحها الإنسانية على ضمان تطور مستمر إلى الأعلى في حياة البشر الروحية والمادية .

٧. ينكر دعاة الاتجاه الإسلامي على العرب ان يتخلوا عن رسالة القرآن أو أن يعزلوا قضاياهم عن قضايا مئات الملايين من المسلمين في الأرض و لذلك فهم يدعون إلى الجامعة الإسلامية وهم يعتبرون السياسات القائمة في العالم الإسلامي اليوم لا تمثل الإسلام ولا يمكنها أن تنطق باسمه وإنها لا تمثل جماهير المسلمين.

ذلكم هو أهم ما يتصل بآراء أصحاب الاتجاه الإسلامي فيما يختص بالدعوة القومية العربية.

- V -

يأتي دورنا الآن للإجابة على سؤال افتتحنا به هذا البحث وأرجأنا الجواب عليه إلى هذا الموضع . هل هناك حقا فارق جوهري بين الثقافة العربية والثقافة الإسلامية ومنهاج كل منهما ؟ وهل من الممكن عمليا قيام معسكرين منفصلين يعتمد كل منهما على أساس الانفصال بين العروبة والإسلام؟....

بإمكاننا أن نجيب بالنفي القاطع ، فالربط بين العروبة والإسلام أمر أثبته واقع التاريخ ، وهو محصول نستخرجه من أقوال المتناظرين في هذه المعركة بالذات : يقول الأستاذ ميشيل عفلق : **(ان حركة الإسلام المتمثلة في حياة الرسول الكريم ليست بالنسبة للعرب حادثا تاريخيا فحسب ، تفسر بالزمان**

والمكان وبالأسباب والنتائج . بل إنها لعمقها واتساعها ترتبط ارتباطا مباشرا بحياة العرب المطلقة) .... ويقول في موضع آخر: (**ان العرب ينفردون دون سائر الأمم بهذه الخاصية. ان يقظتهم اقترنت برسالة دينية . فلم يتوسعوا بغية التوسع بل ليؤدوا واجبا إلهيا كله حق وهداية ورحمة وعدل وبذل ... وما دام الارتباط وثيقا بين العروبة والإسلام وما دمنا نرى في العروبة جسما روحه الإسلام ، فلا مجال إذن للخوف من ان يشتط العرب في قوميتهم).**

فالإسلام كما يستنتج من قول الأستاذ ميشيل عفلق ضروري للحركة العربية كي تحفظ توازنها وحتى لا يشتط مفهوم القومية... و لنقارن هذا الكلام بكلام آخر لأحد أنصار الاتجاه الإسلامي ، هو الشيخ سعيد رمضان .... يقول المذكور في معرض حديثة عن القومية : (نحن عرب نعتز بلغتنا العربية وبوطننا العربي ، ونعتز باستعدادنا الخصب للانبعاث والإبداع الذي تجلى أثناء تاريخنا ، ونعتز بثروة المشاعر الحية المذخورة في كياننا ، ونعتز بوحدتنا كأمة تجمعها اللغة الواحدة والوطن الواحد والمصالح المشتركة مهما تناءت ديارنا ، وقوميتنا بهذا المفهوم السهل حقيقة لا يمكن ان نختلف عليها...) ويقول في موضع آخر .... (ان القاعدة التي نلتقي عليها نحن العرب على اختلاف آراءنا ومعتقداتنا ، هي الوحدة الصادقة في اللغة والوطن والمصالح المشتركة،وللعرب المسيحي ان يطمئن كل الاطمئنان إلى إن العربي المسلم اشد حفاظا على ذلك ، على اللغة التي هي لغة قرآنه وعلى الوطن الذي هو ميراث أهله ودينه وعلى المصالح التي سوى الإسلام فيها بين الناس .....) .

ويشير الشيخ سعيد رمضان إلى الضوابط التي تعرض لها الأستاذ ميشيل عفلق والتي جاء بها الإسلام، فيقول (إن عالمية الدعوة الإسلامية تستند فيما تستند إلى ضوابط دقيقة محدودة تنظم السلوك والمعاملات في الفرد والأسرة والمجتمع .. وهي في نطاق المعاملات لا تعدو أن تكون دوائر عامة (اوتلاينز) ومن شأن هذه الضوابط إن تقيم امة مضبوطة الفكر والعاطفة والسلوك أمينة بواقعها وبروحها الإنسانية على ضمان تطور مستمر إلى أعلاه في حياة البشر الروحية والمادية) ويقول الأستاذ ميشيل عفلق عن حقيقة ارتباط العروبة بالإسلام .. (**قوميتنا كائن حي متشابك الأعضاء وكل تشريح لجسمها وفصل بين أعضائها يهددها بالقتل، فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذن كعلاقة أي دين بأية قومية، وسوف يعرف المسيحيون العرب حينما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة، ويسترجعوا طبعهم الأصيل إن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب إن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على اثمن شيء في عروبتهم ... وإذا كان الواقع لا يزال بعيدا عن هذه الأمنية، فان على الجيل الجديد**

من المسيحيين العرب مهمة تحقيقها بجرأة وتجرد وتضحية في سبيل ذلك بالكبرياء اذ لا شيء يعدل العروبة وشرف الانتساب إليها ..).

نجد من هذه النصوص إن هناك تقاربا في المبدأ بين وجهة النظر القومية والإسلامية. والواقع إن دعاة العروبة ودعاة الإسلام يلتقون في كثير من المبادئ والنقاط حينما يجيء دور كل منهما للحديث عن الآخر في مناسبة من المناسبات العامة، ولكن الخلاف سرعان ما يتسع ويشتد حالما توضع هذه المبادئ بين أيدي الجماهير التي تؤمن بها ولكنها مع ذلك تعطيها فهما خاصا يختلف عن مدلولها الأصلي في قليل أو كثير. والذي نظنه إن لسعي كل فريق في سبيل اكتساب التأييد العاجل من الجمهور، واستثارة العواطف المتأججة، والتمشي مع متطلبات الكسب الحزبي، كل ذلك له اثر لا ينكر في توسيع شقة الخلاف. فالسياسة الحزبية لكل جانب تلعب ولاشك دورا خاصا في تشوية المفاهيم التي ينادي بها كل جانب وفقدان الثقة المتبادلة. وفيما يلي نستعرض عددا من وجوه الخلاف المستحكم بين الاتجاهين.

أولا – يقرر القوميون إن الإسلام لا يجوز مطلقا أن يتدخل في شئون السياسة والحكم، بينما يقرر دعاة الاتجاه الإسلامي من الجانب الآخر، إن الإسلام يجب أن يحكم، وهذا الحكم هو من طبيعته وأصوله المقررة .... يقول المرحوم الشيخ حسن البنا (إذا قيل لكم إلام تدعون، فقولوا ندعوا إلى الإسلام الذي جاء به محمد بن عبدالله والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه، فان قيل لكم هي سياسة فقولوا هذا الإسلام، ونحن لا نعرف هذه الأقسام ....) أما القوميون فيعللون نظرتهم بان الإسلام كدين هو مصدر روحي لا ينكر أثره الأخلاقي في المجتمع، أما الإسلام كنظام للحكم فانه لم يعد يصلح للوقت الحاضر، ولا يتمشى مع متطلبات العصر الحديث. إن في كلا الحكمين عمومية وإطلاقا يتنافى مع الصلة القائمة بين العروبة والإسلام والتي لا تسمح حتما بإصدار حكم عام ومطلق من هذا النوع.

– ٨ –

نجيب على وجهة النظر القومية بأن أحكامهم لها ثلاثة أوجه: الأول أن يكون هذا الرأي تقريرا لواقع التاريخ وهو مالا يصدق على الإسلام الذي كان طيلة عصوره دينا للفرد ونظاما للمجتمع والدولة. وإساءة تطبيق الإسلام أو سوء استغلاله لا يقوم دليلا على عدم صلاحيته، لأن كل مبدأ مهما كان ساميا ونزيها عرضة لأن يستغل أو يساء تطبيقه. والوجه الثاني أن يكون هذا الرأي مستندا إلى قواعد وأصول ليست من الإسلام، فلا تقوم

هذه النظرة إذن حجة عليه، كما إنها تفقد قيمتها الجدلية بالنسبة لمعتنقي الدين الإسلامي والمؤمنين به. أما الوجه الثالث فهو أن يكون هذا الحكم صادرا عن تفهم نزيه لمبادئ الإسلام ودراسة لأصوله المقررة، وفي هذه الحالة يترتب على من ينادي بعدم صلاحية الإسلام للحكم أن يدعم ذلك بأدلة من الإسلام نفسه وهو ما لا نعتقد إن القوميين بصدده، فلم نعهد من القوميين من قام بدراسة علمية لأصول الحكم في الإسلام وتوصل بمجهوده إلى هذا الرأي، دون أن يكون متأثرا بالعاطفة أو المصلحة الحزبية.

أما من جانب الإسلاميين، فإنهم بإصدارهم حكما قاطعا بان الإسلام يجب أن يحكم في جمع الظروف والأحوال يتجاهلون حقيقتين: الأولى ان ما يجب عمله شيء وما هو ممكن عمله شيء آخر، والإسلام لا يمكن أن يصل إلى الحكم بمجرد إن هناك (اعتقاداً) بين الناس بضرورة تحقيق ذلك دون أن تتوفر الوسيلة العملية لتحقيق هذه الخطوة. إن سيادة النظام الإسلامي عملية لا يمكن إن تتم اعتباطا وهي تتطلب توفر مقدمات معينة أهمها في شكل ثابت من أشكال الحكم والسياسة والنظام الاجتماعي، وكل ذلك غير متوفر في الوقت الحاضر بالصورة اللازمة. إننا نعترف إن في الإسلام من المرونة والخصوبة ما يجعله قابلا لتنظيم الحياة الحاضرة على الوجه الأكمل ومعالجة الأدواء التي يعج بها المجتمع الحديث، كما نعترف بقيمة الدراسات الإسلامية التي يقوم بها نفر من الشباب العربي المسلم بغية سد الثغرات في هذا النظام، ولكن هذه الدراسات لازالت بحاجة إلى التنظيم، وتوحيد وجهة نظر المسلمين من حولها. ولا باس إن نستعرض هنا بعض الأمثلة على الاختلاف بين وجهات النظر الإسلامية حول عدد من المبادئ: في السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع وغيرها ...

١. تقوم نظرة الإسلام السياسية للحكم على أساس الشورى، والشورى نظام له مزاياه التي ينفرد بها الإسلام فهو من وجهة اعتراف بمبدأ إشراك الأمة في إدارة شؤونها، ولكنه لا يضع زمام الأمر بيد الأغلبية العددية كما هو شأن النظم الديمقراطية القائمة. فقد يكون الحق في مفهوم الإسلام بجانب القلة المؤمنة الواعية، ورأي الأغلبية هو الراجح في الإسلام إذا كان متمشيا مع الحق والمبدأ، ولذلك لا مجال في نظرة الإسلام للدعايات والحملات الحزبية التي تنظر إلى المواطنين باعتبارهم مجموعة من الأصوات الانتخابية. فكيف يكون وضع نظام الشورى اليوم وما هي صفة تطبيقه المقترحة حتى يمكن أن تقاس بالنسبة لأنظمة الحكم الأخرى، المطبقة اليوم؟ وكذلك كيف يمكن للأمة أن تنظم رقابتها على مجلس الشورى، وكيف تحدد صلاحيات الحاكم الإسلامي بالنسبة لاتجاه من يعتقدون بالبيعة الدينية والطاعة المطلقة، وبين من يقيدون ذلك برأي الأمة وإجماعها؟ وما هو الضمان الذي يحول دون استبداد الحكومة الإسلامية باسم الدين وجر المجتمع إلى صورة من صور الانتكاسات الاستبدادية الفردية الخطيرة.

والخلاف لا يزال قائما بين جمهور الفقهاء المسلمين من دعاة النظرة التقليدية وبين دعاة الاتجاه الإسلامي الحديث حول عدد من المسائل. فمثلا يقر الإسلام كما هو المفهوم لدى الفقهاء مبدأ الملكية الفردية ويضع في قبالها شروط التملك المشروع مثل عدم كونه من ربا أو قمار أو غش أو غبن أو احتكار أو ربح فاحش أو غصب ... الخ. ونزع الملكية الفردية وتجريد أصحابها منها على الأساس جائز في الإسلام شرط توفر أدلة الإثبات المباشرة. والنظرة الحديثة في الإسلام تأخذ بهذا الاتجاه كما تدعو إلى توسيعه بحيث يشمل حق الدولة في نزع الملكية أو تحديدها طبقا لمبدأ عام مقرر، كان يقال مثلا إن الإقطاع حرام ... فلا يعود من الواجب دراسة كل قضية بمفردها واستخراج أدلتها الخاصة المباشرة..... ويدعو الاتجاه الحديث إلى الاستفادة من مبدأ المصالح المرسلة **(وهي الأحوال التي لم يرد فيها نص)** ومبدأ سد الذرائع **(أي دفع الأخطار المحتملة الوقوع)** في وضع التشريعات الإسلامية وسن قوانين الضرائب العامة وتأميم المرافق الحيوية للمجتمع، وذلك بالإضافة إلى المصادر الأخرى المقررة في الإسلام كالزكاة والصدقات الخ .... ولكن هناك من فقهاء المسلمين من لا يعترفون بتطبيق مبدأ المصالح المرسلة على هذا النحو ولا يقرون بالمبدأ القائل بان حاجة المجتمع تبرر حرمان الفرد من حقوقه الشرعية التي اكتسبها بطريق شرعي. والحدود الإسلامية وتطبيقها لازالت موضع خلاف، فالنص الإسلامي يقضي مثلا بقطع يد السارق، بينما اتجاه الدراسات الإسلامية الحديثة يدعو إلى تعطيل تطبيق حد السرقة على اعتبار إن المجتمع يجتاز حالة طارئ من حالات الفقر والمجاعة وعدم تكافؤ الفرص وانعدام التكافل الاجتماعي بين المواطنين، وهو ما يشبه حالة عام المجاعة التي عطل فيها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب تطبيق حد السرقة، وهذا نوع من التعميم لا يراه فقهاء الأصول في الإسلام.

أما من الناحية الاقتصادية فتواجهنا من جملة المشاكل مشكلة إلغاء الربا في المعاملات. ونظام الفائدة يشكل دعامة أساسية للاقتصاد الحديث ولممارسات المصارف التجارية وهيئات الادخار والاستثمار. وحل الموضوع بطرقة تتماشى مع الإسلام يتطلب أولا دراسة مستفيضة لجميع أنواع الفوائد المعمول بها وتصنيفها تبعا لانطباق مفهوم الربا عليها وذلك بعد الاتفاق على المفهوم الأصلي للربا الذي تعرضت له آيات القرآن الكريم بالتحريم ... هذا من جهة ومن جهة أخرى توضيح نموذج لنظام إسلامي اقتصادي آخر لا يقوم على الربا ويفي مع ذلك بحاجة المجتمع وتنفيذ المشاريع الإصلاحية والاستثمارية والعمرانية الهائلة التي تفتقر إليها البلاد.

لقد دعي عدد من أصحاب الدراسات الإسلامية كالأستاذ المودودي إلى تعميم النظام التعاوني، الذي يقي المجتمع شرور الربا ويقيم دعائم الاقتصاد على أساس التعاون لا الاستغلال .. ولكن كيف يمكن تحويل مؤسسات التعامل في العالم المعاصر كالبنوك ومؤسسات الاستثمار والصناعة والإقراض العامة إلى مؤسسات تعاونية تقوم على أساس اشتراك المساهمين وجمع من يتعامل معهم جميعا في الربح والخسارة. وما هي الضمانات والاحتياطيات التي يمكن اللجوء إليها لتلافي حدوث انهيار في الكيان الاقتصادي إذا ما رؤي تعديله على هذا الأساس.

هذه بعض أمثلة فقط، إذ لا حاجة بنا لان نذهب بعيدا في الاستشهاد، وليس القصد من تلك الأمثلة التي أوردتها إننا يجب أن نشترط إجماع فقهاء المسلمين على رأي واحد قبل تنفيذه فهذا أمر مستحيل بالطبع في أي نظام، كما إننا نؤيد كل الدراسات التي تستهدف سد الثغرات العميقة في الجهاز الإسلامي المعطل، ولكن مثل هذا العمل لا يمكن إن يفرض فرضا وإنما يجب إن يتم تعميم الاتجاه الإسلامي استنادا إلى حرية المجتمع في اختيار الاتجاه الصالح والمناداة بتطبيقه مع توفر البدائل المنافسة لاختيار الأفضل. ولهذا السبب أصبح من الواجب على دعاة الاتجاه الإسلامي تهيئة الرأي العام للمناهج التي ينادون بها وتوضيحها بحيث لا تترك مجالا لثغرات تتحدى التشريع أو تستعصي على الحل. ولا اعتقد أن الجهود الإسلامية قد توصلت فعلا إلى هذه المرحلة.

– ٩ –

لو طلب مني إن الخص الفرق بين دعوة القومية العربية ودعوة الإسلاميين بالنسبة لنظام الحكم والمجتمع لقلت إن القومية تتجه إلى المجموع أولا فتقيمه على أساس الوحدة والحرية والمبادئ الاجتماعية العامة، فإذا ما انهارت مقومات الأمة كمجموع انهارت معها أسس القومية وتلاشى مفهومها العام. أما الإسلام فانه يتجه أول ما يتجه بدعوته إلى الفرد المسلم فإذا ائتلفت بهذه الدعوة امة من المؤمنين المسلمين فان الله انزل مع الإيمان الكتاب أساسا للمبدأ، والميزان تطبيقا للحق والعدالة، وأنزل الحديد رمز البأس والقوة فيه باس شديد للناس. وهكذا تبدأ مرحلة المجتمع الإسلامي بعد مرحلة الفرد المسلم، فإذا انهار كيان المجتمع فان أسس الدعوة الإسلامية لا تنهار تبعا لذلك وإنما تستمر مسئولية الفرد المسلم تجاه ربه وبني جنسه بالإيمان والاستقامة والعمل الصالح ولو انهارت دون ذلك الأمم وتبعثرت الحضارات وانتكست موازين المجتمعات. هذا هو الإسلام في جوهره وفي خطابه للفرد المسلم. ليس مشروطا بقيام حكومة إسلامية بالمفهوم العصري للدول كما ينادي به الإسلاميون ولكنه في نفس الوقت يتسع لقيام دولة مبادئ إسلامية، إذا اقتضت ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين ... الأمر الذي ينكره دعاة الاتجاه القومي.

. وجوه الخلاف الرئيسية بين القوميين والإسلاميين هي فيما يختص بالوحدة العربية والوحدة الإسلامية. وقد كتبت في هذا الموضوع مئات المقالات والأبحاث ... يقول القوميون نحن عرب قبل أن نكون مسلمين. ويقول الإسلاميون نحن مسلمون قبل أن نكون عربا، هذا الخلاف إذا حللناه نجده بدوره غير مستند إلى أساس منطقي ... فالقوميون من جهة يعترفون بالإسلام كدين، كما بيناه في موضع سابق، ويعترفون بأنه ثقافة قومية لا غنى لكل عربي عنها ... وهذا معناه ضمنا الاعتراف بحق العربي المسلم في الإيمان بوجهة النظر الإسلامية، ومن جملة ما تستدعيه وجهة النظر هذه إن المسلمين أخوه بغض النظر عن أجناسهم. فإذا جئنا إلى مناصري الاتجاه الإسلامي فإننا نجدهم من جهة يعترفون بدور العرب في القيام بأعباء الرسالة الإسلامية، كما إنهم يقرون الرابطة العربية التي تجمع العرب في لغتهم وثقافتهم وتاريخهم، وقوميتهم بغض النظر عن عقيدتهم الدينية .... ويعترفون بان الوحدة العربية هي الخطوة الأولى للوحدة الإسلامية .. وهذا معناه إن كلا من الطرفين يتخلى في اغلب الأحيان عن التزام النتيجة المنطقية للمقدمات التي يعترف بها فيما يخص الجانب الآخر. وخصوصا حين يتجاوز الأمر نطاق الأقوال إلى الأفعال أو على الأخص في غمار الممارسات السياسية والحزبية.

. العوامل التي أدت إلى خلاف في الرأي السياسي بين القوميين والإسلاميين إن الفئة الأولى تبني نشاطها على أساس عدم التعارض بينه وبين شعور الأقليات العربية الدينية، بينما تبني الفئة الثانية سياستها على أساس الاستفادة من تأييد مجموعة الأمم الإسلامية والتعاون معها. والخلاف بهذا الصدد مصدره الأول كما يبدو هو الكسب السياسي لا التفكير العقائدي، فقد وجدنا إن سيادة النظام الإسلامي لا تتعارض مع حرية الأقليات الدينية الأخرى، كما أن تعاون العرب واتحادهم على الصعيد العربي بادي ذي بدء لا يتعارض مع الدعوة لوحدة المسلمين. ثم هناك أيضا سوء فهم القوميين لمعنى سيادة النظام الإسلامي. وهم يتصورون على ما يظهر من المخاوف التي ما فتئوا يجسمونها حول الحكومة الإسلامية، إن حكم الإسلام يستدعي حتما إعادة نظام الخلافة وتقديس رجال الحكم باسم الدين وشن حروب الغزو والفتح، والقضاء على الحريات العامة باسم المحافظة على الدين او اتهام كل من يجاهر برأيه بالكفر والزندقة والمروق، واضطهاد الفئات من غير المسلمين .. وهذا الفهم الخاطئ إنما جاء كما اعتقد كرد فعل للشعور الذي خلفة لدى الناس إساءة تطبيق الإسلام من قبل الحكومات المتعاقبة. وقد قلنا انه ليس في سوء تطبيق أي نظام ما يطعن في صحته أو صلاحيته .... والواقع إن تطبيق النظام الإسلامي إنما يعني في المرحلة الرئيسية أن يتجه العرب إلى دراسة التشريع الإسلامي دراسة عصرية واعية واستنباط الأحكام التي تتماشى مع الإسلام وتسد في نفس الوقت

الفراغ الكبير الذي يعانيه مجتمعنا الحاضر، بل عصرنا كله الذي يتأرجح اليوم بين نظم مادية تجردت من عناصرها الروحية والخلقية ... وهذه الأحكام الإسلامية يتسع نطاقها أو يضيق تبعا للمجال الذي تطبق فيه، ففيما يتعلق بالعبادات والأحوال الشخصية مثلا نجدها وافية كافية تتناول أدق المشكلات وأكثرها تعقيدا. أما فيما يتعلق بالمعاملات وبالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فان الإسلام يكتفي هنا بان يرسم الدوائر العامة ويضع الإطار الذي يحفظ النشاط البشري ويقيه شر الزلل وتجاهل القيم الإنسانية والتلاعب بالمبادئ وتكييفها تبعا لمتطلبات المصلحة الخاصة.

والغاية الواضحة من وضع هذه الدوائر ورسم تلك الإطارات بالنسبة للمجتمع الإسلامي إنما هي لإيجاد الانسجام بين مجهود الفرد والجماعة بحيث لا يصبح هذا المجهود موزعا بين عقيدتين فردية يؤمن بها الفرد، واجتماعية تناقض هذا الإيمان. أن النتيجة التي يجرها تردي المجتمع العربي في نظم سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية تتنافى مع مبادئ الإسلام إنما هي فقدان الفرد ثقته بالجماعة والمبدأ التي تسير عليه، وحينما تفقد القوانين إيمان الأفراد بها على اعتبار إنها تتعارض مع ما يدينون به، فان وازع الدولة يضعف في نفوس الأفراد وتصبح علاقة الفرد بهذه المبادئ والقوانين والتشريعات علاقة مصلحة مسايرة، لا إيمان وعقيدة ... ولا يخفى إن من ميزة الدين الإسلامي انه يثير في نفس المسلم وازع الضمير فيوفر بذلك الكثير على جهاز المراقبة في الدولة نتيجة لنزعة الأفراد الفطرية للتمرد على كل نظام أو قانون لا ينسجم مع معتقداتهم ولا يتمتع عندهم تبعا لذلك بوازع الضمير المسئول ورقابته.

تلك هي أهم عوامل الخلاف، على إن هناك آراء أخرى كثيرة واتهامات يثيرها كل من دعاة القومية والإسلام، نشير منها مثلا إلى ترديد القوميين اتهام الدين بأنه حركة رجعية وانه أصبح لا يماشي تطور الزمن أو انه يقوم على العاطفة أو انه فقد مركزه في المجتمع كما قرر ذلك بعض الباحثين. بينما يتهم الإسلاميون القوميين بالنزعة الإلحادية والاستهتار بقيم السلوك الخلقية ويعتبرون في مواكبة هذه الظاهرة للاتجاهات القومية بادرة خطيرة تنزع عن المجتمع العربي درعه الروحي الذي يقيه من مغبة تسرب المبادئ الهدامة إليه لتحطيم كيانه. ويرون إن القومية إذا تجردت من وازع الدين ليس بمقدارها إن تقاوم العقائد الإلحادية والمادية الأخرى. إن في هذه الاعتراضات ما هو صحيح ولكن معظمها تهجم لا يستند إلى أساس سليم. فاتهام الأديان بأنها تقوم على العاطفة وتهمل العقل لا ينطبق على الإسلام الذي كانت رسالته الأولى إعادة سلطان العقل وتغليب المنطق السليم على العاطفة العمياء، والتشريعات الإسلامية والفقه الإسلامي وأصول التفكير الإسلامي كلها قامت على العقل والمنطق بشهادة أعدائه أنفسهم ماعدا الأصول التعبدية التي تستند إلى السيرة والقدوة الحسنة والإيمان بالله.

- ١٠ -

والآن .... نحن مدعوون جميعا إن نستنتج من كل ما قلناه شيئا ذا قيمة وفائدة. يرسم الطريق لنهضة مجتمعنا العربي بين اتجاه قومي بحت وآخر إسلامي خالص ... فماذا نحن فاعلون؟ ...

لا أراكم إلا وقد أدركتم الآن من سياق حديثي والاتجاه الذي سلكته في البحث، الخطوط الكبرى التي يقوم عليها الرآي الذي أومن به. انه اتجاه عربي إسلامي ما في ذلك من شك، ولكن له مدلوله الخاص الذي لا يقوم على ما تدعو إليه المنظمات القومية أو المنظمات الإسلامية ... وهو بعد كل ذلك رأي لا يكترث بالشطر القائل إن مصلحة الدعوة أو الحزب فوق كل اعتبار، ولذلك فهو غير منساق في اتجاهه ليتماشى مع ضرورات الكسب الحزبي المؤقت والذي ينشده كل من دعاة المعسكرين للوصول إلى السلطة.

أما الأسس التي استخلصها لتكوين هذا الاتجاه فهي :

أولا– لا تعارض بين العروبة والإسلام. فالعروبة كما يقول الأستاذ ميشيل عفلق جسم روحه الإسلام، والعرب كما وصفهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (مادة الإسلام).

ثانيا– بدأت الفكرة القومية بصفتها اتجاها سياسيا يهدف إلى تحقيق الحرية والوحدة، وانتهت اليوم إلى تبني مبادئ في السياسة والاجتماع والاقتصاد تجنح نحو الاشتراكية وما شابه من نظريات عصرية. فالقومية على هذا الأساس تفتقر إلى مبدأ كامل وعقيدة روحية شاملة في الكون والحياة.

يقول الشيخ عبدالله العلايلي: (إن القومية مهما تجردت فهي عملية ليس فيها الاستعداد لتنقلب رمزا مثاليا يستعلى على النفوس ويسيطر من أنحائها، والقومية في نفسها خالية من الرمز فلابد من إيجاد رمز مثالي لها، وهو لا يخلو أن يكون أما المذهب الأخلاقي وأما الدين الإلهي أو أما الدين الطبيعي) فضمن هذه العقيدة وذلك المبدأ تستطيع الحركة القومية أن تضع أسس تشريعاتها ونظمها سواء الذاتية منها أم المكتسبة، والإسلام يمثل هذه العقيدة التي تحتاج إليها القومية في حركتها سواء ما اتصل منها بذات المجتمع العربي أو ما ارتبط برسالة إنسانية شاملة. إن في الفكرة القومية من عناصر التأليف والتوحيد والتنظيم ما يكفل توحيد المجتمع العربي وتقويته ولكنها كدعوة عالمية تفقد جاذبيتها بالنسبة لشعوب العالم. القومية تضع المصلحة فوق كل شيء والإسلام يعمل للمصلحة القومية ضمن إطار إنساني يعطي الضمانات ويتيح الفرص المتكافئة لإتباعه على السواء.

ثالثا- لا ضير أن يتجه المجتمع العربي اتجاها عربيا وان تنشط المنظمات القومية لتوحيد العرب وتقويتهم وتركيز استقلالهم، ولكن على أساسين: الأول ... أن لا يتعارض مثل هذا النشاط القومي مع الإسلام كدين ونظام، والثاني ... أن يضع القوميون نظرتهم للإسلام كدين وتراث ونظام يحدد الإطار القومي حتى لا تجمح به الأهواء، موضع التنفيذ فيأخذوا على عاتقهم أيضا عبء بعث التراث الإسلامي وتجديد مفهومه ودراسة نظمه ومحاولة الاستفادة منها لتحل محل النظم الأخرى المقتبسة كما يتم الانسجام بين عقيدة العربي الإسلامية وبين النظم التي يخضع لها، وان يعتبر هذا الواجب ضمن مسئولية الحركة القومية ذاتها.

رابعا- في غيبة تواجد مشروع إسلامي متكامل ومقبول في ضوء المعاصرة والتجديد يجدر بالدعوات الإسلامية في هذه الآونة أن تكرس جهودها أولا لسد الثغرات التي أحدثها عجز العالم الإسلامي وجمود التشريعات وتأخر العقليات التي سيطرت على مقدراته ردحا من السنين ... وان تعمل على إحياء معنى الإسلام في نفس الفرد وتوضيح المناهج الإسلامية للرأي العام بصورة تؤدي إلى الاقتناع الحر وتكفل للمجتمع تطوره.

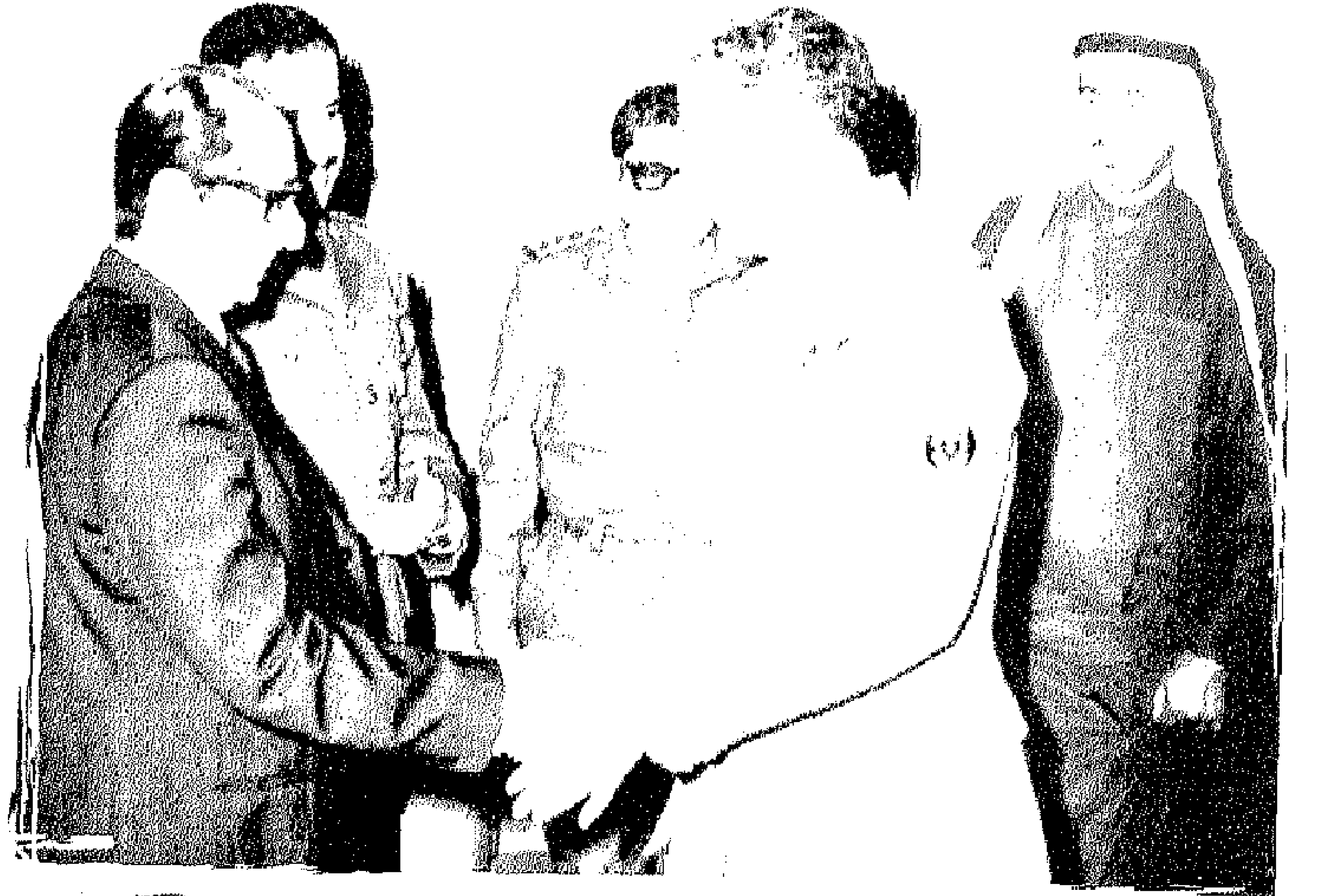
خامسا- يجدر بالمنظمات الإسلامية أن تطبق بدورها المبادئ التي يدعو إليها الإسلام فيما يتعلق بوحدة العرب والتأليف بينهم وذلك بمناصرة الاتجاهات العربية مناصرة فعالة واعتبار ذلك ضمن مسئولية الحركة الإسلامية ذاتها.

سادسا- يجب التمييز بين الدعوة للإخوة الإسلامية القائمة على تعاون المسلمين، وبين الدعوة للاتحاد الإسلامي القائمة على أساس اتحاد الحكومات الإسلامية القائمة اليوم. فليس من مفهوم السلام بالضرورة في شيء التمسك باتحاد حكومات تدعى إنها حكومات إسلامية إذا كان في ذلك تعارضا مع المصلحة العربية خصوصا إذا كانت هذه الحكومات لا تمثل الإسلام باعتراف الدعاة الإسلاميين أنفسهم، كما إنها لا تمثل جماهير المسلمين أيضا .... والجماهير بدورهم لا يمثلون الإسلام الذي ابتعدوا عنه في حياتهم اليومية وتمسكوا من تعاليمه بالمظاهر والقشور.

هذه هي معالم نهضتنا العربية الإسلامية. إنها نهضة لا نريد لها أن تكون مجردة من عنصرها الروحي فاقدة لانسجامها بين عقيدة الفرد ونظام الجماعة كما يظهر في الجانب القومي، ولا شاذة مجردة من مادتها العربية كما يتجه إليه الإسلاميون ... إنها تنسجم مع إرادة وشعور الغالبية العظمى ممن يتكون منهم مجتمعنا العربي الإسلامي، إلا أنها لا تتعارض مع مصلحة الأقليات الدينية وحقوقها ....

وبعد – فلا شك إن من الصعوبة بمكان إيفاء هذا الموضوع الذي تحملت مسؤولية القول فيه. حقه من الدراسة المستفيضة ولعل عذري فيما قد يبدر من قصور بهذا الصدد، إنني لست من المتخصصين في الدراسات العربية أو الإسلامية ، كما أني لا امثل اتجاها معينا من هذه الاتجاهات المتصارعة بمادة حزبية أو غرض سياسي، ويكفي إنني أقول ما قلته بصفتي فردا عربيا مسلما.

* * * * *





أمسية أدبية

محاضرة بنادي العروبة - ١٩٨٩م

نلتقي في هذا المساء بالزملاء الأساتذة من أسرة الأدباء والكتاب، لنسمع منهم عن تجاربهم في الشعر والأدب وتطورهما في البحرين. وأنها لفرصة سعيدة لأعضاء نادي العروبة أن يتعرفوا على خصائص الحرف الجديد، وأسرار الكلمة الشعرية الحرة، وذلك من أفواه الرواد الشبان الذين أقلعوا بأشرعتهم منذ عام ١٩٦٩ فمخروا عباب هذا البحر، وغاصوا إلى مواطن الدر فيه، بعزم الصابرين. ثم استهواهم الأفق الفسيح وحملتهم أشرعة الرياح إلى عوالم الإبداع وهم يرددون عبارة "الكلمة من أجل الإنسان".

ومن المعلوم أن أسرة الأدباء والكتاب في البحرين ارتبط اسمها بتجربة الشعر الحر والتجديد في الأدب، وقد بدأت التجربة صغيرة ثم كبرت واتسع مداها في الزمان والمكان. ومن الواضح أيضا، أن مجالات القول واسعة في موضوع هذه الأمسية، وشعر التجديد، كما أنه من الوارد أيضا أن يتساءل من يود الحديث من أفراد "الأسرة" من أين نبدأ وبماذا نبدأ؟ وقد رأيت من المناسب — لكوني البادئ والمكلف بتوجيه دفة الكلام — أن أضرب بمجداف زورقي الصغير فوق صفحة الماء الراكدة فأبدأ باستعادة بعض ذكرياتي الماضية، مشوبة بعدد من التساؤلات التي قد تفتح الأبواب للمحاورة والنقاش. ولا بد لي أن أوضح في هذا المجال أنني على شغفي المبكر بالشعر وحبي لقراءته، لا ادعي أن لي تجربة ذات بال... أو أن لي باعا في مدارس النقد والأدب. وصلتي بعالم الشعر والأدب والنقد لا تزال على اضطرابه كالكوكب في مسار غير منتظم يقترب من المركز ثم يبتعد عنه، ومع ذلك فان للشعر الرائع عندي وقع الفرحة من القلب، وإحساس النشوة في العروق، وانتفاضة العصفور بلله القطر — وقد يكون حكمي حكم المتذوق أو المستمتع أو القارئ. وعذري أن الأغلب الأعم من الجمهور المثقف — وغير المثقف — ممن لم يتفرغوا للعمل الأدبي هم في الأغلب على شاكلتي — واليهم يتوجه حوار الكلمة، وموسيقى الشعر. إنهم جزء مهم من هذا الإنسان الذي نخاطبه ونوجه إليه ومن أجله فن القول. فإذا فشل الأدب شعرا كان أو نثرا عن مخاطبة هؤلاء، فهو إذن يدور حول نفسه — في حلقة مفرغة.

ولنبدأ من تلك الذكريات بالشعر الحر. ففي أواخر الأربعينات سمعت أول ما سمعت بدعوة الشعر الحر حينما كنت طالبا في العراق — وكان البارز من أسماء دعاتها كل من السياب وعبدا لوهاب البياتي ونازك الملائكة. والسياب هو الذي قال في مقابلة صحفية في بيروت: " أن شعراءنا التقليديين ليسوا سوى (صيادي الذباب) في سعيهم وراء الكلمات والأشكال". فأثار بذلك حفيظة الأوساط الأدبية في النجف وبغداد على وجه الخصوص. ولم يعجبني هذا الكلام كما لم يعجب غيري. ولكن الشعر الحر الذي قرأته في سنوات الخمسينات

لنازك الملائكة وللشاعرين المجددين، كان شعرا مفهوما وكان يريد التجديد في الشكل طريقة معبرة عن الفن الجيد والحس الشاعري، وكنت معجبا بعدد مما تيسرت لي قراءته من هذا الشعر من أمثال قصيدة السياب في في المطر. والمستوحاة من أجواء الخليج وثروات البحر والنفط وصراع الإنسان مع البيئة والمجتمع. وشاركت في الكويت في عام ١٩٥٨ في مؤتمر الأدباء الرابع، ولم تكن مدرسة التجديد الحديثة حاضرة فيه، فقد استأثر الشعر التقليدي بالاهتمام الأكبر ممثلا بعدد من الشعراء في مقدمتهم محمد مهدي الجواهري وأستاذنا الكبير إبراهيم العريض. وفي الوقت الذي شهدت أعوام الستينات مزيدا من النزعة التجريدية في الشعر الحر، وشغفا بالغا باستعمال الرمز والأسطورة والفلكلور غربي المنشأ في الأكثر، شرقي الهوية في الأقل، فقد كان النقاش محتدما بين الشعراء الأصوليين حول الالتزام في الشعر والأدب. ولما كانت الندوات والمؤتمرات والمهرجانات الأدبية مجالا تبرز فيه التيارات المتجاذبة والاتجاهات المتصارعة، فقد شهدت الستينات مهرجانين للشعر أحدهما لتكريم الأخطل الصغير والثاني بمناسبة تأبينه بعد موته وبينهما ثماني سنوات. وسمع الناس للمرة الثانية أو الثالثة بعد أحمد شوقي حديثا عن الإمارة في الشعر والبيعة للشاعر المكرم. ومن الملاحظات التي احتفظت بها عن هاتين المناسبتين، هذه الفقرة مما نشر في ملحق "الأنوار" والتي تقول: "في الوقت الذي اخذ فيه الشعر الكلاسيكي يتساقط، وينفرط عقده بين أيدي رواد الشعر الحديث موزونا ومنثورا، دعا سعيد عقل للمهرجان الكبير في قصر الأونسكو عام ١٩٦١، حيث تمت مبايعة الأخطل الصغير بشارة الخوري، أميرا للشعراء بعد أحمد شوقي. وبعد مضي ثماني سنوات تقريبا على تجربة الشعر الحديث الذي تحول من شعر عمودي موزون، إلى شعر يحتوي على وحدات تفعيلية... ثم إلى شعر منثور ثم إلى طلاسم لا هي بالشعر ولا هي بالنثر، وقف سعيد عقل لتأبين الشعر الحديث وبين البيعتين تجدد شباب القديم، ومات الحديث في شبابه"...

ويؤيد القائلون في حكمهم الأول كلامهم بقصيدة عمر ابوريشة التي جاء فيها للمبايعة الأولى بالامارة – وكان هو الأمير في قوله:

أمجنح الحرف الحرون، ومرقص الوتر ... الحنون. على أنامل ساحر

الذكريات على السنين تزاحمت ... فكأنهن لديك سرب ضرائر

أولست من نسل الأولى نسلوا العلا ... وجلوا دياجير الدجى بمنائر

وسروا إلى غاياتهم ثم انثنوا ... وعلى خدود النجم. وشم حوافر

واستندوا في هذا الحكم على أن من مثلوا الشعر الكلاسيكي في المهرجان، ومنهم الجواهري لم تكن قصائدهم بالمستوى المطلوب فنا ومضمونا. أما في مهرجان التأبين فقد أيد القائلون بانهزام الشعر الحر رأيهم بظاهرة عزوف عدد من رواده عنه، مستشهدين بمحمد الفيتوري، وسعيد عقل وسواهم فقد جنح كلامهما إلى الشعر التقليدي. وقصيدة سعيد عقل بالذات كانت مثارا للغرابة حيث جاء بقصيدة تقليدية الشكل عصرية المضمون، يقول فيها:

غنين غنين... قلن للمجد في يتم ... شعر بلا المجد رايات بلا وطن

غنين غنين. صوتي ضاع بات صدى ... كالحصن دك وظلت هيبة الحصن

للفقر قلنا استرح للمستبد أشح ... عدا على الرمل لا يبقى سوى الدمن

والواضح أن الشعر التقليدي بعد الستينات لم يمت، بل الأصح في رأيي أن مجال الإبداع فيه قد انكمش وتقلص واقتصر على عدد قليل من الشاعريات المشهود لها كالجواهري ومن تبقى من جيل الأوائل المبدعين فليس من السهل على الأجيال الجديدة التعبير بحرية عن تجارب العصر وثقافته ضمن قيود من الأوزان والتفعيلات والقوافي. كما لم تعد قوافي القريض المحكمة طيعة ولا سلامة اللغة سهلة المنال كما كانت من قبل على قول الشاعر القديم:

وكنت إذا ما أردت القريض ... تخبرني الجن أشعارها

أروم صعاب قوافي القريض ... حتى تذل فأختارها

قواف يوردها صاحبي ... إلي وأكفيه إصدارها

لقد اختفى شيطان الشعر منذ زمن، أما وادي عبقر فلم يعد مصدرا للإلهام ولكن من الخطأ الظن بأن الشعر التقليدي الموروث فقد قيمته. فهو شعر أدى دوره في التعبير بأمانة، والجيد منه ظل ولا يزال مصدرا تراثيا مهما لخلق الشاعرية وتأسيسها وذلك بجانب القيم الأخرى التي يمثلها أو يدل عليها. أذكر أنني قرأت عن ندوة فريدة أقيمت منذ ثلاث سنوات وجمعت في دار الغربة بين يوسف الخال ونزار قباني وأدونيس، وبلند الحيدري، وعلى هامش تلك الندوة كان أدونيس صامتا يفكر في الغربة ومصير لبنان الممزق، فمال عليه يوسف الخال وبادره منشدا:

وما ذنب إعرابية عرضت لها ... صروف النوى من حيث لم تك ظنت

فيكمل أدونيس في الحال:

إذا ذكـرت مــاء العــذيــب وبــرده	وطـيـب حصـاه آخـر الليـــل حنـت
لهـــا آهـــة عـنـــد العشـــي وآهـــة	سحيـــرا...ولـــولا الآهتـــان لجنــت

فيستعيد الآخرون الأبيات مرارا..بينما يقول يوسف الخال: هذا هو الشعر وهذه هي البـلاغة في البسـاطة. يـا لهـا مــن امــرأة عظيمــة!

واني لأحسـب أنهم بعد ذلك تبادلوا نظرات صامتة وكأنهم يقولون:

نحن شعراء الحداثة ألم نجد ما نستشهد به في هذه الحال..غير أبيات لأحدى البدويات عفى عليها الزمن منذ ألف عام أو تزيد؟

وبالمثل فان الشعر الحديث لم يمت كما تنبأ كاتبوا الستينات، فقد اتسعت تجربته أفقيا على امتداد العالم العربي كله خلال السبعينات والثمانينات، ولكن النقاش استمر حاميا حول الأشكال الشعرية: قصيدة النثر وقصيدة اللا إيقاع، وفي مطلع الثمانينات حتى اليوم يدور النقاش حول الحداثة، والأصالة والمعاصرة، واللغة الجديدة للشعر. في هذا الخضم من نتاج الشعر الحديث، وتضارب النظريات حوله يقف النقد الأدبي عاجزا عن الحركة. فالشاعر اليوم يستطيع أن يقول ما يشاء وبأي شكل يشاء. أصبحت موازين النقد ذاتية. يقول عبد الوهاب البياتي:

"أن الأشكال الشعرية، أو اللغة الجديدة ليست هدفا بذاتها وإنما هي تنشأ وتولد من خلال المعاناة والتعبير عن التجربة، فالثورة على الأوزان والعروض والقوافي ليست من هدف الشاعر الأصيل، لأنها تكون أحيانا من نتائج ثورة المضمون الجديد"! وأنني بدوري لأتساءل: ما هو المضمون الجديد؟..أما زميلنا الأستاذ قاسم حداد فيقول:

"القصيدة العربية الآن ومنذ خروجها على التقنية الجاهزة أصبحت ذات طبيعة شخصية إلى حد بعيد. التقنية صارت شخصية أيضا ومن هنا تأتي خطورة التجربة الجديدة" ثم يقول:

"بصعوبة يتكون الآن نقد يتفهم التجربة الشعرية الجديدة. لكن هذا يحتاج إلى بعض الوقت. النقد السابق كان يكتب للقارئ فقط. ..والنقد الجديد أصبح يكتب للشاعر فقط. وهذه هي الإشكالية التي علينا جميعا أن نعالجها. لا بد أن نعيد القارئ طرفا ثالثا في العملية النقدية".

بقى هناك اتجاه لم أتطرق إليه. اتجاه قديم جديد..وأعني بذلك شعر نزار قباني ومدرسته وبالنسبة إلينا ربما يمثل شعر غازي القصيبي اتجاها وسطا يمشي مع هذا الخط. أما الأستاذ إبراهيم العريض فله بذاته مدرسة خاصة في الشعر والنقد. هذا الشعر الذي استطاع أن يتصل بنبض العصر ورياحه الثقافية والفكرية والفلسفية. ومع التزامه بالمضمون الحديث التزم أيضا بوضوح التعبير وسلامة اللغة، والشكل المتحرر الذي لا بد منه: تفعيلات وقوافي وموسيقى شعرية — فهو اتجاه متدرج يصح فيه قول أحمد شوقي:

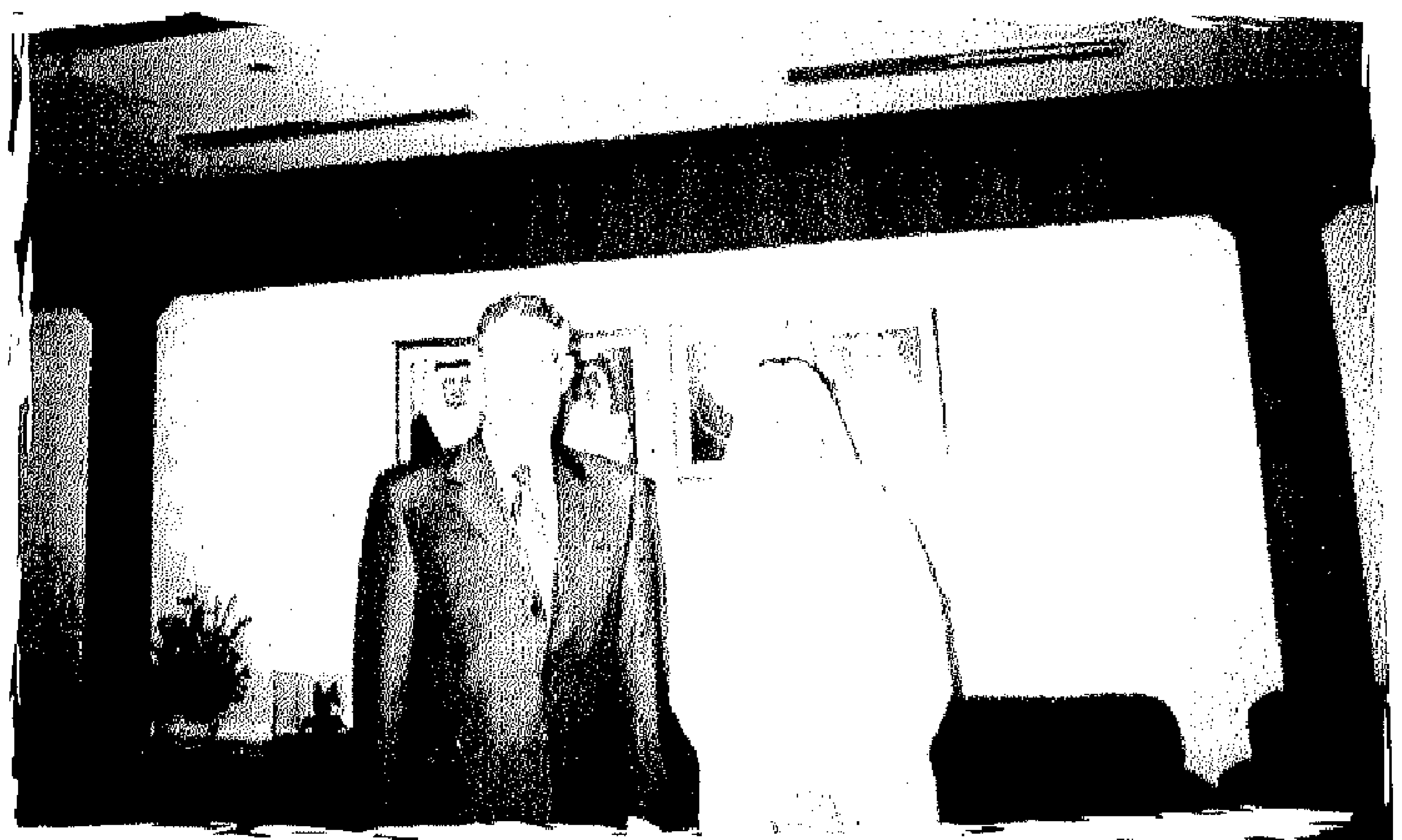
ومع المجدد في الأناة سلامة ومع المجدد بالجماع عثار

فهل نعتبر هذا النمط توفيقا وسطا بين القديم والجديد؟

أرجو أن أكون قد استطعت أن أثير التساؤلات التي وعدت بها وأن افتح أبوابا للحوار والتعرف على تجربة الشعر في البحرين..وأختم هذه الكلمة بما قاله الزعيم الهندي الراحل غاندي:

" إنني افتح نافذتي لكل أنواع الرياح. ولكني أنكر على أي منها أن يقتلعني من جذوري".





حكايات منسية من أدب البحرين
محاضرة بالنادي العربي بلندن - ١٩٩٤م

أديب المهجر والمؤرخ المعروف أمين الريحاني، جاء إلى البحرين في عام ١٩٢٢ وكتب عنها في ((ملوك العرب)) تحت عنوان (سلسلة من المدهشات) قائلا:

((ما اخطأت الظن مرة ببلاد عربية مثل خطأي بالبحرين. وما دهشت في قطر من الأقطار التي زرعتها دهشتي أول يوم في هذه الجزيرة. ولا غرو فالجهل يجسم المدهشات .... أما واني امقت الادعاء فلا أحاول إخفاء جهلي وهو جهل عام يشمل كل أدباء العرب. أني اعترف عني وعنهم)).

ثم يعدد أمين الريحاني – بعد الاعتذارات، سلسلة من تلك المدهشات منها عمران مدينة المنامة، وحركة التجارة في أسواقها وانتظام دوواين الأعمال وحركة الكتاب والزائرين، ومنها وجود نهضة أدبية اجتماعية مباركة وعدد من الأدباء الشعراء ليس بقليل. وأندية أدبية ومكتبات وقاعات لمطالعة الصحف والمجلات، وندوات تضم المهتمين بالأدب والسياسة والدين والتاريخ والاجتماع.

وفيما يوالي أمين الريحاني سرده للمدهشات الأخرى في ثنايا فصول الكتاب والتي لم يكن يتوقع منها شيئا حينما قرر المجيء إلى البحرين لمجرد العبور منها إلى الإحساء، فاني أتوقف عند هذه النبذة واكتفي بإيراد ما قاله الأديب والشاعر عبدالله الزائد مخاطبا الريحاني:

أتخفيها.. وقد برح الخفاء ... وتسترها وقد عم الضياء
وتحنث بالوعود مؤكدات ... أليس الحر شيمته الوفاء
أمين الشرق جبت الأرض،قل لي ... أقوم في المشارق أم نساء
ثياب العز مزقها التعادي ... وصرح المجد جد به العفاء
غنيهمو بخيل، والمداوي ... عليل، والأجانب أولياء
مفتحة عيونهم، نيام ... أنوم أم ذهول أم فناء
مضلونا الكثير ومرشدونا ... قليل لا يجاب لهم دعاء

ويبدو إن الكثير مما قاله الزائد عام ١٩٢٢ عن الأمة العربية آنذاك لا يزال قائما إلى يومنا ... مع الاعتذار للسيدات والآنسات عما ورد فيه عن النظرة إلى النساء في ذلك الزمن.

هذا هو حديث الجد في زيارة الريحاني إلى البحرين .. ولكن الكاتب والصحافي خالد البسام من البحرين الذي كتب عن زيارة الريحاني في كتابه (رجال في جزائر اللؤلؤ) أضاف عليها هذه الحكاية الطريفة التي انقلها على عهدة راويها:-

يقول خالد بسام إن الريحاني حينما زار مدرسة الهداية لم يستحوذ على اهتمام طلابها. ويعلل ذلك بمظهره... فقد جاءهم بلباس عربي ولكن كان ينقصه الكثير! فلقد جاءهم بثوب قصير وبشت (عباءة) قصير أيضا و((بشطفة)) (عقال عرض) غير مرتبة! وأصبح في ثيابه القصيرة أشبه بالإنسان المنتفخ من الأعلى فقط، فلم يترددوا في تسميته ((بالديك الرومي)) وفشا الهمس بينهم انتقادا لمظهره ولباسه.

وأقول انه قبل مجيء أمين الريحاني عام ١٩٢٢ جاء قبله آخرون كما جاء من بعده فوج آخر من رحالة وأدباء ومؤرخين وصحافيين كانت الدهشة التي عبر عنها الريحاني هي القاسم المشترك فيما بينهم. فما سر هذه التوقعات غير الصحيحة عن البحرين يا ترى؟...

معذرة إذا قلت أنني لا اعرف السبب، فلا شك إن لكل إنسان أسبابه الخاصة ونوع المدهشات التي يتصورها. ومهما كان فان الأسباب ليست من حسبان حكايات هذه الأمسية.

ولكن أهل البحرين يلقون اللوم على الزائر أحيانا بسبب جهله بالبحرين، وعلى أنفسهم أحيانا لعجزهم عن تعريف العالم ببلادهم. ويبدو لي إن شعورا من نوع خاص قد تولد في نفوس أهل البحرين بسبب تلك الظاهرة المشتركة بين الزائرين أو الوافدين.

لا أستطيع أن احلل ذلك الشعور الخاص أو أن أصفه، ولكنني أظن إن ولع أهل البحرين بتعريف الناس ببلادهم لا يعادله إلا ميلهم الفطري للتغني بأمجاد البحرين الماضية، نسبا وحضارة وعلما وأدبا ... فأنت تجد هذه الروح في معظم ما كتب أدباء البحرين وعلماؤهم سواء في مطلع قصائد الشعر أو ديباجة المقدمات النثرية مما سيأتي ذكره.

وإذا كان هذا شعور الأدباء من البحرين فما هو شعور عامة الناس.

اذكر أن والدي رحمه الله كان كلما سمعني أتغنى بالأناشيد المدرسية القومية- وأنا صغير، يردد هذا المقطع: وفينيقيون هم نعم الجدود ... وهو مقطع من شعر حماسي كانت تنشده فرقة الكشافة في زمانه.

وفي الأربعينات وأوائل الخمسينات توقف تغني أهل البحرين بأجدادهم من الفينيقين تقريبا. وحل محله التغني بأمجاد تايلوس وارادوس وذلك بعد انتشار أقوال المؤرخين اليونان عن البحرين وما ذكرته من مرور الاسكندر المقدوني بها وارتباط ذلك بأسماء بعض الجزر مثل ((تاروت)) الذي وجد فيها تمثال ((ألآله عشتاروت)) ودارين، وشبه جزيرة ((عراد)) في البحرين إلى غير ذلك من الكتابات القديمة والمكتشفات الأثرية.

ثم مالبثت حضارة ((دلمون)) أن احتلت الصدارة في أواخر الخمسينات، بعد التنقيبات التي قامت بها البعثة الدانمركية والأبحاث التي نشرت حول أعمالها ولا تزال تنشر حتى يومنا هذا. واحتلت أختام دلمون الأثرية مكانها في المتاحف والمطابع كما استعملت نماذجها في تزيين الحلي واللوحات الفنية.

ملخص ما كشفت عنه بعثات التنقيب هو أن البحرين كانت مركزا رئيسيا لاستيراد السلع وتصنيعها وإعادة تصديرها إلى العراق منذ زمن السومريين والبابليين. وان بلاد ((دلمون)) المقدسة التي تغنت بها ملحمة (جلجامش) لم تكن سوى جزر البحرين. واليكم مقاطع من ذلك النشيد في أسطورة الفردوس السومرية.

((ارض دلمون مطهرة ... ارض دلمون نقية ... في دلمون لا ينعق الغراب، ولا يقتل الأسد ولا يفترس الذئب الحمل ... لا احد يقول عيني تؤلمني، ولا يقول الشيخ ((أنا طاعن في السن))).

وفي نص آخر من أسطورة الطوفان السومرية نقرا أيضا عن دلمون ارض الخلود إن ((زيوسودرا الملك الذي حفظ اسم النباتات وبذرة البشرية ... جعلته الآلهة يعيش في ارض دلمون ارض العبور .. المكان الذي تشرق منه الشمس)) إلى آخر الأسطورة ... وهكذا فقد كتب عن دلمون وحضارتها الشيء الكثير.

وهكذا أيضا تعددت أسماء البحرين التاريخية، وكثر المشغوفون بها على مر الزمن، فهل يا ترى يمكن اعتبار كثرة الأسماء بمثابة تعويض نفسي عن صغر حجم البحرين مساحة وسكانا... ومد خولا أيضا!

وإذا كان هذا هو شان الجيل الحاضر، فليس هو بالضرورة شان أجدادنا. فمنذ أربعمائة عام تقريبا وما قبلها، كان اسم البحرين يطلق على البلاد الساحلية المطلة على الخليج العربي والممتدة فيما بين جنوبي العراق وشمالي عمان. أما جزر البحرين الحالية فكانت تسمى آنذاك بجزيرة أوال، رغم كونها جزءا من البحرين الكبرى.

قال توبة بن الحمير

من الناعبات المشي نعبا كأنما ينـاط بجدع من أوال جريرها

وقال تميم بن أبي مقبل:

عمد الحداة بها لعارض قرية فكأنها سفن بسيف أوال

يقول الشيخ عبدالله بن خالد الخليفة — رئيس مركز التراث في البحرين — إن جزر البحرين اختصت بهذا الاسم عن سائر المنطقة خلال حكم الأتابكة لها، وهم أحدى الاتابكيات التي خلفت الدولة السلجوقية بعد التغلب على الحكام العيونيين.

تلك كانت حكاية من حكايات التاريخ الذي اعتقد أنكم تعرفونه، فلا داعي إن نقف عندها طويلا ضنا بوقتكم وخوفا من إن ينتابكم الملل، فظاهرة الملل من طول الاستماع ظاهرة مألوفة في مجتمعات اليوم كما كانت مألوفة من قبل. ولنأخذ مثلا على ذلك اجتماعا أدبيا في احد أندية البحرين. وليكن نادي العروبة خلال الأربعينيات من هذا القرن.

فلقد أوردت فقرات عن هذه الظاهرة في كتابي ((نادي العروبة وخمسون عاما)) جاء فيما يلي :

((لا يعلق بذاكرتي الشيء الكثير عن هذه الاجتماعات ما عدا العبارات الرئيسية التي سمعتها في كل مناسبة من رئيس النادي وأمين السر تحث الأعضاء على الحضور، ومن كان في النادي وتخلف عن المجيء، كان (يستجلب)قسرا أو عن شبه قسر لحضور الاجتماعات. ويتكفل بذلك عادة أمين السر يساعده نفر من ذوي الجرأة واللسان.

ومعظم المتكلمين في تلك الحفلات الداخلية كان يبدأ حديثة عادة بالتقليل من شانه في صياغة الكلام ويبالغ في ذم أسلوبه الركيك وأفكاره السقيمة وقد يشير إلى نفسه بكلمة (الحقير) على أسلوب الاباءئ ثم يختم (أي المتكلم) تلك الديباجة قائلا: انه وافق على المشاركة تحت ضغط من أمين السر أو رئيس النادي ولولا الحاحهما لما وقف هذا الموقف الصعب!.

ويكثر الأعضاء إذا تضمن البرنامج شيئا من المشوقات كالمسابقات أو الجوائز أو التمثيل أو الموسيقى أو الغناء. وأحيانا يكفيهم للحضور الكرم غير المعتاد في الضيافة، أو وجود زائر غريب. ويقل الحضور منهم حين تقتصر الحفلة على كلمات موضوعة أو مقتبسة. ويبدو التذمر على الحاضرين من ظاهرة الوشوشة فيما بينهم أو التململ في الجلوس أو التثاؤب بصوت مسموع ... الخ)).

وهنا لابد من الاستدراك .. فحفلات نادي العروبة لم تكن كلها من ذلك النوع الذي يتقاعس الأعضاء عن حضوره... فتلك الظاهرة كانت مقتصرة على بعض الحفلات الداخلية للأعضاء أما الحفلات الموجهة للجمهور فكانت لها صفة يقتضى الإنصاف أن أسمعكم عنها شيئا مما كتبت:-

((كانت القاعات في النادي تكتظ بالحضور من الوجهاء والأساتذة وأفراد الجمهور المدفوع بالإعجاب والفضول ....

ويفتتح رئيس النادي المرحوم محمد دويغر هذه الحفلات- عادة- بإسداء النصائح بأسلوب إذاعي رصين والتشديد على أهمية الأخلاق في نهضة الأمم وواجبات الشباب المتعلم تجاه المجتمع فيتقبلها الحاضرون بالرضا وبهز الرؤوس بين حين وآخر، وسرعان ما يعقبة أمين السر الأستاذ حسن الجشي فيساهم أسلوبه المتقن وأفكاره المعارضة للجمود، الداعية للتطور والانفتاح على مفهوم العروبة الأوسع، في رفع درجة الحماس عند البعض وتوتر الأعصاب لدى الآخرين. فإذا صادف وان تلاه في الخطاب الأستاذ علي التاجر خيل إلى الحاضرين عندئذ أنهم يواجهون بركانا يقذف بالحمم، من جراء صراحة الألفاظ والنقد اللاذع ودفعات الحماس كالموج العاصف يغشاه موج من فوقه موج اكبر منه اتساعا. وبقدر ما تتوالى الصدمات تتسع الأفواه المشدوهة حتى إذا أكمل حديثه لم يجد منظموها الحفل بدا من تلطيف الجو باستراحة للمرطبات، أو قصيدة ((رومانسية)) من شعر المرحوم الأستاذ السيد رضي الموسوي من مثل:

انثروا فوق صفحة الدهر أزهارا   يفـح ريحهـا مـع الإشـراق

وكان الأستاذ الكبير الشاعر إبراهيم العريض النجم اللامع في معظم حفلات النادي إذ كانت تفرد له في العادة أمسيات خاصة بكاملها يستغرقها في إلقاء الجديد من شعره القصصي محفوفا بإعجاب الحاضرين وتصفيقهم .. فقد ألقى بين عام ١٩٤٠ – ١٩٤٣ عددا من قصائده من مثل ((**قبلتان**)) و ((**التمثال الحي**)) ((**وأسطورة الخيام**)) ((**وقلب راقصة**)) وغيرها.

كنت أتابع حفلات النادي بشوق واحضرها فاجلس بين الصفوف المتراصة محشورا في مؤخرتها لا يحفل بي احد لكني أتجاسر على الوقوف بين الحين والآخر لمتابعة حركات الأستاذ العريض التعبيرية .. ولم يكن ليعكر صفو هذه السعادة شيء سوى قلقي من الرجوع بمفردي إلى المنزل خلال الأزقة الموحشة المظلمة، تتجاوب عبرها أصداء من أصوات النواطير المفزعة، تجرح صمت الليل وسكونه .. وسرعان ما يصرخ احدهم فجأة من أخر الزقاق ((شنت))؟ فأجيبه بصوت مبحوح من الخوف: ((صديق))! كما انه كان علي أن أجيب الوالد ذلك عن أسباب التأخر ...)).

كانت تلك اللمحات عن حفلات نادي العروبة في الأربعينات وكما رأيتم انه كان لكل نوع جوا خاصا ومناخا مختلفاً.

وبمناسبة ذكر ((المناخ)) ... كم من حضراتكم يعلم إن لهذه الكلمة معنى اصطلاحيا خاصا غير مناخ الجو والطقس .. اعني مصطلحاً خليجياً اسمه المختصر ((المناخ)) والكامل ((سوق المناخ)) ولعلي إن سمحتم إن أحدثكم عن هذه السوق باختصار.

أنها سوق للأوراق المالية واسهم الشركات فتحت مصراعيها خلال الثمانينات للمضاربين والمغامرين خارج سوق الأوراق الرسمية. ولعل اسمها جاء من الموقع الذي تمركزت فيه أنشطة السوق، فربما كان في السابق ((مناخاً)) للجمال التي تحمل البضائع للأسواق في العهد السابق للتطور الحديث وتدفق ثروات النفط أو لعل الموقع كان لبيع الجمال وشرائها أو السفرة التنقل أو لكل ما ذكرت. ذلك انه يوجد في اغلب أسواق مدن الخليج سوق تسمى بالمناخ وأخرى تسمى سوق واقف.

وكما قلت إن هذه السوق نشطت في الثمانينات ثم استشرى أمرها وكبر حجمها .. وبعد ذلك انهارت أسعار الأسهم فيها دفعة واحدة ونتجت عنها خسائر في شكل شيكات وكمبيالات عجز أصحابها عن الدفع.

وقد أصابني من هذه السوق شرارة صغيرة جدا .. ولكنني أتذكر إنني نهضت ذات يوم من فراشي (منذ احد عشر عاما) وفي ذهني أبيات شعرية تكاد تكون جاهزة وكأنها ألقيت إلي في المنام فكتبتها على الفور وفي راسي بقية من نعاس، ثم نشرت في صحافة الكويت والبحرين.

وإذا قلت لكم إن الأبيات ليست من الشعر الجيد أو أنها ركيكة على طريقة المتكلمين القدامى في نادي العروبة، فقد يكون ذلك واقعا وليس تواضعا. المهم إن بعض تلك الأبيات التي تصف حكاية السوق تتضمن مدخلا إلى حكايات أخرى.

سأقرأ عليكم شيئا مما جاء في أبياتها الافتتاحية: - (إلى فرسان المناخ)

سوق المناخ تحية ... منا إليك وألف شكر
لم ندر ما طعم الثراء ... وحلمه... واليوم ندري
كان الثراء بأرضنا ... يغشي وجوها ذات سحر
عرفت دروب المال ... لم تنهش بناب أو بظفر
مثل الحمام وداعة ... وعيونها كعيون صقر

حتى أتى ((سوق المناخ))	فصار مثل السيل يجري
ذو المال أو صفر اليدين	كلاهما انشغلا بأمر
وكأنما ((الفاروق)) عاد	وقوله ما زال يسري
من شاء فليكتال كيلاً	أو بأوزان وقدر
عادت لنا أمجادنا	تختال من نصر .. لنصر
والمال يرجع حقنا	ويفكنا من قيد اسر
كانت ((عكاظ)) منارةً	تحظى من الدنيا بذكر
قوم أتوا لتجارة	والمبدعون لقول شعر
وتلت عكاظا ((مربد))	مدت روافدها بنهر
سوقان في تاريخنا	كالجنتين ذوات نشر
واتى ((المناخ)) فزادنا	عطراً... ولكن أي عطر!
شحنت روائحه الأنوف	بأي شيء... لست ادري

كنت أتابع حفلات النادي بشوق واحضرها فاجلس بين الصفوف المتراصة محشورا في مؤخرتها لا يحفل بي احد لكني أتجاسر على الوقوف بين الحين والآخر لمتابعة حركات الأستاذ العريض التعبيرية .. ولم يكن ليعكر صفو هذه السعادة شيء سوى قلقي من الرجوع بمفردي إلى المنزل خلال الأزقة الموحشة المظلمة، تتجاوب عبرها أصداء من أصوات النواطير المفزعة، تجرح صمت الليل وسكونه .. وسرعان ما يصرخ احدهم فجأة من أخر الزقاق ((شنت))؟ فأجيبه بصوت مبحوح من الخوف: ((صديق))! كما انه كان علي أن أجيب الوالد ذلك عن أسباب التأخر ...)).

كانت تلك اللمحات عن حفلات نادي العروبة في الأربعينات وكما رأيتم انه كان لكل نوع جوا خاصا ومناخا مختلفاً.

وبمناسبة ذكر ((المناخ)) ... كم من حضراتكم يعلم إن لهذه الكلمة معنى اصطلاحيا خاصا غير مناخ الجو والطقس .. اعني مصطلحاً خليجياً اسمه المختصر ((المناخ)) والكامل ((سوق المناخ)) ولعلي إن سمحتم إن أحدثكم عن هذه السوق باختصار.

أنها سوق للأوراق المالية واسهم الشركات فتحت مصراعيها خلال الثمانينات للمضاربين والمغامرين خارج سوق الأوراق الرسمية. ولعل اسمها جاء من الموقع الذي تمركزت فيه أنشطة السوق، فربما كان في السابق ((مناخاً)) للجمال التي تحمل البضائع للأسواق في العهد السابق للتطور الحديث وتدفق ثروات النفط أو لعل الموقع كان لبيع الجمال وشرائها أو السفرة التنقل أو لكل ما ذكرت. ذلك انه يوجد في اغلب أسواق مدن الخليج سوق تسمى بالمناخ وأخرى تسمى سوق واقف.

وكما قلت إن هذه السوق نشطت في الثمانينات ثم استشرى أمرها وكبر حجمها .. وبعد ذلك انهارت أسعار الأسهم فيها دفعة واحدة ونتجت عنها خسائر في شكل شيكات وكمبيالات عجز أصحابها عن الدفع.

وقد أصابني من هذه السوق شرارة صغيرة جدا .. ولكنني أتذكر إنني نهضت ذات يوم من فراشي (منذ احد عشر عاما) وفي ذهني أبيات شعرية تكاد تكون جاهزة وكأنها ألقيت إلي في المنام فكتبتها على الفور وفي راسي بقية من نعاس، ثم نشرت في صحافة الكويت والبحرين.

وإذا قلت لكم إن الأبيات ليست من الشعر الجيد أو أنها ركيكة على طريقة المتكلمين القدامى في نادي العروبة، فقد يكون ذلك واقعا وليس تواضعا. المهم إن بعض تلك الأبيات التي تصف حكاية السوق تتضمن مدخلا إلى حكايات أخرى.

سأقرأ عليكم شيئا مما جاء في أبياتها الافتتاحية: - (إلى فرسان المناخ)

سوق المناخ تحية ... منا إليك وألف شكر

لم ندر ما طعم الثراء ... وحلمه...واليوم ندري

كان الثراء بأرضنا ... يغشي وجوها ذات سحر

عرفت دروب المال ... لم تنهش بناب أو بظفر

مثل الحمام وداعة ... وعيونها كعيون صقر

حتى أتى ((سوق المناخ)) ... فصار مثل السيل يجري

ذو المال أو صفر اليدين ... كلاهما انشغلا بأمر

وكأنما ((الفاروق)) عاد ... وقوله ما زال يسري

من شاء فليكتال كيلا ... أو بأوزان وقدر

عادت لنا أمجادنا تختال من نصر .. لنصر
والمال يرجع حقنا ويفكنا من قيد اسر
كانت ((عكاظ)) منارةً تحظى من الدنيا بذكر
قوم أتوا لتجارة والمبدعون لقول شعر
وتلت عكاظا ((مربد)) مدت روافدها بنهر
سوقان في تاريخنا كالجنتين ذوات نشر
واتى ((المناخ)) فزادنا عطراً... ولكن أي عطر!
شحنت روائحه الأنوف بأي شيء... لست ادري

كما لاحظتم فان الأبيات على علاتها، تتضمن إشارة إلى قول ينسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإشادة بشوق عكاظ في مكة وسوق المربد في البصرة وفضلهما على التراث الأدبي حيث امتزجت المصالح المادية والتجارية بالإبداع الثقافي والفكري.

يروى إن الخليفة عمر جاءه من البحرين مال فقال يخاطب الناس: ((لقد جاءنا من البحرين مال كثير، فمن شاء كلنا له كيلا، ومن شاء وزنا له وزنا)). وقيل ان الصحابي أبا هريرة ولي البحرين فجاء إلى عمر ومعه اثنا عش ألف دينار فقال له: يا عدو الله وعدو المسلمين سرقت مال الله. فأجابه أبو هريرة.... لست بعدو الله ولا عدو المسلمين إنما هي خيل لي تناتجت وسهام اجتمعت. فاخذ منه عمر جميع المال.

إقليم البحرين إذن كان ذا أهمية اقتصادية خاصة وكان رافدا مهما من روافد بيت مال المسلمين. فقد كانت شهرة البحرين مزدوجة: الخصوبة والإنتاج الزراعي والمهن اليدوية، ثم أهميتها بالنسبة للتجارة العابرة ...
يقول الشاعر عن قوافل الجمال:

((تمر على الدهنا خفافا ظهورها ويخرجن من دارين بجر الحقائب))

وبما إن حديثنا عن الأدب وعن أسواق الأدب ومواسمه في عكاظ وغيرها، فان أمهات كتب التراث العربي تشيد بالدور البارز للبحرين الكبرى في هذا المضمار.

يشير الدكتور عبدالله المبارك في كتابه (أدب النقد المعاصر) مدللا على هذه الظاهرة بقوله:

((رفد شرقي الجزيرة العربية تاريخ الأدب العربي بفريق ضخم من نادي الشعراء وفرسان الكلمة مثل: طرفة بن العبد صاحب المعلقة المشهورة، والمرقشين الأصغر والأكبر، والمتلمس، وعمر بن قميئة، وسعد بن مالك، والثقفي والممزق العبديين في الجاهلية. وزياد الأعجم والصلتان العبدي والاعور الشني وكعب، بين الجاهلية وصدر الإسلام، والفرزدق وقطرى بن الفجاءة وكشاجم والاعصم وصاحب الزنج وابن المقرب في العصرين الأموي والعباسي وما بعدهما وغير هؤلاء كثير من الشعراء المجيدين)).

أما الدكتور محمد جابر الأنصاري فقد ورد في إحدى مقالاته قوله: ((والباحثون الذين درسوا ديوان شعر البحرين في هذه الحقبة الباكرة توقفوا عند سير مالا يقل عن خمسين شاعرا تقريبا ينتسبون إلى عبدالقيس وبكر بن وائل (والعبديين) وهم ولاشك المدرسة الشعرية التي نبع فيها طرفة بن العبد والعمق البشري الإبداعي للحركة الثقافية في تلك الفترة)).

وماذا عن أدب النثر؟ يجيب على ذلك الدكتور المبارك فيذكر :

((إن قبيلة (إياد) بالذات قد وعت الفكر الديني القديم وشاركت في تهيئة مناخ عربي لكثير من القيم الروحية والمثالية. وتزخر الأمهات العربية القديمة بنتاج وفير من سجع الايادييين وخطبهم ومواعظهم وحكمهم وأمثالهم. ومن الصور المبكرة لهذا النثر الجاهلي الصور المروية عن الايادي صاحب الصرح الذي ولي أمر البيت العتيق بعد جرهم، وبنى صرحا بمكة وجعل في الصرح سلما كان يرقاه لمناجاة الرب – وله أقوال بليغة في المناجاة. قال الشاعر بشير ابن الحجير الايادي :

ونحن إياد عبيد الأله ... ورهط مناجيه في السلم

ثم هناك قس بن ساعدة الايادي الخطيب المشهور الذي كان يسجع سجع الكهان ويروي إن رسول الله عليه الصلاة والسلام حضر خطبة لقس بن ساعدة وهو بعد طفل وانه قال عنه : يرحم الله قسا أني لأرجو إن يبعث يوم القيامة امة وحده.

خطباء ايادهم من الشهرة كما قال عنهم الشاعر القديم داود بن جرير :

يرمون بالخطب الطوال وتارة ... وحي الملاحظ ... خيفة الرقباء

إما في الإسلام فنجد عبدالقيس تتقدم النثر الإسلامي بشكل غالب يكاد يضرب ببلاغتها المثل وبخاصة آل صوحان حتى قيل ((اخطب من صعصعة بن صوحان العبدي)).

ولعلكم تعلمون إن صعصعة بن صوحان كان من أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. ويوجد في جزيرة البحرين مزار أو قبر يعرف باسمه.

يقول الجاحظ في البيان والتبيين: ((وشأن عبدالقيس عجب وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين: ففرقة وقعت لعمان وشق عمان وهم خطباء العرب، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين وهم من اشعر قبيل في العرب)).

قال معاوية ابن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي ما هذه البلاغة فيكم. فقال: (شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا) وقال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم قال: الإيجاز، قال وما الإيجاز؟ قال صحار: إن تجيب فلا تبطيء وتقول فلا تخطيء. ونظن إن دارسا للبلاغة والنقد العربيين لا يمكن إن يغفل الجملة المشهورة لعامر بن عبدالقيس التي عبرت ربما لأول مرة عما نسميه (بالصدق الفني) ثم سارت مسيرة الأمثال، وهي قوله:

(الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان).

وبعد تنازع المسلمين على الخلافة والأحزاب السياسية قام بنو عبدالقيس بدور خطير فكانوا فرسان الكلام والمقارعة ووقفوا إلى جانب ما رأوه حقا. ويمكن إن نشير هنا بعد صعصعة العبدي ورفقائه إلى قطرى بن الفجاءة ومكانته الأدبية في الشعر والنثر والخطابة، وقد وردت في الكتب القديمة نماذج مما كان يتبادل بين قطرى وغريمه الحجاج بن يوسف من رسائل حفلت بفنون البلاغة.

ولنعد الآن إلى سوق عكاظ ومواسم الأدب وقصائد المعلقات المشهورة. ففي بداية هذا الحديث أو هذه الحكايات أشرت إلى كتاب ((ملوك العرب)) للريحاني الذي أهداه إلى ((الناشئة العربية الناهضة في كل مكان)). لقد اختار الريحاني من ديوان العرب كله .... بيتا من الشعر ليقرنه بإهداء الكتاب. هذا البيت هو:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وأظن أن الكثير منكم يعلم من صاحب هذا البيت .. انه شاعر البحرين طرفة بن العبد ... من عبدالقيس ... وهو صاحب المعلقة المشهورة باسمه. ومكانته مشهورة مع الصحيفة التي أدت إلى مقتله وهو في ريعان الشباب ولم يتجاوز السبعة وعشرين عاما. والتي عرفت فيما بعد بصحيفة المتلمس، وهو خال طرفة شاعر جيد أبي النفس.

تقول الرواية أن طرفة وخاله المتلمس هذا ذهبا إلى ملك الحيرة عمرو بن هند فإبطأ في ملاقاتهما وأمعن في اذلالهما حتى أحسا بالملل والتذمر فتبادرا على هجائه سرا فيما بينهما ومما قالاه (فليت لنا مكان الملك عمرو رغوث حول قبتنا تدور) . فعرف بذلك ملك الحيرة وأسره في نفسه ثم لما دخلا عليه تظاهر باكرامهما وسلم كل واحد منهما كتابا إلى عامله في البحرين ليتسلما منه جائزة لكل منهما. وتقول الرواية أن المتلمس شك في أمر الصحيفة وأشار على طرفة بان يفض كل منهما الختم عن الكتاب ليقرا فحواه، لكن طرفة رفض وأصر على المضي بالكتاب لأنه كان واثقا من حصوله على الجائزة. فافترقا .. ووجد المتلمس من يقرا له الصحيفة وفيها الأمر بقتله.

وقيل انه لشكه فيها ألقاها في النهر وهو يقول :

قذفت بها في اليم من جنب كافر	كذلك القي كل رأي مضلل
رضيت بها لما رأيت مدادها	يجول بها التيار في كل جدول

ومن هنا جاء المثل المشهور في الشؤم (أشأم من صحيفة المتلمس) .

أما طرفة بن العبد فقد حمل معه كتاب ملك الحيرة، وتقول الرواية إن عامل الملك على البحرين وكان ممن يمت إلى طرفة بصلة، ساوره الشك أيضا بمضمون الكتاب وأشار على طرفة أن ينجو بنفسه قبل فض الكتاب، لكن طرفة أصر عليه بان يفتح الكتاب وينفذ ما فيه واتهمه بالغيرة والحسد والرغبة بالاحتفاظ بالجائزة لنفسه، فلما قرأ العامل كتاب النعمان عليه بقتله خيره في رغبة أخيرة قبل الموت فطلب طرفة أن يسقيه خمرا ثم يفصده، وهكذا قضى نحبه وهو دون الثلاثين من عمره.

والسؤال الوارد هنا: ما هو سر إصرار طرفة بن العبد على الوالي رغم معرفته بالشكوك حول فحوى الكتاب؟

تذهب الأخبار والحكايات والتعليلات بهذا الصدد كل مذهب. ومن أطراف تلك الآراء إن طرفة كان يتنبأ بمصرعه وانه أوصى ابنة أخيه بان تنعاه بعد موته بما هو أهل له وان تشق عليه الجيب:

فان مت فانعيني بما أنا أهله	وشقي علي الجيب يا ابنة معبد

جاء في موسوعة الشعر العربي عن طرفة ((ثم ينتهي الشاعر إلى التنبؤ بقرب نهايته، بنوع من الاستشراف الداخلي الغريب الذي يعرفه بعض عباقرة الألم والإبداع في ذروة من وجودهم فلكأن طرفة شهيد الشباب، ما كان يرى من نهاية مناسبة لحياته الحافلة الا الموت، بل القتل.

جاء في موسوعة الشعر العربي عن طرفة ((ثم ينتهي الشاعر إلى التنبؤ بقرب نهايته، بنوع من الاستشراف الداخلي الغريب الذي يعرفه بعض عباقرة الألم والإبداع في ذروة من وجودهم فلكأن طرفة شهيد الشباب، ما كان يرى من نهاية مناسبة لحياته الحافلة الا الموت، بل القتل.

كما تصف الموسوعة طرفة بأنه واحد من الشعراء الوجوديين الكبار، لاتحاد موقفه الذاتي مع جوهر اللحظة الإنسانية والفلسفية الخالدة. وفي بحث آخر في مجلة البحرين يقول د. محمد جابر الأنصاري عن طرفة ما يلي:

((معلقة طرفة وبعض أشعاره الأخرى تشمل نظرات فكرية سابقة لأوانها وتأملات في الكون والحياة والموت لا يمكن إن تنبت من فراغ فكري وتلك مسألة استوقفت طه حسين في تحليله لمعلقة طرفة التي وصفها بأنها من احكم الشعر فضلا عن كونها من أجمله وأعذبه.

اعتقد إن هناك سؤالا كبيرا لم يكترث بتحليله الأدباء كثيرا وهو: لماذا أصر ملك الحيرة على قتل طرفة وخاله (المتلمس) على يد عامله في البحرين ... ؟ وهل هناك ظروف أو مصالح سياسية آنذاك تبرر مثل هذا العمل المشين؟

وحتى يأتي من يكشف السحب المتراكمة بالغموض عن حياة هذا الشاعر الفذ وظروفها وملابساتها، من الأفضل إن ننتقل إلى حكاية شاعر آخر من البحرين ... وهو في هذه المرة علي ابن المقرب ... من شعراء البحرين في القرن السابع الهجري. وهو سليل أسرة حاكمة وليت شئون هذا البلد حقبة من الزمن، فهو ينتمي إلى الأمير عبدالله بن علي العيوني الذي انتزع الإحساء من حكم القرامطة واستولى على القطيف، وجزيرة أوال (البحرين) فأسس بذلك إمارة العيونيين في منطقة البحرين. فشاعرنا ابن المقرب إذن أمير ... لكنه أمير ناقم على الأوضاع التي كانت سائدة في عصره. أدى به سخطه على الوضع ومعارضته لسياسة القائمين بالحكم إلى حبسه ومصادرة أملاكه وبساتينه ولما خرج من السجن مطالبا بحقوقه المستلبة، وجد إن فساد الأوضاع العامة أحق بالهجاء والتشهير فاستأنف حملة التنديد والنقد متجاوزا همه الخاص إلى هموم بلاده وقومه وهو يقول :

كنت قبل اليوم ابكي بشجي ... هم نفسي وطريفي وتلادي

ثم قد أصبحت ابكي بأسى ... شجو أخواني ورهطي وبلادي

واضطره السجن والتضييق علي حريته إن يتجه نحو العراق في المرة الأولى والى الموصل وديار بكر في المرة الثانية، وهو يسوق مبررات تلك الهجرة قائلا:

ومن يثـو في دار الهوان يعش بها ... أخا مضض لا يبرح الدهر شاكيا
فـان عقلت قـومي لساني بأرضها ... فليـس بمعقـول إذا كنـت نـائيا
سأرسـل فيهـا بالـدواهـي شـواردا ... تنبـه ذا عقـل وتفهـم واعيـا

وثورة ابن النقرب هذه تظهر أحيانا ضمنية في شعره كقوله مخاطبا أهل البحرين ......

يا ساكن الخط والجرعاء من هجر ... هـل انتظـاركم شيئا سوى العطب
بححـت ممـا أنـاديكـم وأنـدبكـم ... لخيـر منقـلب عـن شـر منقـلب
فسكتـونـي بقـول لا تـفـون بـه ... قـد صرت ارضي بوعد منكم كذب

أو مخاطبا الأمراء في الإحساء معرضا بسيرتهم الشخصية المنحرفة واستسلامهم إلى اللهو في غفلة عن تربص الأعداء بهم وببلادهم حيث يقول مخاطبا أمير الإحساء:

وغر على الملك من لعب الرجال به ... فالملك ليـس بثبـات على اللعب ..
دعـاي: يـا رب الهـم رب دولتـنـا ... إن يبلـغ الـرأس منا رتبة الذنب ..

وأحيانا أخرى تكون ثورته صريحة في شعره كقوله مخاطبا أولئك الأمراء:

فيا ضيعـة المدح الـذي سـار فيكم ... على السنن الـراوين سير الركائب
لان كنـت لا كنتـم قذى في عيونكم ... فـانـي شفـاء للعيـون الضـوارب
أغـركـم دهــر خسيـس أحـلـكـم ... مـراتـب ما كـانـت لكـم بمـراتب

أو مخاطبا بني قومه :

أعـربـت حـين دعــوت إلا انــه ... لا يبلـغ الأمـوات صـوت دعـائها
إن تـرفض قومي الهون في فطالما ... عمـدا أهنـت النفـس في مـرضاتها

أو متحسرا على استئثار الأعداء بخيرات بلاده قائلا :

ولا تحســدن فيهـا رجـالا بشبعهـا ... فخيـر لهـا من ذلك الشبـع جوعها
وليـس لنـا في الـدر إلا محـــاره ... ولا في عـذوق النخـل الا قمـوعهـا
فبعـــدا لـــدار خيـرها لعـدوهـا ... وقـوم بأسـوا كـل حـال قنـوعهـا
عفـاء على البحـرين لو قيل أينعت ... دنـانيـر واديهـا وجـادت زروعهـا
فهـل ذاك الا للعــدو وغـصــة ... سيـأتي بهـا متبـوعهـا وتبـوعهـا

لقد سبق لي إن كتبت عن حياة هذا الشاعر وسيرته وأسلوبه الفني بشيء من التفصيل والتحليل في مجلة صوت البحرين عام ١٩٤٩ . ورأيت إن اكتفي في هذا الحديث بالإيجاز المخل بدلا من التفصيل الممل. لهذا انهي الحديث عن ابن المقرب بهذه الفقرة من كلام د. محمد جابر الأنصاري الذي يقول :

((لا نبالغ إذا قلنا إن ابن المقرب هو متنبي البحرين. وكطرفة بن العبد فابن المقرب ليس ظاهرة فردية، ولا بد إن جوا فكريا وأدبيا كان يعمل حوله. وهذه مسالة خافية من مساحات البحث الجديدة. وحكم العيونيين في البحرين وجزر البحرين استمر من قرنين إلى ثلاثة قرون لم يتعرض لأضواء البحث التاريخي المتكامل)).

علي ابن المقرب إذن، هو الذي فجر ذلك الصمت الأدبي الطويل الذي هيمن على المنطقة لقرون عدة، وقد فجره بقوة وعنف ولعل رأى الدكتور الأنصاري الذي يفترض وجود أرضية أدبية غنية لم يكشف التاريخ الأدبي عنها النقاب بعد، له ما يبرره .. الا إن فترة ما بعد ابن المقرب التي تم تدوين أكثرها في مؤلفات علماء البحرين وأدبائها كانت خصبة العطاء. وعلى امتداد القرن الثامن وحتى القرن الثالث عشر الهجري ازدهر في جزر البحرين سوق العلم كلما ازدهر الأدب والشعر في كنف العباءة الدينية والعمامة.

يقول الشيخ علي بن حسن البلادي البحراني – صاحب أنوار البدرين في تراجم شعراء القطيف والإحساء والبحرين: ((فانك بعد إن سمعت ما قلناه عن جدنا المقدس المرحوم من إن بيتنا وحدة اجتمع فيه أربعون عالما بين مجتهد ومشرف على الاجتهاد في عصر واحد من الإعصار، والحال للآن لم نعرف عنهم الا القليل لاضمحلال الآثار والبعد عن الديار... وكذلك ما نقلناه عن الأمجد الشيخ علي ابن محمد المقابي من حضور ما يزيد على ثلاثمائة عالم من البحرين في وقت من الأوقات وساعة من الساعات ومكان من الأمكنة)).

وظل الأدب يسير في ركاب الدين ردوحا من الزمن حتى خبت شعلتهما معا في أواخر القرن الثالث عشر الهجري وابتداء من العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين استقل الأدب والشعر عن المدارس الدينية لينشيء كل منهما لنفسه مسارا مستقلا على سلم التطور والتجديد.

وتحفل الكتب والمراجع والأجازات العلمية التي كتبت عن تلك الفترة من تاريخ البحرين، بأسماء لا عد لها ولا حصر للعلماء والفقهاء والافذاذ من الأدباء والشعراء الذين امتلأت بهم محافل العلم والأدب على امتداد هذه الجزيرة. وستجد في تلك الكتب أسماء ألاماكن والأشخاص. فمن تلك الأمكنة قرى المحرق، والمنامة، وعراد وسماهيج والدراز والقدم والشاخورة، وبني جمرة وجدحفص، والبلاد القديم، والغريفة، والماحوز، والنبيه صالح، وتوبلي وسترة وكثير غيرها. وأما الأشخاص فهم جمع حاشد من الفقهاء والأدباء والشعراء ممن ينتسبون

ممن ينتسبون إلى واحدة أو أكثر من تلك المناطق في البحرين. وتضم مقابر البحرين القديمة رفات هؤلاء العلماء في (المصلى) وابوعنبرة، (والمشهد) وجزيرة النبيه صالح ومقبرة (هرتا) والشيخ ميثم والماحوز وغيرها من المواضع الأخرى. وكان الكثير منهم يهاجر من البحرين بسبب مصائب الغزو ونكباته أو قلة المعاش أو طلب العلم ويتم تعيينهم في القضاء ودور العلم في إيران وحيدرأباد السند والعراق وبعض الأقطار المجاورة.

إلا إن الالتزام بموضوع هذه الأمسية يقتضي منا الاختصار على سرد الظواهر والحكايات التي نشأت في ظل ذلك الوسط العلمي والأدبي الذي أشرت إليه.

لنأخذ أولا .... حكاية ((كل يا كمي)) :

صاحب هذه الحكاية عالم فاضل من علماء القرن السابع الهجري هو الشيخ ميثم بن علي البحراني من قرية الماحوز وقبره موجود للآن يزوره الناس في احدى قراها وهي قرية (هلتا). ومن مؤلفاته المشهورة شرح نهج البلاغة وقيل انه جاء على ثلاثة اشكال : الشرح الكبير والشرح المتوسط والشرح الصغير.

وقد وردت حكاية ((كل يا كمي)) في عدة كتب منها لؤلؤة البحرين للعلامة الشيخ يوسف بن احمد البحراني المتوفى سنة ١١٨٦ هجرية وملخص ما ورد فيها إن الشيخ ميثم لزم منزله لضيق ذات يده واعتكف فيه مشتغلا بتحقيق حقائق الفروع والأصول فكتب إليه فضلاء الحلة والعراق يلومونه على اعتزاله بدلا من السفر لنشر ما عنده من علوم والاستزادة من علوم غيره، ولما كانت حالته المادية لا تسمح له بذلك فقد كتب في جوابه لهم هذه الأبيات :

طلبت فنون العلم ابغي بها العلى	فقصر بي عما سموت به القل
تبين لي إن المحاسن كلها	فروع وان المال فيها هو الأصل

لكن لومهم ازداد بعد وصول جوابه واستنكروا منه الحديث عن أصالة المال فأجابهم بهذه الأبيات لبعض الشعراء المتقدمين وقيل هي من شعره:

قد قال قوم بغير علم	ما المرء إلا باصغريه
فقلت قول أمريء حكيم	ما المرء إلا ببدر هميه
من لم يكن درهم لديه	لم تلتفت عرسه إليه
وظل في بيته وحيدا	يبول سنوره عليه

ثم انه لما علم إن مجرد المراسلات والمكاتبات لا تنفع توجه إلى العراق وبعد الوصول لبس ثيابا خشنة عتيقة، ودخل بعض مدارس العراق، المشحونة بالعلماء والحذاق، فسلم عليهم فرد بعضهم عليه السلام بالاستثقال والامتناع التام، فجلس في صف النعال ولم يلتفت إليه احد منهم، ولم يقضوا واجب حقه، وفي إثناء المباحثة وقعت بينهم مسالة مشكلة دقيقة كلت فيها إفهامهم، فأجاب بتسعة أجوبة في غاية الجودة والدقة، فقال له بعضهم – بطريق السخرية والتهكم – يا خليلك .. أخا لك طالب علم.

ثم بعد ذلك حضر الطعام فلم يؤاكلوه بل افردوه بشيء قليل على حدة واجتمعوا هم على المائدة فلما انقضى ذلك المجلس قام. ثم انه عاد في اليوم الثاني إليهم وقد لبس ملابس فاخرة، ذات أكمام واسعة، وعمامة كبيرة وهيئة رائعة، فلما قرب وسلم عليهم قاموا تعظيما له واستقبلوه تكريما، وبالغوا في ملاطفته ومطايبته واجتهدوا في تكريمه وتوقيره، وأجلسوه في صدر ذلك المجلس، ولما شرعوا في المباحثة والمذاكرة تكلم معهم بكلمات عليلة لا وجه لها عقلا ولا شرعا، فقابلوا كلماته العليلة بالتحسين والتسليم، فلما حضرت مائدة الطعام بادروا معه بأنواع الأدب فألقى الشيخ ميثم كمه في ذلك الطعام مستعتبا على أولئك الأعلام وقال: كل يا كمي، فاخذوا في التعجب والاستغراب، واستفسروه فأجاب – بأنكم إنما أتيتم بهذه الأطعمة النفيسة لأجل أكمامي الواسعة، لا للنفس القدسية اللامعة، وألا فانا صاحبكم بالأمس وما رأيت تكريما ولا تعظيما، مع أني جئتكم بالأمس بهيئة الفقراء، وسجية العلماء، واليوم جئتكم بلباس الجبارين، وتكلمت بكلام الجاهلين، فقد رجحتم الجهالة على العلم، والغنى على الفقر. فاعترفوا بخطئهم واعتذروا عما صدر منهم من التقصير بشأنه.

بعد هذه الحكاية كل يا كمي. ننتقل إلى حكاية الشيخ الذي رأى جزيرة البحرين ترفع إلى الجنة بمن فيها : تنسب هذه الحكاية إلى الشيخ الحسين ابن الشيخ عبدالصمد الحارثي ألعاملي الجبعي نسبة إلى جباع وهي احد قرى جبل عامل.

والحارثي نسبة إلى الحارث الهمداني من أصحاب الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام. والذي يروى إن مولانا الإمام علي خاطبه بأبيات مشهورة يقول فيها:

يا حـار همـدان من يمـت يـرنـي	**من مـؤمـن أو منـافـق قبلا ...**
وأنـت عنـد الصـراط معتـرض	**فـلا تخـف عثـرة ولا زلـلا ...**
أسقيـك مـن بـارد على ظمـأ	**تخـالـه فـي الحـلاوة العسـلا**

وأما حكاية المنام الذي رآه فهي انه كان في مكة المشرفة مهاجرا من جبل عامل قاصدا الجوار فيها إلى أن يموت ثم انه رأى في المنام أن القيامة قد قامت وان ارض البحرين رفعت وما فيها إلى الجنة، فلما رأى هذه الرؤيا آثر الجوار في البحرين والموت في آرضها، فجاء البحرين. وأقام الشيخ صاحب الرؤيا في البحرين حتى توفى فيها سنة ٩١٨ هجرية ودفن في قرية تسمى (المصلى) وقبره معروف فيها إلى اليوم.

وقد اشتهر من بعده ولده محمد بن الحسين المعروف بالبهائي، الذي ذهب إلى أصفهان وأصبح شيخ الإسلام فيها والذي رثى أباه بقصيدة منها :

يا جيرة هجروا واستوطنوا هجرا	واها لقلبي المعني بعدكم واها
ويا ثاويا بالمصلى من قرى هجر	كسيت من حلل الرضوان أضفاها
أقمت يا بحر بالبحرين فاجتمعت	ثلاثة كن أمثالا وأشباها
ثلاثة أنت أنداها وأغزرها	جودا وأعذبها،طعما واصفاها
حويت من درر العلياء ما حويا	لكن درك أعلاها وأغلاها
ربوع فضل تباهى التبر تربتها	ودار انس تخال الدر حصباها
عدا على جيرة حلوا بساحتها	صرف الزمان فابلاهم وابلاها

وإذا ذكر الشيخ محمد بن الحسين البهائي ألعاملي صاحب الأبيات المذكورة فان اسمه يقترن عادة بأسمى علمين من معاصريه في القرن الحادي عشر الهجري جمع كل منهما صفة الأديب الشاعر إلى جانب علوم الفقه والدين ... اولهما السيد أبو علي السيد ماجد السيد هاشم البحراني وثانيهما العالم الشاعر الأديب الشيخ العلامة أبو البحر جعفر بن محمد الخطي – احد بني عبدالقيس. فأما الأول فكان معاصرا للشيخ البهائي والشيخ الخطي ومصاحبا له وقد جرت بينه وبينهما لاسيما الخطي مسامرات شعرية ومساجلات وقد توفى بدار العلم في شيراز سنة ١٠٢٨ هجرية. ومن شعره في الحنين إلى البحرين قوله :

يا ساكني جدحفص لا تخطفكم	ريب المنون ولا نالتكم المحن
ولا عدت زهرات الخصب واديكم	ولا اغب ثراه العارض الهتن
ما الدار عندي وان ألفيتها سكنا	يرضاه قلبي لولا الألف والسكن
مالي بكل بلاد جئتها سكن	ولي بكل بلاد جئتها وطن
الدهر شاطر ما بيني وبينكم	ظلما فكان لكم روح ولي بدن
مالي ومالك يا ورقاء لا انعطفت	بك الغصون ولا استعلى بك الفنن

مثير شجوك اطراب صدحت بها ومصدر النوح مني الهم والحزن
وجيرتي لا أراهم تحت مقدرتي يوما والفلك تحت الكشح محتضن

وأما الثاني وهو الشيخ جعفر بن محمد الخطي فهو الشاعر المشهور بقصيدته عن السبيطية. وله ديوان مطبوع، وقد وصفه بعض النقاد كالدكتور الأنصاري بأنه لجزالة ألفاظه يذكر في عمود سامي البارودي في مصر في محاولته إحياء أسلوب البلاغة الشعرية العربية. ويحكى إن الخطي لما دخل أصفهان في عام ١٠١٦ هجرية للقاء أمامها بهاء الملة ألعاملي اقترح عليه البهائي مجاراة قصيدته والتي مطلعها :

سرى البرق من نجد فهيج تذكاري عهود بجزوى والعذيب وذي قار

وقال له أجلتك شهرا .. فقال له الشيخ الخطي بل يوما .. بل في مجلسي هذا ... ثم اعتزل ناحية في المجلس وانشاها ارتجالا ومن قوله فيها ما يلي :

هي الدار تستسقيك مدمعك الجاري فسقيا .. فخير الدمع ما كان للدار
عشوت إلى اللذات منها على سنا شموس وجوه ما يغبن وأقمار
نواصع بيض لو أفضن على الدجا سناهن لا سيتغنى عن الأنجم الساري
حرائر ينظرن الأصول بأوجه تغض بامواه النضارة أحرار
معاطيرلم تغمس يد في لطيمة لهن ولا استعبقن جونة عطار
أبحنك ممنوع الوصال نوازلا على حكم ناه كيف شاء، وأمار
إذا بت تستسقي الثغور مدامة أتتك فحيتك الخدود بأزهار
أموسم لذاتي وسوق مآربي ومجني لباناتي ومنهب اوطاري
سقتك برغم المحل أخلاف مزنة تلف إذا جاشت سهولا باوعار

ومن مظاهر تنوع المواضيع والإغراض الشعرية عند الخطي قوله في الخمريات وقد جارى بها أبا نواس وذلك سنة ١٠٠٠ هجرية :

وليلة بت تجلو لي حنادسها مدامة كدم المذبوح حمراء
كالنار والماء إن شيمت وان لمست وفي الحقيقة لا نار ولا ماء
شمطاء عذراء في دن وفي قدح فأعجب لها وهي شمطاء وعذراء
كأنها في الدجا والزق يقذفها برق لها من خلال الغيم لألاء

يسعى بها شادن ميل معاطفه   داجي الغدائر قاني الخد أحواء
له محلان في قلبي وفي بصري   سواد هذا ومن ذاك السويداء
وشابها نطفة من فيه صافية   كالراح فهي مع الصهباء صهباء
لحا على شربها قوم وما علموا   يا ويحهم إن ذاك اللوم إغراء
ساء الذين نهوا عن شربها ولقد   شرابها أحسنوا صنعا وما ساؤا

على إن الحكاية عن الخطي لا تكتمل إلا بإيراد قصته مع سمكة السبيطية التي شجت وجنته اليمنى، فجاءت على أثرها قصيدته المعروفة في الأدب العربي بالسبيطية، وكان سببها انه لما توسط الماء بين قرية توبلي وقرية أبو أبهام من ناحية المنامة، طفرت في وجهه سمكة من النوع المسمى في البحرين بالسبيطي وهو موجود إلى يومنا هذا، ومما قاله فيها :

برغم العوالي والمهندة البتر   دماء أراقتها سبيطية البحر
دم لم يرق من عهد نوح ولا جرى   على حد ناب للعدو ولا ظفر
تحامته أطراف القنا وتعرضت   له الحوت.. يا بؤس الحوادث والدهر
أيرضيكما أن أمرا من بنيكما   وأي امرئ للخير يدعى وللشر
يراق على غير الضبا دم وجهه   ويجري على غير المثقفة السمر
وتنبو نيوب الليث عنه وينثني   اخو الحوت عنه دامي الفم والثغر
ليقض امرؤ من قصتي عجبا فمن   يرد شرح هذا الحال ينظر إلى شعري

ثم يبدأ الخطي في سرد تفاصيل قصته وانه الرجل المشهور الذي تولع به صرف القضاء، ويصف دخوله للبحر مع ابنه قائلا

تلججت خور القريتين مشمرا   وشبلي معي والماء في أول الجزر

وبعد إن ضربته السمكة الظافرة في وجهه وسالت منه الدماء يصف حاله فيقول

يطوحني نزف الدماء كأنني   نزيف طلى مالت به نشوة الخمر
فمن لا مرئ لا يلبس الوشي قد غدا   وراح موشى الجيب بالنقط الحمر
فها هو قد ألقى بوجهي علامة   كما اعترضت بالطرس، اعرابة الكسر

ثم يصف عودته للمنزل بدمائه التي خيل للناس انه قام بها من ساحة الحرب ثم يتهدد كل من يهم بان يجترئ عليه- غير الحوت- برجال يخوضون إلى نصرته الموت وبعدها يفخر بشعره ومهارته في الهجاء وامتلاك ناصية القوافي بقوله :

فلست بمولي الشعر إن لم أزجه ... بكل شرود الذكر أعدى من العر
اضر على الأجفان من حادث العمى ... وأبلى على الأذان من عارض الوقر
يخاف على من يركب البحر شرها ... وليس بمأمون على سالك البر
تجوس خلال البحر تطفح تارة ... وترسو رسو الغيض في طلب الدر

وبعد – فان إلقاء مزيد من الأضواء على هذه الحقبة الأدبية من تاريخ البحرين يحتاج إلى وقفة طويلة، ومجال في البحث أوسع امتدادا لهذا فأنني وقد قررت إن أقاوم رغبة الاسترسال – لابد وان انصرف عنها إلى حكايات من القرن العشرين وفي المنتصف الأول منه على وجه التحديد. ذلك إن التاريخ لأدب في البحرين بعد الخمسينات قد تصدى له عدد لا باس به من الأدباء والنقاد الذين أسهموا بدراستهم وأبحاثهم في إلقاء الأضواء على النتاج الحديث وتيسير مهمة النقاد الباحثين وتوفير المصادر والنصوص الأدبية في مجال الشعر والنثر والفن القصصي بأنواعه.

سأتوقف معم إذن عند محطات قليلة هي بمثابة علامات على الطريق لكل واحدة منها مناسبة وحكاية.

من المعروف أن بداية القرن العشرين قد شهدت في البحرين حركة فكرية واهتمامات وأنشطة أدبية وتعليمية واجهة جيل الرواد فيها مشاعر دينية متزمتة. وكان محور تلك الحركة الفكرية جيل الفكر الإسلامي والثقافة الحديثة الذي بشر به ودعا إليه شباب البحرين ممن درسوا في الأزهر بمصر وجامعة عليكره في الهند وغيرهم ممن تلقى التعليم في العراق وسوريا ولبنان. وقد لاقت أفكار السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي صداها بينهم من خلال قراءتهم للصحف والمجلات أمثال العروة الوثقى للأفغاني ومحمد عبده والمؤيد لعلي يوسف، والمنار لرشيد رضا، واللواء لمصطفى كامل والمقتطف وغيرها،أو عن طريق المراسلات، والبعثات التعليمية والأسفار. ولعله ليس من قبيل الصدف إن تشهد هذه الفترة ذاتها (العقد الأخير من القرن التاسع عشر والأول من القرن العشرين) نشاطا تبشيريا مسيحيا تمحور حول إنشاء المستشفى الإرسالية الأمريكية، ومركز الخليج للتبشير عام ١٨٩٤ ومدرسة صغيرة ومكتبة لبيع الكتب المسيحية وذلك على يد القيس المبشر والمستشرق المشهور صموئيل زويمر، وقصص التبشير والمبشرين في البحرين والخليج العربي

كتب عنها الكثير... ولكني اذكر حكاية تروى على الألسن في البحرين ... فقد كان من المألوف إن يقف واحد من القساوسة ليخطب في الجمهور المحتشد قبل افتتاح عيادة مستشفى الإرسالية الأمريكية أو قبل بدء الحصص المدرسية مبشرا بالمسيح وقد اشتكى بعضهم لرؤسائه من ظاهرة غريبة لدى أهل البحرين، وهو انه كلما ذكر فضيلة أو عدد كرامة أو معجزة للسيد المسيح عليه السلام هتف الحاضرون: (اللهم صل على محمد وآل محمد) حتى حصل لبعضهم من افهمهم إن أهل البحرين هم مثل جميع المسلمين يعتبرون المسيح نبي الله وان تلك الكرامات والمعجزات والفضائل وردت في القرآن الكريم، فهم يصدقون عليها بالصلاة على النبي وذلك على عادة المسلمين.

وفي مقابل تلك المساعي التبشيرية أسس نفر من أولئك المثقفين أول ناد في البحرين تحت اسم نادي أوال أو (مكتبة إقبال أوال) دون إن يستشيروا لسوء حظهم قاضي القضاة في البحرين آنذاك فضيلة الشيخ قاسم المهزع الذي تظاهر بتجاهلهم في أول الأمر، وكان من انشط أعضاء النادي الأديب ناصر الخيري أمين سر النادي، الذي فتح بينه وبين الأستاذ الشيخ رشيد رضا صاحب المنار حوارا دينيا لم يرتح إليه فضيلة القاضي واعتبر الحوار من قبيل إثارة الشكوك في الدين تحت شعار حرية السؤال والبحث. وكانت بعض تلك الأسئلة حول الحكمة من تقبيل الحجر الأسود ورمي الجمار وما شابه من طقوس المسلمين في الحج، وكذلك حرية تملك الرقيق والرقص والغناء فلما قراها القاضي قاسم المهزع استشاط غضبا وطلب حضور أصحاب النادي لمجازاتهم على ما فعلوه. أما ناصر خيري فكان له الحظ الأكبر من غضب الشيخ إذ هدده بان يجدع انفه.

وإذا كان ناصر خيري قد نجا بأعجوبة من جدع انفه بمن تشفعوا له، فان النادي لم يسلم وتم إغلاقه بعد حوالي سنة من إنشائه. فهل يا ترى قد جنى على النادي تساؤلات ناصر الخيري المتشككة أم تشاؤم المبشرين من الرقم ١٣ .. حيث إن تاريخ إنشاء هذا النادي كان في عام ١٩١٣ .

والجواب بالطبع لا هذا ولا ذاك ، وقد أمدتنا مقالة الأديب الناقد عبدالله خليفة مؤخرا على صفحات أخبار الخليج بتحليلات جادة عن مظاهر هذا الصراع فهو يقول: ((ليس صراع قاسم المهزع وناصر الخيري صراعا مجردا ، بل هو جزء من صراع معقد . مثل فيه الأول الدفاع عن النظام الوطني العتيق بكل أثقاله ومثل فيه الثاني جماعات المظلومين والمتعبين من علاقاته غير العصرية والبالية ، ولكن دون أن يكون لديهم العمق الفكري لاكتشاف طبيعة الظاهرة وتناقضاتها وتوظيفها سياسيا لدى الإنجليز . ولم يكن ذلك موقف قاسم المهزع فحسب بل كان موقف جمهور من المثقفين وأبرزهم عبدالله الزايد الذي أسس مع زملائه (النادي الأدبي) أكثر

الأندية خطورة وعلاقته مباشرة بالصراع السياسي والاجتماعي ((ثم يضيف)) : وهكذا فان خطي الحياة الفكريين واصلا البقاء والنمو، وفي حين تقوقع التيار التقليدي، فان التيار ((العصري)) واصل الانتشار عبر المدارس والصناعة، والتجارة، وكافة أشكال الحداثة)).

أقول لعل السيد عبدالله خليفة يقصد بالحداثة مظاهر التحديث وهو ما كان يسمى آنذاك ((بالتمدن الحديث)) وللعلم فان النادي الأدبي تأسس في البحرين في مدينة المحرق عام ١٩٢٠ وضم بين مؤسسيه ومناصريه أسماء لامعة في العقد الثالث من هذا القرن من أبرزها الشيخ إبراهيم بن محمد الخليفة والشاعر الأديب عبدالله الزائد.

وإذا ذكر النادي الأدبي فيذكر بجانبه المنتدى الإسلامي المؤسس في المنامة عاصمة البحرين عام ١٩٢٨ كما تذكر معهما حكايتان لكل واحدة منهما مناسبة خاصة.

فالمناسبة الأولى هي حفل تكريم أمير الشعراء احمد شوقي في مصر وتنصيبه أميرا للشعراء في سنة ١٩٢٧. وقد قرر النادي الأدبي المشاركة في ذلك الاحتفال بصورة مشرفة للبحرين وذلك بتقديم هدية تذكارية هي عبارة عن نخلة صغيرة من الذهب الخالص وثمارها من لؤلؤ البحرين المشهور مرفقا بها قصيدة شعرية. وقد حازت تلك الهدية على الإعجاب من احمد شوقي نفسه ومن المحتفين به، ورفعت اسم البحرين عاليا في الأوساط الأدبية، وقد ذكرها أمير الشعراء في شعره ومما قاله :

قلدتني الملوك من لؤلؤ البحرين ... آلاءها ومن مرجانه
نخلة لا تزال في الشرق معنى ... من بداواته ومن عمرانه

وأما القصيدة التي اهديت لشوقي مع النخلة فقد نظمها الشاعر خالد الفرج ومما قال فيها :

من منبت الدر تسليم وتكريم ... لشاعر اللغة الفصحى وتفخيم
حياك من دارنا البحرين لؤلؤها ... والنخل إذ بسمت فيه الاكاميم
يا شاعر الضاد إن الوحي منقطع ... فكيف شعرك بالإعجاز منظوم
لا وحي، لا سحر، لا الهام يفرغه ... على شعورك تلقين وتعليم
فإنما كل معنى أنت ترسله ... صافي الزلال وأكباد الورى هيم
وكل مصراع بيت ريشة خفقت ... لها على وتر الإحساس ترنيم

ومن حديث مهرجان الفرح واللؤلؤ والتكريم مع النادي الأدبي، ننتقل إلى حديث العزاء والتأبين مع المنتدى الإسلامي. فقد أقام المنتدى الإسلامي في عام ١٩٣٢ حفلة تابينية كبرى لوفاة أمير البحرين المغفور له الشيخ عيسى بن علي الخليفة خيمت عليها سحابة الحزن ممتزجة بالمشاعر الوطنية اللاهية، فأمطرت تلك السحابة دموعا من الشعر الوطني السياسي الحزين. وقد استأثرت بعواطف الجمهور من بين تلك الأشعار والقصائد. قصيدة الشاعر العراقي ألنجفي المعروف محمد صالح بحر العلوم وقد دارت أبيات القصيدة على الألسن وحفظها الناس في البحرين حتى ارتبط اسم الشاعر في أذهانهم بهذه المناسبة. ومما قاله في تلك القصيدة هذه الأبيات المختارة:

الأرض ترجف والسماء تمور	والريح تنسف والخليج يفور
والجو ينحب والطبيعة شاعر	ينعى وشعر دموعه منثور
أرواحنا مثل الزجاج يصيبها	كسر وديدن دهرنا التكسير
نمسي ونصبح كالبهائم همنا	علف، وهم خصومنا التسخير
لا نهتدي للخير إلا بالعصا	كالعبد يبطل شره التحقير
لو أنصفت عيسى عقول رجاله	وحدا بها الامعان والتفكير
لأعاد مجد السالفين بهمة	شماء يعجز وصفها التعبير
حتى أثار الجو زوبعة بها	خص الخليج فعمه التغيير
نسفت سعادتة ومنعة شعبه	وحقوق أمته وهن نذور
ما بين عيسى والمسيح فوارق	إلا وواضح سترها منشور
هذا بمشنقة السياسة روحه	انتزعت، وذاك مشبه منظور
عفوا فزلات اللسان كثيرة	والبعض منها جائز مغفور
آل الخليفة إن تكدر عيشكم	آنا، فعيشي كله تكدير
لقد استراح أبوكم من امة	قد غرها البهتان والتزوير
باعت لشهوتها ضمير إبائها	ومن البلية إن يباع ضمير
مدح تكال وشاعر متملق	وهوى يطاع وكاتب مأجور
ما عارض الدين الوفاق وإنما	بث الشقاق معمم مأجور
سيروا على ضوء الأمام ونوروا	رأي العوام وهكذا التنوير
فمن البلاهة إن نفوز بفرصة	فنغض عنها الطرف وهو حسير

ولكن قصيدة بحر العلوم بقدر ما أرضت الجماهير أغضبت الاحتلال فأصدر المستشار الإنجليزي أمرا بتسفيره من البحرين والغي حفلات الأندية والهيئات الثقافية في البلاد التي دعت بدورها إلى إحياء هذه المناسبة ومنها النادي الأدبي.

ويقال إن الشاعر بحر العلوم اضطر وقد دعي إلى المشاركة إلى واحدة من تلك الحفلات التي تم إلغاؤها إن يقتصر على بيتين من الشعر فقط لكنهما كانا ابلغ من قصيدة كاملة صار لها وقع عظيم لدى المجتمعين ... وقد قيل في ذلك انه لما صعد المنصة طلب كأسا من الماء فشرب منه قليلا ثم ألقاه وهو يقول :

قالت الضفدع قولا — فسرته الحكماء

في فمي ماء وهل ينطق — من في فيه ماء؟

وحين اخرج من البحرين على اثر ذلك مخفورا من قبل الإنجليز ... كان لسانه يهتف بأبيات أخرى يقول فيها :

كفى هوانا بقوم إن ناصحهم — يساق بالجند مطرودا من البلد

وهكذا فان تلك الحادثة وذيولها وحكاياتها انسحبت على الأندية الأدبية وأنشطتها حتى خبي نورها شيئا فشيئا لتفسح المجال لشباب الصف الثاني من المثقفين لتجديد المحاولة ابتداء من عام ١٩٣٧ .

وما دمنا على أعتاب الأربعينات من هذا القرن فيجدر بنا ان نتوقف ولو قليلا لنرصد حدثا ثقافيا مهما إلا وهو صدور أول صحيفة أسبوعية في شرق الجزيرة العربي — تم تأسيسها من قبل الأديب والشاعر عبدالله الزائد وفي المناسبات والإحداث الأدبية التي نشرت على صفحات هذه الجريدة مجال واسع للحكاية والقول. ولكني اكتفي بالإشارة إلى بروز أول معركة أدبية في الخليج على صفحاتها استمرت منذ عام ١٩٤١ لغاية فبراير ١٩٤٢ . وقد ثارت تلك المعارك الأدبية على اثر نشر نتاج شاعر البحرين عبدالرحمن المعاودة وخصوصا أشعاره التي يعارض فيها رباعيات عمر الخيام. فكان أول نقد عنيف وجه إلى شعر المعاودة صادرا من الأديب الاحسائي عبدالله الرومي. فسبب المقال انقساما وتحيزا بين المعجبين بشعر المعاودة والناقدين له، وقيل فيها أنها معركة بين القديم والجديد أو بين المحافظة والتجديد ... وقال آخرون ممن أضجرهم طول الحوار ومجافاة النقد الموضوعي إن كل تلك الزوبعة لم تكن غير أصداء للمعارك الأدبية الكبرى في مصر والتي نشأت فيما بين أدبائها المشهورين مثل زكي مبارك واحمد أمين والعقاد والرافعي وطه حسين. وبرغم كل ما قيل فان تلك المعارك الأدبية قد اذكت روح البحث إلى جانب الخصومة، وحرية النقد الى حد التعرض الشخصي، والتهكم الساخر وشدت إليها جمهور القراء بما يرضى هوى الناشرين. وقيل ان كلمة حكيمة وجهها فضيلة الشيخ الأديب عبدالحسين الحلي — رئيس محمكة التمييز، على صفحات جريدة البحرين داعية لإيقاف المهاترات قد أدت إلى توقف المتخاصمين وانتهاء تلك المعارك.

أما أولئك الكتاب في معركة جريدة البحرين الأدبية فكانوا يرسلون مقالاتهم وردودهم بتواقيع مستعارة مثل القالي، وابن العميد، وابن خلدون، وابن زيدون، ومثل قارئ أو احد القراء أو كانوا يكتفون بحرف من أسمائهم مثل (ت) و (م.د) الخ تلك الأسماء المستعارة.

وإجمالا فان الأربعينات من هذا القرن كانت في البحرين حافلة بأنواع من الأنشطة الأدبية والشعرية والثقافية والفنية والمسرحية وقد شهدت أواخره صدور مجلة أدبية ثقافية سياسية رائدة هي مجلة صوت البحرين. وصفها احد أدباء البحرين وهو عبدالله خليفة مؤخرا بقوله : ((لقد افتتحت مجلة صوت البحرين المشهد الثقافي العريض، وأطلقت أشكال المقالة الصحيفة والنقدية والكتابة القصصية والقصائد وبدا المثقفون البحرينيون في تلك المجلة، صحفيون متمرسون وكانوا على خط الحياة الاجتماعية وتصوير المشكلات بالخاطرة والقصة والقصيدة)).

أما وقد أشرفنا على محطتنا الأخيرة في هذه الأمسية، فان آخر المناسبات الأدبية التي سأتطرق إليها هي مناسبة شبيهة نوعا ما بالمناسبة التي بدأت بها الحديث فمن زيارة أمين الريحاني إلى البحرين عام ١٩٢٢م. وقصيدة عبدالله الزائد في الترحيب به آنذاك، إلى زيارة بعثة جامعة فؤاد الأول إلى القطيف عام ١٩٥٠ والتي ضمت من بين الأساتذة البارزين فيها الدكتورة بنت الشاطئ وقد نقل عن الدكتورة الزائرة وزملائها كلام عن المدهشات في تلك الزيارة العريضة. يشبه كلام أمين الريحاني واعتذارات تشبه اعتذاراته، وأما شاعر الحفلة التكريمية فهو الأستاذ الأديب الشاعر عبدالرسول الشيخ علي الجشي، وقد رأيت من المناسب إن اختم حديثي بأبيات مختارة من قصيدته الحافلة بعنوان (على شاطئ الخليج) حيث يقول :

يا قادة الجيل الجديد تحية ... أزكى من الزهر الندي وأنضر
ألقى الربيع على المباسم ظلها ... وافتر منها الأرجوان الأحمر

ثم يقول الجشي مرحبا :

ولقد وقفت مرحبا ومعرفا ... لكم ولست بما أعرف أفخر
ولعل في الأجفان دمعة آسف ... أني بمجد الغابرين أفكر
هذي الشواطئ وهي ماض عامر ... مجدا وآت بالمشيئة أعمر
ألقى عصاه على فسيح ضفافها ... وعلى الجزائر .. عالم متحضر
وأذلت التيار تحت شراعها ... فلها عليه تحكم وتأمر
شهدت موانى الهند خفق قلوعها ... فكأنها فوق المياه الانسر

ولهـا على وادي الفـرات ودجلـة فضـل المعلـم، وهـو فضـل يشكـر
ورأت بهـا لغـة العـروبـة بيئـة شعـريـة تـوحـي، ودنيـا تسحـر
شعـراء عبدالقيس تهزج بالهوى راح وريحـان ووجـه أقمـر
وخيـال خـولـة يستثيـر غـرامـه فيظـل فـي أطلالهـا يتحسـر
وابـن المقـرب لـم تـزل أشعـاره بالفخـر والشكـوى تضج وتجأر
ولجعفـر الخطـي فـن مشـرق وروائـع غنـى بهـن السمـر

إلى إن يقول في نهايتها :

هـذي بـلادي فـي قـديم عهودها علـم وفـن خـالـد لا يـدثـر
واليـوم يـدفعهـا الطمـوح لنهضـة بمثيلهـا تسمـو الشعـوب وتكبـر
روح وان هـرم الـزمـان فتيـة وطبيعـة بكـر وفكـر نيـر

* * *

في محطتنا الأخيرة من هذا اللقاء، يتملكني شعور أشبه بشعور المسافر الذي أتعبه السير وهو يتشوق إلى لقاء من يحب كما يشعر إن من سيقابلهم في المحطة الأخيرة ربما أتعبهم أيضا ذلك الانتظار. ولكن الأهم من ذلك لقاؤنا المشترك على رصيف محطتنا الأدبية الأخيرة قبل إن نفترق من جديد حاملين معنا الذكريات لحكايات منسية من أدب البحرين.





فضيلة الشيخ عبد الحسين الحلي
محاضرة في ديوان الكوفة بلندن – ١٩٩٧م

- إطلالة أدبية على شعره وسيرة حياته -

فضيلة المرحوم الشيخ عبد الحسين الحلي، كان شخصية محببة إلى نفسي منذ عهد الطفولة. أذكر، وأنا صغير أن والدي – رحمه الله – كان يأخذني معه أيام الأعياد لزيارة أصدقائه. وأنني كنت ألح عليه وأحيانا أجره من طرف عباءته للذهاب إلى بيت الشيخ، الذي كان يستقبلني قبل والدي بوجه بشوش فيجلسني على الدكة إلى جواره، ثم يكشف طرفا من السجادة التي يجلس عليها، ويعطيني روبية واحدة، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت لا يحلم به الصغار!..

وحينما يقرر والدي أن يزوغ عني يوم العيد تحرجا من تدخلي في برنامج زياراته وأولوياتها التي يرتبها بحسب مواقعها من طريق السير في الحارات.. فان "الروبية" العيدية تبقى مكانها تحت البساط في انتظاري في اليوم التالي أو ما بعده.

وبعد أن رجعت من دراستي في العراق، وافتتحت مع أخي الأكبر دكانا في السوق يقع في طريق الشيخ إلى المحاكم العدلية، كان الشيخ الحلي كثيرا ما يتوقف عندنا للجلوس وهو في طريق العودة إلى منزله، لا سيما في أيام القيظ الحارة، حيث يستعيد شيئا من أنفاسه اللاهثة فيجفف عرقه، ثم يبترد قليلا قبل أن يواصل المسير.

وفي بعض الأمسيات، كان الشيخ يزور والدي في منزلنا القريب من منزله، فيفتح له والدي الباب، فلا يدخل إلا على شرط أن يستدعيني الوالد لأجلس معهما. فإذا انتهى حديثه مع الوالد، تفرغ معي للحديث عن الشعر والأدب وأخبار الأنشطة الثقافية والأدبية، وما تنشره مجلة (صوت البحرين) آنئذ في أواخر الأربعينات وكنت أبادله الحديث على قدر ما تسمح به ثقافتي كطالب.

لقد كان في البحرين خلال الأربعينات شعراء تقليديون متميزون، ولكن لم ينل أي منهم من إعجاب الشيخ الحلي ما ناله الأستاذ الشاعر إبراهيم العريض. فقد كان يعتبره رائدا مجددا في الشعر. وقرأ له أبياتا تعبر عن التذمر والإحباط والأسى، من مثل قول الأستاذ: (سنة ١٩٣٤).

نفضت كفي من ورد ومن آس / وعدت بالشوك أكليلا على راسي
.لا يطمح الطير، والأشراك ترصده، / إن يستقل بوكر فوق مياس
تبقى الخميلة بالأغصان مائسة / ما دام يغفل عنها حامل الفأس
قد كنت في مجلس أولى بنشوته / لولا الذي أنا ساقيه لجلا سي
يا ناهلين كؤوس الراح في دعة / رفقا فذاك دمي في سورة الكأس

فقد بادر الشيخ الحلي بتوجيه مالا يقل عن أربع رسائل شعرية تستحثه على مواصلة إنتاجه الشعري، فمن التشجيع والتماس العذر، إلى الإلحاح ثم إلى العتاب والتعنيف. ففي مجال التشجيع كتب تحت عنوان "موت الشعر" أبياتا نقتطف منها ما يلي:-

(١) موت الشعر: (مشجعا)

لك أيها الأرب الرفيع رسالة / مني تمازج حسرتي بعزائي
...لا تأس من برح عليهم إنما / لهم بفوتك، أعظم البر حاء
تا الله ما جهلوك حين رفعتهم / ووضعتهم بمباءة العلياء
قد ضيعوك وما عليك غضاضة / فالضوء ليس يضيع في الظلماء
عذرا، فان بنيك لم يتواكلوا / لو كان فيهم قدرة لجزاء
ناديتهم بديارهم، فإذا الصدى / منها يرد علي مثل ندائي
لو كنت منهم، قمت فيما أهملوا / عجزا – ولكني.. غريب نائي

(٢) زهرتي: (معاتبا)

...بحياتي عد إلى الفن الذي / هو روح، وهو روح لحياتك
وأعره لفتة ثانية / انه ينمو ويسمو بالتفاتك
أنت إن طلقته آم على / كثرة الخطاب من غير لداتك...
كنت تمليه فترويه لنا / صحفا، كانت زمانا من رواتك
ولقد أوحشتها حين خلت / - لا خلت أوراقها من ثمراتك
وأساءت الصنع للفن الذي / كان، وهو الآن إحدى حسناتك
فتواضع وتقبل "زهرة" / لم تكن تقطف من روض نباتك
لا يخب منك رجاها إنها / تتمنى نظرة من نظراتك
لا سقى الغيث نوادى أدب / أعوزت أربعها.. من بركاتك

(٣) تسابيح الملائك : (معاتبا)

...بولائي لك لا تبخل بما كنت تمليه على أهل ولائك
...أنت إن غادرتهم في عشوة فلمن تذخر أنوار ضيائك
...ما أرى شعرك إلا مائتا فأرثه..فهو حقيق برثائك
إن يكن شعرك حيا فلمن أنت تخفيه.. كإخفاء السبائك
لهدى الجنة قد أعددته مصحفا، أم (لتسابيح الملائك)
كان أنصاري كثير وكفى لك فخرا أنني من نصرائك
لا عدمناك مليكا ينضوي كل باغي أدب – تحت لوائك

(٤) أحرجت موقفي: (معنفا)

أعاتبه عما جنى وأقوده لما هوى أحرى بالأريب المثقف
وأوليه نصحي طامعا أن يعود لي بوعد كريم.. أو بعذر مسوف
فلم أر منه غير مطل أبانه بلا خشية في قول (أحرجت موقفي)
لعمري ما في نظمك الشعر أبتغي حليا لجيدي، أو طرازا لمعطفي
شكوت افتراق الشمل منه وهجره فحاولت أن تحظى بشمل مؤلف
وأذهقت كأساتي لمن يشتهونها لا منة مني ولا بتكلف
فان شئتها اشربها، وإلا فخلها كفى إنني عرضت للشرب قرقفي
إذا المرء لم يردعه تعنيف نفسه عن السوء.. لم ينفعه لوم المعنف

تلك الأبيات من الشعر التي خاطب بها الحلي صديقه العريض فيها الكثير من الدلالات على خلق الحلي وإخلاصه الود. فالحلي من طبعه أن يتخير الأصدقاء ممن يأنس طباعهم ويرتاح لما يتحلون به من قيم شخصية، أو أدبية، أو علمية أو اجتماعية. فإذا اختارهم منحهم كل ما يملك من حب وتقدير وإخلاص، وطارحهم مشاعره المرهفة، أو أشعاره الفياضة بالرقة، أو مجالساته الممتعة التي ينطلق فيها على سجيته الصافية، بعيدا عن التزمت المتكلف، أو المظاهر المصطنعة. يروي والدي عنه، انه قام بزيارته للتصالح معه بعد جفوة وعتاب، فهب الشيخ إليه من مكانه ولما يجتز بعد عتبة الدار تعانقه مليا وهو يقول: " أشهد لقد سبقتني إلى ثواب الجنة". يقول الأستاذ جعفر الخليلي صاحب الهاتف النجفية في كتابه (هكذا عرفتهم): "لقد توثقت الصداقة بيني وبينه (يقصد الشيخ الحلي) حتى كتب لي مرة من البحرين يقول: (وإني آمل أن لا أبقى خائبا

دائما من رسائلكم الخاصة التي تبهج نفسي وتزيدها نشاطا وبالله أقسم وما على يمين : أن عمدة ما أستفيده من الهاتف هو تجدد ذكرى صاحبه آنا فآنا...) ثم يضيف الخليلي مثالا آخر على التواضع فيقول:

وحدث بيني وبينه ما يشبه الجفاء وليس هذا مورد ذكره – فانقطعت مكاتيبي عنه، وانقطعت مكاتيبه عني ولكن ذلك لم يمنعه من يقصدني ببغداد قصدا – وكان قد جاء من البحرين ليقضي أيامه في النجف "فغمرني بلطفه، وشملني بعطفه وطواني بحلمه. ورأيت في هذه المرة شبح الموت ماثلا في ضعفه وهزاله. وهالني أن أراه في هذا الضعف وفي هذا الهزال وقد أهدى لي آخر صورة له وقال أنها الصورة المفضلة عنده لأنها تحكيه وهو في شتاء العمر... "!!

وفي موضع آخر يقول، عن فضل الحلي وعلمه:

(وكان من مفاخر أهل العلم والأدب أن يذكروا أنهم تتلمذوا على يد الشيخ عبد الحسين. أو تتلمذوا على تلاميذه. وكان من مفاخرهم أن يذكروا بأنهم قرأوا شعرهم في مجلس كان من متصدريه الشيخ عبد الحسين الحلي. وان قصائدهم قد حظيت منه بالاستعادة. بل كان أكثر من هذا... فقد طالما كان حكما بين جهتين في مسألة فقهية، أو مسألة أدبية، أو قضية تاريخية ذات علاقة بالفلسفة الروحية أو التحقيق الأدبي. وكان أكثر من هذا كله أيضا... لقد كان حكمه الفصل فيما يعرض عليه فلم يستأنف حكمه مستأنف. ولم يميزه مميز.

أجل أنه لم يبق من يجهل مقام الشيخ عبد الحسين العلمي والأدبي من كبير أو صغير عالم أو جاهل. أما الجهة التي ران عليها الجهل، وعشى عينها الغباء فجهلت حق الشيخ عبد الحسين فهي جهة الحكومة فقط.

ذلكم هو الشيخ عبد الحسين الحلي كما عرفه الناس في موطنه الأول في العراق وفي مهجره في البحرين إنسانا متصفا بالوفاء والود والتواضع أما عاطفته الجياشة نحو موطنه في العراق فحدث عنها ولا حرج. لقد وحت إليه تلك العاطفة بقصائد رائعة، أبرزها تلك التي قالها في البحرين، وحصلت على جائزة إذاعة لندن، بعنوان (الحنين إلى الوطن) ومطلعها..

(لولا افتراقي عن قومي وعن وطني — لم يجف جفني يوما لذة الوسن)

وديوان الحلي المخطوط يزخر بشعر الحنين إلى الوطن والعشرة مع رفاق الصبا فيقول:

دع عنك لومي إذا ألوم مشاعري — إن الملام يزيد من برحائي
قومي وآلافي ومعشر صبوتي — وأحب من ولدتهم آبائي
فإذا صحبتهموا فأين حميتي — وإذا نبذتهم .. فأين وفائي

ويقـــول:

يا ليـالـي بأعـلا الكـرخ عــودي	علــه يخـضــر مـن عـودك عـودي
إن أيـــامـي كـــانـت خـدمـي	فيــه لمـا كنـت مـن بعـض عبيـدي
فـــزت فيـــه بجنـــان جـمـعـت	بـين قضبـان غـضـون، وقـــدود
بـيـــدي النـاهـد من رمـانـهــا	والـيـــد الأخـرى.. لـرمـان النهود
أنشـــق التفــاح فيـــه خجــلا	لـم لا أنـشـــق تـفـــاح الخـــدود
وأغـــذ الـــروض أبغـــي ورده	أفـــلا تـغـنـى خـــدود عـن ورود

يقول جعفر الخليلي في حب الشيخ الحلي للنجف خاصة:

(وكان برا بالنجف. وكان متفانيا في حبها، وكان يرى أن السعادة تحل بين تلك الأجواء الأدبية التي تحكيها مجالسها. فمن هناك. فمن البحرين كان يكتب لي سائلا عن كل جزئية وكلية حتى عن (باجه) الشيخ محمد جيوان والمشاركين فيها والتي عقد الهاتف عنها فصلا وعلق عليها البعض تعليقات أدبية فكهية في حينها، وكان يتعقب ندوة (الصفوة) التي كان يترأسها السيد علي بحر العلوم، والتي اعتادت أن تجتمع في كل يوم أربعاء ببيت السيد مير علي أبي طبيخ وتتحول هنالك إلى ندوة علمية لغوية أدبية. فكان يكتب لي سائلا عنها، مستفهما عما يدور فيها من نقاش أدبي، ومن طرائف شعرية، وكان يتعقب حركة (جمعية منتدى النشر) خطوة فخطوة وان له الفضل الكبير على النجف في خلق المناسبات الأدبية وإنعاشها بعد أن طرأ على أدب النجف شيء غير قليل من الخمول، والفتور والركود بسبب انتقال طائفة من رجالات أدبها عنها. كآل شبيبي. والشيخ علي الشرقي. وأحمد الصافي ومهدي الجواهري وأحست النجف على أثر مغادرة الشيخ عبد الحسين إلى البحرين بالفراغ الكبير، وبالخلة التي خلفها في جميع النفوس، وظلت ذكراه ملئ القلوب، وراحت الأيدي تتخاطف كل عدد من أعداد الهاتف الذي يحوي شيئا عن خواطره.

وعند قيامه بالزيارة الأولى للعراق قادما من البحرين استحالت النجف كلها إلى مهرجانات أدبية حتى ضاقت أوقاته بالدعوات الكثيرة. وامتلأ بيته بكبار العلماء ورجالات الأدب، وأسمعته النجف قصائد فاضت بالحب والإخلاص والتجلة لمقامه العلمي. واحتفت به احتفاء قل نظيره، وقد طال بطول أيامه التي قضاها هنا.

هكذا كان الشيخ الحلي، يقضي لبانات قلبه في زيارته للعراق والنجف بعضا من الوقت، ثم يعود إلى عمله في البحرين ليمضي بقية الأيام في التشوق إلى العراق حتى كتب في إحدى رسائله حينما مرض مرضا شديدا يقول: (وأشد ما لاقيت أذية..هي الوحشة التي لازمتني في البحرين، فليتني ما رأيت العراق من قبله..) ثم لا يستقر حتى ينظم أبياتا من الشعر تفيض رقة وحنانا ويبعثها إلى صاحب الهاتف مهنئا بعيد رمضان من سنة ١٩٤١ بعنوان (الود).. ويقول فيها:

حي أوطاني إذا سعدت بالتحايا الغر أوطان
وأصيحابا عهدتهم وهم في الله إخوان
لهم في كل مكرمة أثر بالفضل ملآن
كيف يخفى فضلهم وله بينهم من لطفه شأن
(يا خليلي) أنت لي وكفى بك عمن لي وقد كانوا
أنت في مرءآك منشرح لي ومن ذكراك سلوان
لك ودي لا ارتياب به ما وراء الحس برهان
أعرب (الراعي) (لهاتفه) عن مزايا فيك تزدان
ومعان للكمال غدت هي روح وهو جثمان
أنما (الراعي وهاتفه) لشتات الفضل ديوان
وهما سفر فان فكهت نفس من يهوى فبستان
لك يولي العيد بهجته وهي ألطاف وإحسان
فاستق الأقداح فيه إذا صح أن اليوم نشوان
وخذ الأفراح منه وما هو إلا بك جذلان
واستمعها من فتى نغما للتهاني وهي ألحان
لك اهديها محبرة وعليها (الود) عنوان
كعقود الدر فصلها ببديع الصنع مرجان
كل عقد لا توازنه دلة تهدى وفنجان

ثم يعلق الخليلي على ما ورد في البيت الأخير قائلا:

(وهو يريد بالدلة والفنجان هنا تلك التي أهداها لي السيد مير على والفنجان الذي أهداه لي الشيخ جواد قسام في أبيات من الشعر حملت عددا من أئمة الشعر حينذاك على مباراتها حتى كان من تلك المباراة والمجاراة قلادة ازدان بها جيد الشعر، وكانت قصيدة الشيخ الحلي عين القلادة).

وإذ ننتقل مع جعفر الخليلي (صاحب الهاتف) إلى خبر "الدلة الشعرية" لا ننسى أن حديث هذه الدلة ما كان ليدخل تاريخ النجف الأدبي ويشغل حيزا منه. لو لا مداخلة الشيخ الحلي الشعرية التي أعطتها بعدا أدبيا. فلنستمع إلى صاحب الهاتف وهو يروي خبر الدلة حيث يقول: (هكذا عرفتهم – ص ١٥ / ١٦ / ١٧ / ٩٣ / ٩٤):

(.. وأهدى لي السيد مير على ذات يوم (دلة) قهوة معدنية وأرفقها بقصيدة جاء فيها:

منطق الفن وهو بعض الأدلة دل إن الجمال في صنع (دلة)
صورتها كف الصناع فوافت بمصب تصاغ منه الأهلة

إلى إن يقول :

شاقني إن أزفها باحترام (للخليلي) فهو زين الأخلة
أنا ما إن أزال اكبر منه قلما رائعا واكبر عقله
أتحرى نظيره جهد ما بي من نشاط لكنني لم أجد له ...

ونشر (الهاتف) هذه القصيدة وعلق عليها ولم تكد تنتشر حتى تناولها جمع كبير من فحول الشعراء وباروها بقصائد رائعة وقد عزاني البعض في هذه المباراة بابني الوحيد (هاتف)، وكان من أولئك الشيخ محمد حسن حيدر، والشيخ عبدالحسين الحلي الذي تفنن في قصيدته هذه تفننا عجيبا، جمع فيها عددا من الأغراض التي قلما جمعها شاعر كما جمع هو من غزل إلى نسيب إلى مديح إلى هجاء، إلى رثاء، وقد تعرض في هذه القصيدة للسيد مير علي ولمن نظم على غراره، وهجا أولئك الشعراء وعدهم مخفقين في أعطاء قافية (الدلة) حقها من صوغ رثائهم وتعزيتهم لي على ذلك النمط من الرثاء الباكي الحزين فقال مما قال وهو يخاطبني :-

لك اهدي تحية من نجيب اوقفوا قبلها ببابك .. بغله

وكان عنوان قصيدة الشيخ عبدالحسين الحلي هو (دلة من قريض؟). واغتاظ السيد مير على لم يكن مكشوفا لكل احد ، واغتاظ غيره من الشعراء وكان منهم السيد احمد الموسوي الذي حاول ان يناقش الشيخ عبدالحسين الحلي على رغم تهيبه له فقال مما قال:

ايها الشيخ ان للحب ثله لاتعي للعذول في الشوق عذله
قد ينال الملام منهم ولكن هم على الحب في رحيل وحله
فاحتسبني منهم فدينهم ديني ومالي سوى المحبة قبلة
اواري نوارتي ثم ارتد خليا- هذى حماقة (بقله)

والتعريض باهل الحلة هنا واضح في قافية (البقله)، والقصيدة في نحو مائة بيت واكثر وقد ارفق احمد الرضوي القصيدة بكلمة اعتذار نشرها الهاتف يقول فيها مخاطبا الشيخ عبدالحسين:

"وبعد فمن التطفل على شيخنا قاضي القضاة ان ينشر لي (الهاتف) شعرا قد يظن انه معارضة لقصيدته العامرة الخالدة ولكن هذا بمثابة الجلوس على مائدة الكريم بغير دعوة يعده الناس تطفلا وهو احترام".

(والحق ان قصيدة الشيخ عبدالحسين الحلي كما أشار إليها السيد احمد، قصيدة تفنن فيها الشيخ تفننا عجيبا غريبا جمع فيها مختلف الأغراض الاجتماعية والأدبية ووفق بين حلقاتها المختلفة توفيقا منعدم النظير وهي تقع فيما يقرب المائة بيت منشورة في الهاتف وقد ختمها الشيخ الحلي بالأبيات التالية التي عبر فيها عن ماهية قصيدته وصفتها من حيث الموضوع، أما ماهيتها الأدبية فلا احسب أن من الهين حصرها في جمل صغيرة كهذه).

وفي موضع آخر من(هكذا عرفتهم – ص ٩٣-٩٤) يورد الخليلي مقتطفات من قصيدة الحلي المشار اليها. وقد رجعت الى اصل القصيدة لأختار منها ابيات تشتمل على ما اورده الخليلي وتزيد عليها بما يكمل موضوعاتها، وهي من الديوان المخطوط بعنوان (بكاء الشيخ لطفله – ارثاء ام دلة من قريض). نظمت بالبحرين سنة ١٣٦١ هجرية (١٩٤١م) تعزية للاستاذ الخليلي عن وفاة ولده الطفل (هاتف) وعدد ابياتها ٧٤ بيتا ويبدو انه حذف منها باقي الابيات. مطلع القصيدة عن فلسفة الحزن منها:

صدع البين بالاحبة شمله	فاستجم الاسى فاذهل عقله
هام لا جازعا، ولكن كما	يذعر مستنفر – على حين غفلة
انها رحمة القلوب تجلى	ي جبين الكريم حزنا، وحوله
والصبور الوقور يحزن لكن	حزن الليث حين يفقد شبله
... والفتى ذوالحجا اذا اعجم الدهر	يرى طيبه يمازج دخله
انا والله لا ارى الهزل الا	الجد منه، كما ارى الجد هزله

ثم عن الحياة منها :

خير ما ينظم الحياة إجتماعاً	حمده للهنا ، وللحزن حمله
نبله في الصميم تلقى دروساً	وتجاريب ، تكسب المرء نبله
رب حرب كالسلم أوهي خير	لحياة الورى فرادى وجمله
تنتهي أمة وتبدء أخرى	وتهي ملة ، وتشتد ملة
يكمل النقص في النظام بهذا	وهو جور، لكن يتمم عدله

ويخاطب الخليلي فيقول :

يا (خليلي) وذا الـذ نداء		من خليل إذا يخاطب خله

أنت من بعض فضلك القوم تجنى		لبنيها ونفسها الفضل كله

انت احجى من ان تعزى بشعر		ما اقل الحجى اذا واضله
لك من نفسك الكريمة سلوانا		وعرفانك التسلي وفضله
لك اهدي (نجيبة) من نجيب		اوقفوا قبلها ببابك بغلة
البسوها من العويل ثيابا		وسقوها من واكف الدمع وبله
وحشوها من القديم حديثا		ما اجادوا ولا استجدوا اقله
فتقبل هدية من محب		جاء يسعى بعد المعزين قبله
لم يكن وانيا ولكن عراه		ما عرى خله فما سد خله
وجميل ترك الرثا حين يغدو		علة تبعث الاسى لا تعلة
..ليت كانت هديتي لك (دله)		ذات نهد يزين صدر (المجلة)
فادعها دلة لتغنى صبا		في هواه عن نضد اقوى الادلة
وافترضها ان شئت دلة تبر		رب فرض يطفى وينقع غله
واذا شئت سبكها من قريض		لم تصعب فدلة الشعر سهلة
واذا لم يصغ من الشعر ابريق		لماذا قد خيط او حيك حلة؟
هي ذي (دلة) تصاغ قريضا		لا بفرض ولا بطرق وشعلة
لبست من ثواقب النجم تاجا		واعارت مصبها للاهلة

وموضوع الدلة يستغرق باقي الابيات منها:

يا ابا "هاتف" وما ذكري		الهاتف الا صبابة وتعلة
لك مني تبدى التحايا هدي		لك زفت من بعد بطء ومهله
لست ادري ولا الهدية تدري		ما الذي قد تكلفت لك حمله
ارثاء ام دلة من قريض		ام هجاء ام مدحة للاجله
ام عظاءة تضم جدا وهزلا		ام تراها تحملت ذاك كله؟
جبر الله بالمسرات مني		ثقل بعدى ومن (خليلى) ثكله

هكذا ننتهى من ايراد الابيات المختارة من قصيدة الحلي عن الدلة الشعرية لنكمل حديث الخليلى عنها اذ يقول: (صفحة ١٧)

(وهاج وصف الشيخ عبدالحسين الشعراء وهاجهم طعنه في شعرهم فردوا عليه بقصائد ومقاطيع وكان من اولئك الشيخ محمد حسن حيدر الذي نظم قصيدة في اكثر من خمسين بيتا امتدح بها الشيخ عبدالحسين الحلي واعترف بعجزه عن اقتفاء اثاره ولكنه قال رادا):

يا (خليلي) وتلك دعوة مضنى ... بك والشوق في هواك اعله
قرانا (بهاتف) الحق شعرا ... من رثاء او من قريض بدله
طربا همت في معانيه حتى ... لعناك من ضناه ابله
وافت هدية من (نجيب) ... حسب المهر في المضامير بغلة

وعز على الشيخ محمد حسن حيدر ان يرى كل واحد يهدى شيئا للهاتف وهو لا يهدي فقال:

هو يهدي اليك دلة تبر ... او لجين من الصفاء – وخله
واخوك الوفي يملك نخلا ... وهو يسخو متى اردت (بنخله)
هذه دلتي اليك فخذها ... فهي تسقيك من سلافة زحلة

ونظم السيد مير على قصيدة تضمنت شيئا من عدم رضاه ودفع الي بها لنشرها كرد على قصيدة الشيخ عبدالحسين الحلي ولكنني لم استسغها لا لشئ الا لانني لم ارها جديرة بالوقوف امام قصيدة الشيخ الحلي الرائعة التي حفظ الكثير من الادباء ابياتها، فقد صور فيها الشيخ عبدالحسين الحلي الشعر بابدع صورة، وتفنن في صياغة (الدلة) تفننا عجيبا، وقد صارحت السيد مير على برأيي ووافقني وقبرت القصيدة في مهدها.

وفي تلك الاثناء رأي الشيخ محمد جواد قسام ان يتم قصة (الدلة) بفنجان من فناجين القهوة الخاصة، وتفضل على مشكورا باهداء، فنجان عمل الفن فيه عمله، فصيغت في وسطه قبة مشبكة من الفضة احتوت على مقدار من المسك لا يكاد الراشف يرشف منه رشفة حتى يحس بالعطر يضمخ انفاسه، وارفق الفنجان بقصيدة نشرها له (الهاتف) في حينها وكان هذا مطلعها:

وافاك فنجان لدله ... يسقى بقهوته الاخلة

وبالاجمال فقد صار (للدلة) وقع ادبى رائع بفضل السيد مير علي، ولم تزل الدلة تشغل من خزانة محفوظاتي اسمى موضع واغلاه) – انتهى.

واقول تعقيبا على راي الخليلي في حيازة الحلي قصب السبق، ان احد الشعراء - ولعله محمد حسن حيدر. اشار الى هذا الفوز بقوله مخاطبا الحلي:

انـت رب البيـان رب القـوافـي ملك الشعـر انـت والشعـر دولة

لقد استدرجنا الحلي الى بستان شعره الجميل، وسرحنا معه نستجلي بعضا من فنونه الشعرية، ونحن نعلم ان الشعر لم يكن هم الشيخ الحلي الاول... فهو فقيه وعالم ومميز للفتاوى والاحكام الشرعية، لازم شيخ الشريعة فاجازه الاجتهاد (شعراء الغري - على الخاقاني ج هـ) فما هو اذا سبب تعلق الحلي بالشعر.

يقول العلامة جعفر الشيخ باقر آل محبوبة في كتابه "ماضي النجف وحاضرها" عن الحلـي وهو احد تلامذته :"ان الحلي يجيد نظم الشعر غاية الاجادة ولكنه مقل منه اذا لا يتعاطاه الشعراء بل كما يتفق للعلماء الظرفاء".

ويقول عنه الاستاذ جعفر الخليلي (هؤلاء عرفتهم ص٢٦) : "ان الحلي لم يكن يفكر يوما ما بالزعامة الروحية، ولو كان يفكر فيها لتجنب حتى نظم الشعر". فماذا يقول الحلي نفسه يا ترى.. عن تعلقه بالشعر؟

من المعروف عن الحلي انه لم يكن يعبأ كثيرا بجمع اشعاره وقصائده، وان كثيرا مما نظمه ضاع او تشتت او قام هو نفسه باتلافه. ولكن لما جاء الشيخ الى البحرين وصار يرسل اشعاره للنشر في الهاتف او في جريدة البحرين، اصبح بالامكان جمع تلك القصائد والاشعار. ويبدو انه خلال الاربعينات واوائل الخمسينات اظهر اهتمامه بجمع تلك الاشعار وقام بتنظيمها في شكل ديوان مخطوط. وتدل بعض الشطوب والتاشيرات بالحذف والتغيير على انه كان يراجع هذا الديوان من وقت لآخر فلما توفى الى رحمة الله في عام ١٩٥٦، ترك من بين ما ترك هذا الديوان المخطوط ، تتصدره اربع صفحات بخط اليد عن ترجمة تاريخ حياته وسيرته وهي لا تحمل اسم كاتبها، ومن المحتمل انه كتبها بنفسه وبخط يده ، وقد وردت في احدى فقرات الترجمة الاجابة المطلوبة. يقول المترجم:

سألته عن سبب نظمه للشعر واخذه الحظ الوافر في الادب وهل كان ذلك بتلمذة ام ان الشعر جاء عفوا فقال لي ... "لما هاجرت الى النجف حشرتني نوادي ودروس الفقه عند المشايخ الى عدة من فضلاء المحصلين من النزلاء واهل النجف وكلهم يجيد نظم الشعر ويعرف به فاجمعت على ان لا اكون قاصرا عن احدهم اظهارا لمساواتي لهم في مزاياهم، فكنا اذا جمعتنا عطلة للاستراحة في الليل او النهار وجرى الشعر وقرضه جريت في حلبتهم بحيث لا يبين القصور في عنهم لكن من طول تلك المدة لم يتفق لي نظم مائة بيت، حتى كان عام ١٣٢٥ هـ. حين توفى استاذي الشيخ محمود ووالدي القاسم بن صالح حيث انصرفت برهة غير يسيرة عن الجد الى الهزل وجعلت استريح الى كتب الحديث والتاريخ والسيرة وفنون الادب وآلف نوادي الادباء والمحدثين وهي تؤثر

طبيعيا على روادها. واكد رغبتي في ذلك اعتقادي الباقي للآن واعتقاد اصحابي اولئك ان الاجتهاد الكامل يتوقف بنوع خاص على معرفة الفنون الادبية وان طالب العلم يجب ان لا يكون قاصرا من ذلك ليتسنى له يوما نيل مرتبة الاجتهاد. وبفضل اعتقادي طالعت الكثير من كتب اللغة والحديث والتاريخ وسائر معجم الادباء والعلماء ومعاجم اللغة ومواقع البلدان اما عن كتب الادب فحدث عن مطالعتها ولا حرج وساعد على ذلك سرعة حفظي واستظهاري لما اقرا" .. ثم يضيف المترجم:

"هكذا كان جواب الشيخ على سؤالي ولكن من مطالعاتي عن الشيخ ومراجعة ادوار حياته التي قضاها في النجف والبحرين يعرف انه لم يعد نفسه لان يكون شاعرا لذلك لم يدون من شعره الا القليل ولا تجدله الا وريقات مبعثرة ومسودات مشوهة قد يصعب على غيره قراءتها وربما كانت القطعة والواحدة متفرقة في اوراق صغار كثيرة "زبانه سجارة" وغلاف دفتر، كل ذلك كما قال لي شخصيا هو "فتور للمهمة وكسل عن العمل ولكوني عشت في زمن كنت ارى انى ما خلقت فيه لاكون شاعرا حتى قادتني الظروف الى غير الخطة التي اردت سلوكها واردت ان تنتهي اليها حياتي . وهذا ما كنت اشير اليه بقولي:

قد كنت ان حلب الاقوام محفلة	تركتها واحتلبت الهم والسغبا
اسقى الكروم لهم حتى اذا ازدهرت	جنوا ولم اجن منها دونهم غببا
ولم اكن حائرا فيما فعلت وما	اخطات قصدي ولكن الزناد كبا"

فمن اجابة الشيخ الحلي على سؤال المترجم نكتشف حيرته النفسية، فقد اتخذ الادب والشعر واللغة في البدء وسيلة لاستكمال المقومات والعناصر التي يتطلبها فقه اللغة سبيلا الى فقه الدين والشرع. وقد برز تفوقه وعلت مكانته في الاثنين ... حتى اكتشف - حينما وصل الى طريق الاعودة مع الشعر خاصة - ان الاعراف والتقاليد تتطلب من العالم الشرعي المجتهد ان يضع بينه وبين الغرام بالشعر مسافة كافية تحول دون التاثير على قيمته العلمية او مقامه الديني في اعين الناس. ولكن الحلي الجرئ كما هو معروف عنه، لا يؤمن بمجارات الراي العام او مجاملة العوام، وليس من طبعه منافسة معاصريه على الزعامة الروحية عن طريق حشد التاييد من الجماهير واسترضائهم .. لهذا فقد مضى في حال سبيله يحمل بيده الكريمة كتاب الفقه وفي جيب من جيوبه مكان آخر لديوان شعر ..

وهو اذ يشعر ان هواية الشعر اخذت منه اكثر مما اعطت، تفلت من لسانه لا شعوريا - ابيات شعرية او عبارات يعبر فيها عن مشاعر ممزوجة من الحب والكره حتى وان جاء ذلك التعبير في اطار من الظرافة واللطف ... فكأن الشعر عدو في ثياب صديق، او عدو ما من صداقته بد .. ولعل السخرية من محور الخليل ابن احمد وقوافيه والتمني لها ان تمسخ تماثيل سوداء يتخذها الناس هزوءا وسخرية، هي من هذا القبيل، في قوله من قصيدة الدلة انفة الذكر:

ولو ان القريض يصبح بستانا ... فما فيه نخلة ذات غلة
ان ارض الاداب لم تك يوما ... من قديم الازمان ارضا مغلة
انا والله لا ارى الشاعر الفطحل ... يجني بالشعر، غير المذلة
ليس ينفك حائراً لوتراه ... لم تخله إلا غريقاً بوحله
قلل الله منه كل كثير ... وكفانا بوافر الغز، ذلة
وارانا بحوره غائضات ... وقوافيه غائصات برمله
واعاريضه تقطع اوصالا ... ومنها الروي، يعدم وصله
ليراها الخليل وهي تماثيل ... من السود في البريه.. مثله

اذن فان ذلك السؤال من المترجم كان لفتة جيدة اعطتنا تفسيرا لا نجزم بصحته قطعا بقدر ما نجازف في الاعتقاد بصحته مع توفر الشواهد من شعر الحلي ونثره، وما توارد من اخباره.

اما في غير هذا.. فان المترجم للحلي لم يضف شيئا جديدا زيادة على ما اورده الكتاب الاخرون عن حياته ومقامه في علوم الدين، ولعله لا يصح - رغم شهرة الحلي عند عارفيه - ان نتجاوز التطرق ولو بايجاز الى تلك السيرة العطرة.

فهو الشيخ عبدالحسين بن قاسم بن صالح بن محمد علي بن حسن بن هليل بالتصغير. من اسرة تعرف في الحلة آل هليل وينتهي نسبة الى كعب وقيل الى شمر.

ولد في الحلة في حوالي سنة ١٣٠٠ هجرية ودرس في الحلة صغيرا ثم هاجر الى النجف لطلب العلم سنة ١٣١٤ وما ان كملت سنة ١٣٢٠ هجرية الا وهو ممن يومى اليه في اتقان العلم والتفوق وتأهل منذ يومئذ لتدريس كتب الفقه والاصول. وفي خلال ذلك لم يبارح دروس مشائخه في الفقه واصوله لاسيما استاذه المحقق الاخوند الشيخ ملا محمد كاظم الخراساني.

كما لازم دروس الفقه على الشيخ محمود ذهب والسيد محمد السيد محمد تقي آل بحر العلوم الطباطبائي المتوفي سنة ١٣٢٥ هجرية.

ثم تتلمذ الحلي على العلامة الشيخ فتح الله الشيرازي الاصفهاني النجفي المدعو (بشيخ الشريعة). وقد اجازه في الرواية وكانت تلك الاجازة شفاها ثم كتبت له بخط يده، وقد زعم انه لم يكتب لاحد مثلها، وهي مبسوطة جدا. كما درس الكلام والحكمة النظرية والرياضيات والهيئة. ومشهور عن الشيخ الحلي انه سريع الحفظ حتى انه حفظ شهرا من كتاب القاموس المحيط وفهرست كتاب الوسائل في الحديث ويستحضر الكثير من كتب الادب بشواهدها الشعرية.

ويقول المترجم "وقد سألته عن ذلك فقال: في هذا بعض المبالغة ولا يستبعد اني من قبل الحرب العالمية كنت الم بشطر وافر من هذه المبالغة" وكان يحفظ الكتب التركية والفارسية وهو لا يحسنها وقد كان يتكلم بها في الجواب على الأسئلة. أما المؤلفات فللشيخ الحلي مصنفات عديدة في الفقه وأصوله وشروحه وتعليقات ورسائل مفردة متنوعة. ولم يطبع من هذه الكتب سوى الجزء الأول من كتاب "النقد النزيه لرسالة التنزيه" ويتضمن ذكر الشعائر الحسينية وأصولها. وسبب عدم نشر كتب الشيخ الحلي هو سفره الى البحرين وتركها . حسبما يقول المترجم . لدى من لا يعرف لها مقدارا فتلف منها وتبعثر الشيء الكثير.. أما مكتبته فقد أهداها إلى مكتبة "أمير المؤمنين" قبل سفره إلى البحرين.

أما عن مواقف الشيخ الحلي الوطنية فيقول المترجم:

"له مواقف وطنية كثيرة منها اشتراكه في الثورة العراقية الكبرى والنداء الذي وجهه مع علماء الدين في النجف لإعلان الجهاد المقدس وقد اشترك فعلا في حمل السلاح والذود عن حمى الوطن وتحرير البلاد من نير الاستعمار والاغتصاب، والقصيدة التي اشترك بها في مهرجان الشعر الذي أقامته هيئة الإذاعة البريطانية في البحرين والتي فازت بالجائزة الأولى خير دليل واعتراف حق باشتراكه في معارك الوطن".

عنوان هذه القصيدة (الحنين الى الوطن) وقد احرزت فوزا باهرا في المبارات الشعرية الدولية التي نظمتها اذاعة لندن في الأربعينات. يقول فيها:

لولا انتزاحي عن اهلي وعن وطني ... لم يجف جفني يوما لذة الوسن
له صبوت وما في صبوتي عجب ... اني شربت هواه العذب في لبني
فارقته ويرغمي ان تباعدني ... عن قربه مهن جرت الى محن
ان دام حزني فلا والله ما نظرت ... عيني الى منظر من بعده حسن
اذا شجاني اني عنه مبتعد ... فإن ذكراه سلواني من الشجن
قالوا هواه من الايمان قلت لهم ... نحول حديث "من الايمان" عن اذني
اني امرؤ لا ارى الايمان يحفزني ... له ومن فوق ايماني ارى وطني
عبدته وهو احجار ولا عجب ... من مسلم في هوى اوطانه وثني
كفى باني لم اشرك بوحدته ... سرا واني ما داهنت في علني
لقد بكيت وابكيت الصخور معي ... من غربة لي جرت اعظم المحن
ان الغريب وان عزت مكانته ... هيهات ينفك عن وجد وعن حزن
تظنه بهناء العيش مغتبطا ... لكن عيش غريب الدار غير هني

قالوا اتبكي على الاحجار قلت لهم | بهن مرمس ابائي الكرام بنى
بمعشري وبآبائي وبي رفعت | منها المقاصير في الارياف والمدن
اني لأعذل من يبكي على احد | ولى واعذر من يبكي على الدمن
ارض رسى مغرسي فيها فطاب وكم | منه تفرع للعلياء من غصن
بها نشأت وفي ابياتها انتزعت | تمائمي وبها اقتاد الهوى رسني
لها تحملت ما تفنى النفوس به | يا حي من بقيت اوطانه وفني
ما للنفوس سوى اوطانها ثمن | وليس للوطن المحبوب من ثمن
كم غمرة خضتها للذب عنه وما | غامرت بالنفس في يوم من الزمن
ونار حرب له كنت اشتملت بها | كالماء افرغه بردا على بدني
ان عربد المدفع الرعاد قمت له | شوقا، وما قمت من خوف ومن جبن
وان دوت من فم الرشاش زمجرة | حسبتها نغمة الاوتار في اذني
ابيت في خندق ضنك فاحسبه | غمدا اقام به سيف بن ذي يزن
اصافح الترب فيه وادعا وارى | اني على المسك ثاو لا على درن
واستلين به الاحجار احسبها | مهدا ولو لا هوى الاوطان لم تلن
اني اغار عليها ان تدنسها | او ان تمد لأدناها اكف دني
اعيذها ان يحل الضيم ساحتها | وان تهى. لا وهت يوما. وان تهن
يا ايها الوطن المحبوب لا برحت | منك المواطن في امن من الفتن
اني لأنعم عينا في هواك وان | اوليتني منك ظهر المركب الخشن
افديك بي ان غدا في لحظ باصرة | موتي ومحياك مقرونين في قرن

ثم نعود الى مؤلفات ومصنفات الشيخ الحلي وهي كثيرة منها ما هو موجود ومنها ما فقد او تفرق وكلها مخطوطة لم تطبع. وقد استطعت ان احصى منها حتى الان ما يلي استنادا الى ما توفر منها مخطوطا او ما ذكر في ترجماته القليلة :

١. الفلك القـديم والحـديث: وهو كتـاب وجيز في علم الهيئة يتضمن في كل باب ذكر المذهبين مجردا عن البرهان.

٢. ينابيع الاحكام في اصول الفقه.

٣. اللمحات القدسية: وهو كتاب كبير يتضمن مسائل كثيرة من مشكلات الفقه.

٤. منظومة في الاخلاق والاداب من الف بيت.

٥. مصارع الكرام في وفيات النبي والائمة عليهم السلام.

٦. الشجرة الملعونة: كتاب فلسفي يتضمن مثالب بني امية ويتكفل الرد على النصولي في كتابيه.

٧. دين الفطرة: كتاب ديني فلسفي يلائم روح العصر الحاضر يقع في جزئين الاول في اراء الملل الكبرى في العالم والثاني في محاسن الشريعة الاسلامية اصولا وفروعا.

٨. النقد النزيه: وهو الكتاب الوحيد الذي طبع منه الجزء الاول.

٩. الاصنام المعبودة في الاسلام: كتاب يتعرض فيه لأصل الشيعة ويرد على كتاب "فجر الاسلام" لأحمد امين.

١٠. مخطوط في تفسير آيات القران الكريم.

١١. مخطوط يتضمن تراجم للعلماء.

١٢. رسالة في ترجمة استاذه شيخ الشريعة.

١٣. شرح العروة الوثقى وهو مخطوط من ٣٢٦ صفحة.

١٤. جعفر بن محمد ـ لم يكمل بسبب وفاته.

(١) الكميت بن زيد الاسدي (٢) الشاعر البطل ابو فراس (٣) تحقيق النسخة المشوهة من ديوان "مهيار.. الديلمي" ثم طبعها. ويقول عن ذلك "جعفر الخليلي" ان ملكاته في التحقيق والبحث واكمال الناقص وتصحيح ما وقع فيها من غلط ... كانت موضع اعجاب الجميع (٤) مقالات عن المستشرقين نشرت في الاعتدال النجفية عدد٢ السنة الثالثه تموز ١٩٣٥. (٥) دراسة عن الشعوبية نشرت متسلسة في الاعتدال واسهم فيها بنظرات وافكار جديدة. وتكفي مادتها لكتاب مستقل.

نشرت متسلسة في الاعتدال النجفية ـ العدد ١٠ السنة الثالثة مارس ١٩٣٦. (٦) حياة الشريف الرضي .. وكان على ما يبدو في شكل كتاب قيم لكن لجنة علمية من منتدى النشر اختصرته ونشرته كمقدمة للجزء الخاص من كتاب "حقائق التأويل". استعان بها الدكتور زكي مبارك في كتاب "عبقرية الشريف رضي". حيث قال الدكتور (على الصفحة ٢٨٢/الجزء الثاني) ما يلي: وكان في النية ان اكتب فصلا عن الشريف مؤلفا.. ثم رايت الوقت اضيق من ان يجود بدراسة انفع من الدراسات التي قام بها (منتدى النشر) حين طبع كتاب (حقائق التاويل) . كما نسبت مجلة (هنا البحرين) في ذكرى الحلي بتاريخ ٥٧/٣/٢٩م الى الدكتور زكي مبارك قوله عن الحلي :"من يقرا للعلامة الحلي شعرا او نثرا يكبر في همته، واني لم اكن اعتقد بان يكون هنالك رجل اديب كالحلي كما انه لا يمكن ان يكون اديب مثله". اما ديوان اشعار الحلي او ما بقي منه اليوم فيحتوي على اكثر من مائتين وعشر قصائد وقطع وابيات زوجية او مفردة من الشعر يزيد عددها عن ٣٤٩٠ بيتا.

ومواضيع القصائد متنوعة في الديوان، ودراسة ديوان الحلي تحتاج الى بحث مطول مفصل وتحليل ادبي نقدي لا تتسع له هذه الاطلالة على سعره. ولكن بامكاننا ان نتعرف عشوائيا على مواضيع شعره من بعض عناوين تلك القصائد، مثل:

وطني وقومي ـ ايها الانسان ـ الرقي المعكوس ـ المتكبر ـ خنزير الذهب ـ الحب الطاهر ـ جامعة الدول العربية ـ الحق والقوة ـ زهرتي ـ البلبل السجين ـ رهين المحبسين ـ نص المعاهدة ـ مولد الحسين ـ ميدان الحياة ـ ليالي الرصافة ـ اسرار الهوى ـ اشكال والوان ـ دعابات بريئة .. تنظيم الرياحين.

وقد لفت نظري في العنوان الاخير تعدد الاشعار عن جمال الطبيعة ولا سيما الرياحين والازهار وهو بها جد مفتون وهذه بعض ابيات منها، .. يقول فيها:

بالـروض تعيث من حـين الى حين ... اموكــل انـت تنظيـم الريـاحـين

إن كنـت تهـواه مفتـوناً فـلا عجب ... حســن الطبيعــة مهوى كل مفتون

وإن أقمـت سجينــاً في حدائقـــه ... كــرهاً فيــا حبـذا دار المســاجــين

ناسب بنظمك ما بين الزهـور تفـز ... بالمبهجـين معــاً رصف وتكــويـــن

فـلا تضـم لآس غيــر ســوسنـــة ... ولا بنفــسجـــة إلا لنســريـــن

وحــاذ بالسـرو بانـاً كــي تقـابلـــه ... بمثلـه في إعتـدال القــد واللـين

شمر بجدك عن سـاق الغصون فلا ... تبتــل بالمـاء أو تنساخ في الطـين

ودارهـا تمتطـي الأعـواد صاعـدة تمشي بـلا قـدم مشـى الثعـابـين
بالياسمـين وهـذا منتهـى قسمـي وكنت أقسـم عـين الورد تصميني
كمم عيوناً لغض النرجس أنفتحت دوني فأسهم عين الـورد تصميـنـي
وسـل حـزنـي إذ خـد الشقيـق بدا بنظرة منـه تسلـى كـل محـزون
قالـوا الغصـون بيبـريـن ولم أره وكـل مـا أنـا راء غصـن يبـرين
قالوا الشذا هو من دارين قلت لهم هـذي البـراعم تطـوي نشر دارين
قالوا لقد جن هذا الشيخ قلت لهم من ذا بمـا همت فيه غير مجنـون
إني أمرؤ بهجة الأزهـار تسحرنـي وما سوى نغمـة الأطيـار ترقينـي
هـذا جنونـي ولكـن لا أعيـش بـه بلـذة وهنـي عيـش المجـانـين

ثم ينتقل إلى زهرة " عباد الشمس " فيخاطبها قائلاً :

يازهرة الشمس حسبي إن أراك ضحى ولـو بيـوم بسحـب الجـو مدجـون
لقد نظرت لوجـه الشمس حين بدا بناظـر لك بـالأ نـوار مـرسـون
شخصت للقـرص لما بـان أولـه كجايع مد طـرفـاً نحـو عرجـون
طـوعـاً نظـرت إليـه أم مقـاسـرة ما ذاك إلا لسـر فيـك مكنـون
رأى بك الفرس برهانـاً لما عبـدو ومبدع الشمس أولـى بالبـراهـين
هل أقتدوا بك أم أنت أقتديـت بهـم أم أنت فرسيـة الأخـلاق والديـن
خذي كمامك مخضـراً يـلاث على أهدابك الصفر أو أحداقك الجـون

وعلى نفس الوزن ينتقل إلى الكلام عن أبنة الفرس وسفورها بحيث يمكن إعتبار القصيدة ثلاث قصائد مستقلة .

ولا بد هنا من التنويه — ونحن بصدد ديوان شعر الحلي بالجهد الذي بذله ولده في البحرين محمد هادى ، وهو لم يتجاوز الخمسة عشر عاماً حيث قام وهو بهذه السن المبكرة بنسخ ديوان شعر والده الشيخ بخط يده وكذلك بعض الأوراق الأخرى قبل إرسال أصولها المكتوبة بخط الشيخ إلى الحلة وذلك بناء على طلب من أكبر أولاد الشييخ وهو الدكتور على الحلي رحمه الله .

بقى لهذا الحديث عن الحلي شطر لا يكمل بدونه انه سؤال طالما ردده الادباء والكتاب في تناولهم لسيرة فضيلة الشيخ الحلي وهو لماذا ترك النجف الذي يعرفه جيدا ويهواه الى مجتمع مختلف في جزيرة البحرين؟ يلي ذلك سؤال آخر لماذا سمح له اصدقائه وعارفوه و"الحوزة العلمية بالذات" ان يهاجر من النجف؟ تلك العبارات التي كتبت في هذا المعنى وفي طياتها توبيخ للذات النجفية ان صح التعبير ممزوجة بعتاب. يقول الاستاذ جعفر الخليلي (صفحة ٢٦٤/ هكذا عرفتهم) . "ومثل هذا الموقف النابي، المخجل من الحكومة كان موقف النجف واكثر. تلك المدينة التي نهلت من فيض الشيخ عبد الحسين نحو خمسين سنة كأستاذ لمعاهدها وكركن من اركان ادبها الرفيع وكعميد من عمداء الفقه والبحث والتحقيق. تلك المدينة التي تساوي العالم والجاهل والكبير والصغير في معرفة الشيخ عبدالحسين بحقيقته. لا ادري كيف رضيت لنفسها ان تراه يغادرها الى البحرين بصفة رئيس للتمييز الشرعي دون ان تحرك ساكنا؟ وهي تعلم - أي النجف - ان الشيخ عبد الحسين قد افنى زهرة عمره في سبيل عزتها العلمية. وشهرتها الادبية. وهو عمر لو قضى الشيخ عبدالحسين بعضه - والبعض اليسير منه - في مصلحة خاصة لبنى لنفسه ما بنى. وعمر ما عمر. وكانت التبعة تقع في الدرجة الاولى على الزعماء الروحانيين. وكان بوسع هؤلاء الزعماء وحدهم ان يحولوا بين الشيخ وبين السفر من اجل العيش، وكان المسؤول الاكبر في ذلك السيد ابو الحسن الزعيم الروحاني الكبير".

وهكذا اقبل الناس في النجف والعلماء خاصة، بعضهم على بعض يتلاومون في امر هجرة الحلي من النجف الى البحرين. اما الشيخ الحلي نفسه فقد شد رحاله الى البحرين وهو يقول في ابيات من شعره عنوانها "مغنية الحي" ما يلي :

ترحل لتدرك ما تطلب	اذا عز في حلك المطلب
صل الجدب بالجدب حتى يبين	لمرتاده المرتع المخصب
تغرب، وغن.. فاني رايت	مغنية الحي.. لا تطرب

حدث في النجف. اما في البحرين فالقصة لها وجه اخر.

لقد كان القضاء الشرعي الجعفري عند حلول عام ١٩٣٥ سببا لصداع مزمن لدى الحكومة أو لدى مستشار الحكومة "تشارلز بلكريف" بالذات فعلى النطاق الشعبي كان هناك استياء بالغ لدى الجمهور سببه اختلاف قضاة الشرع وتنافسهم وتضارب الاحكام التي يصدرونها باسم الشرع الديني.. ولم يجمع معظمهم ربما - الا امر واحد وهو معارضتهم لتدخل الحكومة في تنظيم القضاء الجعفري وتصميمها على تنظيم وادارة دوائر الاوقاف وشئون اموال القاصرين.

وقد استتب للحكومة امر انشاء دائرة الاوقاف الجعفرية، ودوائر اموال القاصرين، واستبعدت من عارضها من العلماء والقضاة من مناصب الدولة. اما امر الاستياء من تضارب الاحكام والتاخر في اصدارها فقد عمد المستشار كما يبدو لمعرفة الاراء لحل ذلك، واستقر رايه على استقدام قاض شرعي من النجف لتمييز الاحكام الشرعية قبل نفاذها. وسمعت انهم اشاروا عليه بتكليف المرجع الديني الاعلا في النجف بترشيح من يرى، وقام والدي رحمه الله باعتباره ممثلا عن المرجع الديني آنئذ وهو السيد ابو الحسن بالكتابة اليه فجاء الترشيح لهذا المنصب باسم (الشيخ عبدالحسين الحلي) الذي ملأ هذا المنصب بجدارة وبكفاءة، لا مثيل لها.

وفي غمرة انشغاله بالتمييز والقضاء لم ينس الشيخ ان ينشئ مدرسة دينية وفقهية تخرج منها عدد من علماء الدين في البحرين، هذا الى جانب تشجيع الادب والثقافة والممارسات الفكرية. ولهذا السبب فأن ما يرد من سؤال في البحرين عن قدوم الشيخ الحلي اليهم يتعلق بماهية التعجب والاستغراب من قبل المجتمع النجفي. اليست المهمات التي قام الشيخ الحلي بانجازها في البحرين هي من صميم اهتمامات رجال العلم.. وترجمة لمسؤلية تعميم المنفعة من طلب العلم بين الناس؟

ولكن الحلي سرعان ما احس بالغربة بعد وصوله الى البحرين، وظل متعلقا بالبيئة العلمية التي الفها في النجف والفته، وافتقدها فجأة فشعر بمرارة وحرقة لازمته خلال ما يناهز العشرين عاما في البحرين حتى توفي فيها في مساء يوم الاحد الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٦٥ ودفن في جوار مقابر العلماء بالمنامة، وبقيت هذه المرارة في شعره من بعده حيث يقول:

لقد بكيت وابكيت الصخور معي	**من غربة لي جرت اعظم المحن**
ان الغريب وان عزت مكانته	**هيهات ينفك عن وجد وعن حزن**
تظنه بهناء العيش مغتبطا	**لكن عيش غريب الدار غير هني**

لقد عاش الشيخ الحلي في البحرين غريبا، ومات فيها غريبا وذلك رغم ما حفلت به حياته فيها من مظاهر الود والحفاوة والاحترام والتقدير، وما تخللتها من صداقات متينة واجواء ثقافية وادبية كان دائم الحضور فيها. ولا اعني بالغربة فقط ابتعاده عن مسقط راسه في الحلة او رفاق دربه في النجف، فقد كان لقاؤه يتجدد في كل عام مع البيئة العلمية والمجتمع الادبي الذين افتقدهما. كما كان دائم الافصاح عنها في شعره.

اما الغربة التي لم يفصح عنها جليا فشعوره الدائم في البحرين وكانه في شجن يضيق عليه حق الاختيار، ويفرض قيودا من المفاهيم البالية لا يرتاح اليها. ومركزه كقاض للتمييز الشرعي لا يسمح له ان يقول ما يشاء مجاراة ومجاملة للجمهور. كان بشهادة العارفين. حجة في الفتوى ولكن الناس لم تعرف من تلك الفتاوى سوى الاحكام النهائية اما الحيثيات والدراسات العميقة فكانت تقبع في ظلام السجلات وتحت اكوام من غبار النسيان، وكان بشهادة المقربين اليه مثالا في التواضع ولكن فهمه للتواضع يختلف عن الاخرين.

لقد اصر منذ قدومه ان لا يمكن احدا من تقبيل يده .. واذا هم شخص بذلك كان يسحب يده بسرعة، فاعتبر الناس ذلك منه احراجا، او تكبرا، واعتبره اخرون اهانة وتحقيرا فامتنعوا عن زيارته بل ان جمهورا كبيرا قابله بالامتعاض والاستنكار لا لشيىء الا لان في فمه سنا من ذهب! رغم ان الضرورة احوجته الى ذلك.

كان يود المرور في الاسواق ومجالسة الاصدقاء ولكن الحمهور اعتبر ذلك خروجا على التقاليد. وكان يحب مجالسة الشباب من الادباء والمثقفين ومحادثتهم.. فداوم على حضور حفلات نادي العروبة والاشتراك في مناقشاتها، ولكن القلة من الادباء واصحاب الفكر كانت تتردد عليه في مجلسه، تحاشيا للاحراج ممن تعودوا على زيارته متمسكين بنظرتهم اليه كرجل دين متزمت، لا اديبا متفتحا او مفكرا. وكان الحلي يتأفف من كل ذلك ويرى فيه جهلا يتستر بالعلم وحماقة تحتمي بالعرف والتقاليد. لقد كانت التوافه تشغل بال الجمهور والمظاهر تستحوذ على اعجابهم، والتباهي بالعلم والادب اصبح ميدانا للتفاخر الاجوف..

ولم تكن صراحة الحلي المعهودة لا سيما حينما يتعلق الامر بالحكم الشرعي، او التقييم الادبي، لتعجب من حوله. ولكن كل ذلك لم يقف حائلا بين الشيخ الحلي وتأدية واجباته بجهد واخلاص نادرين سواء في مكتبه او اثناء عزلته الاختيارية في المنزل مع المراجع والكتب كما ثابر على المساهمة في النشاط الفكري والثقافي والادبي بابحاث ومساهمات في مجال الشعر والنثر. وقد افتتح مدرسة علمية وتخرج على يده عدد من العلماء الافاضل.. ولكن الكثير من انتاجه العلمي والادبي لم ينشر بعد ولم يعرف طريقه الى القراء والمهتمين. وحتى بعد موته رحمه الله لم يحظ بالاهتمام الواجب من قبل الدارسين والكاتبين والناقدين في هذا البلد.. او ذاك، وتلك هي الغربة الاخرى التي اشرت اليها في فقرات سابقة.

زار الشيخ الحلي في اوائل الخمسينات الاستاذ رشاد بيبي من اذاعة الشرق الادنى واجرى معه مقابلة نشر عنها في حينها ومما قاله عن الحلي: "اما الحلي فهو شيخ قد تخطى الثمانين، ولكنه في همة الاربعين، يستقبل الناس في بيته على ارائك من خشب او كراسي خيزران، وكل ما في حجرة الاستقبال يدل على التقشف والزهد،

بل ضيق ذات اليد والشيخ طلق المحيا انيس المعشر، حاضر البديهة ولا غرو في ذلك، فهو مميز الشيعة وكلمته الفصل، غادر الحلة بلده شابا الى البحرين، فاتخذها مقرا وهو بالاضافه الى تبحره في العلوم الدينية، شاعر طار صيته في جميع الاقطار، رايت له ديوان شعر مخطوطا تناول فيه شتى المواضيع باسلوب جمع فيه بين جزالة القديم وسهولة الحديث. وقد تكرم الشيخ فانشدنا بعض اشعاره، فهزنا وبهرنا، وحين عرضت عليه ان نسجل بعض هذا الشعر لكي لا نستاثر باللذة والفائدة دون المستمعين، اجاب بتواضع العلماء:

(ان كنت ترى يا بني ان فيه ما تنفع اذاعته، فشأنك وهاك المخطوطة اختر منها ما تشاء) ولكني رجوت الشيخ ان يختار، ففعل وسجل بصوته المتهدج وانشاده الفطري ما يعكس شخصيته وعنوان نفسه)

عند الاستماع الى القصيدتين اللتين سجلهما الحلي للإذاعة أو قراءتهما نكتشف ان الشيخ قد افرغ ما في نفسه من مشاعر واحاسيس في ثنايا ابيات القطعتين الشعريتين وما بين شطورهما حين عبر من خلال معالجة الموضوعين عن كثير مما يحس به او يتالم منه، او يستنكر حدوثه.

ففي قصيدة (البلبل السجين) يتكلم عن ظلم الجناة قائلا:

"يا كثير التغريد والحركات منك يجنى عليك ظلم الجناة"

كما يتكلم عن مسايرة الزمان وعن اضطهار الأحرار وظلم السجون لينتهي منها قائلا:

"رب سجن خير وارحب بطنا لأولى الفضل. من صدور الفلاة"

اما القصيدة الاخرى فهي عن ابي العلاء معري، وقد رايت ان اختم بها هذا الحديث. يقول فيها:

انت فيما ارتايت حر طليق ليس يثنيك عنه سجن وضيق
خير سجن لديك ماتم فيه لك عهد من الخلود وثيق
نعمة السجن حزتها اتراه فاز فيها من قبلك الصديق
ايها الفيلسوف حسبك اراء تسامت.. يزينها التطبيق
صفحة انت من "تنوخ" ارتنا حكما ما اتى بها الاغريق
سرت والناس في طريق ولكن بك. لا بالجمهور. غص الطريق
جئت تسعى لهم بفلسفة سوداء ما للآمال فيها.. بريق
فتشاءمت والحياة اذا فكر فيها الحكيم، شؤم محيق

وتبــرمـــت بالنظـــام ومــــن ذا　　يرتــضي ما بــه تضيــع الحقــوق
ورحمــت الحيــوان وهــو غــريــب　　فــوق ما يرحـم الشقيــق الشقيــق
رب عــدل بــه التقــاليـــد جــاءت　　هـــو . فيما لديـك . جـور دقيـــق
رب حكــم كالــرق في النــاس لكن　　ليــس فيهــم . فيما تــراه . رقيـــق

وســـواء لديــك، في فضله، الحبـر　　وشيـــخ الاســـلام والبطــريـــق
قــد دخلت الجحيــم لكن تجــافي　　عنــك . لـمـــا دخلــت . فيه الحريــق
ورايــت العــذاب في النــارصبــرا　　فيـــه يشــقى الفقيــه والجاذريق
وبــدار النعيــم طفــت فأطـفـــى　　حــرق القلب منــك فيهــا الرحيق
كمــا بهــا شمــت ظــالمــا واثيمـــا　　هــو بالنـــار.. لا النعيــم خليـــق
لـــو تــروم العقــول حـــلا لهـــذا　　.وهـــو شـــر. نـــاءت بمـــا لا تطيق

شـــاعــر، شــاعــر وكم من شهيــر　　لغـــط خيــــر شعــــره ونعيـــــق
ضيقــت موقــف الفطــاحــل منــه　　سعــــة الفكــر واللســـان الذليـــق
صقــل الحــس منـــه قلبــا ذكيـــا　　لمعـــت فيــه من جـــلال . بـــروق
فــراى ما تــرى العيـــون بوعـــي　　لخفــايـــا عنهــا البصيــر معـــوق
شاهــد الكــون وهو يعرض الوانـــا　　.. علاهـــا التــزويــر والتزويـــق
فتـــولــــى عنــــه واولاه نقــــدا　　هكــذا يفعــل الحكيــــم الشفيـــق

وبعد . يخيل إلي . بعد مرور أربعين عاما على وفاة الشيخ الحلي . ان الروبية العيدية التي همت بها طفلا، ليست هي كل ما هو موجود تحت بساط الشيخ الحلي الحافل بالمفاجآت الممتعة والمفيدة، فالحلي عالما وفقيها، وشاعرا وأديبا، ومحققا وناقدا والحلي إنسانا... كل هذه الأشياء ما تزال راقدة في مكانها في انتظار الأيدي المسعفة والعقول المهتمة بإحياء التراث لانتشالها من تحت ذلك البساط. أنها دعوة أوجهها الى كل المهتمين في سبيل تحقيق تراث الحلي ونشره على العالم العربي لافى النجف وحده.

والوارد في هذا المقام تشكيل لجنة تعنى بذلك التراث.. تراث فضيلة الشيخ عبدالحسين الحلي.. الذي عاش وحيدا ومات غريبا...

الفصل الخامس
أعمال غير منشورة

* اتحاد العمل البحراني
* نادي العروبة ... أوجه الآخر
* أمثال الشريف الرضي
* كلمة في حفل تكريم السيد عدنان العوامي







أتحاد العمل البحراني
(للعمال والموظفين وأصحاب المهن الحرة)

من ذكريات تقي محمد البحارنة

مقدمة تاريخية:

في التاريخ الحديث للحركات الوطنية في البحرين ، تشكل القضايا العمالية محورا أساسيا منذ بداياتها في أوائل القرن العشرين . ففي الفترة التي سبقت استخراج النفط (١٩٣٠) و ماقبلها كانت الطبقة العاملة الكثيفة التي تتشابه في ظروف العمل ومستوى المعيشة هي طبقة الغواصين اللذين كانو يعملون في صيد واستخراج اللؤلؤ وما يتعلق بذلك من جمع المحار، وفرزه وتنظيفه ، وأعداده ليصبح صالحا للبيع والتجارة. أما الطبقات الأخرى فكانت تشمل الفلاحين ، والعاملين في البناء ، وغيرهم من المستخدمين في أعمال الخدمات. وهؤلاء مختلفون من حيث ظروف العمل ، والأجور ومستويات المعيشة.

وقد سجل المؤرخون بداية المطالبة بالأصلاحات العامة والاصطدام مع سلطات الحماية البريطانية ، وذلك في عام ١٩٠٤ / ١٩٠٥ . وكانت الموجات الجماهيرية خليطا من كل أولئك ،مما أدى الى مضايقة المقيم السياسي البريطاني الميجر (برسي كوكس).

وينطبق مثل ذلك على أحداث عام ١٩١٤ والمعروفة بانتفاضة علماء الدين المشهورة ، أما أحداث عام ١٩١٩ فقد قام بها الغواصون بالذات لتحسين أحوالهم والتي عرفت بثورة (الخير) .

ثم تلت ذلك أحداث ١٩٢٠ والتي شاركت فيها شرائح المجتمع بمختلف فئاتها. تلت ذالك أحداث عام ١٩٢٣ المشهورة.

وفيما بين الأعوام ١٩٢٦ و ١٩٣٢ شهدت البحرين سلسلة من التظاهرات قام بها الغواصون احتجاجا على القوانين الظالمة لتحديد نظام القروض للغواصين وأصحاب السفن (النواخذة) .ثم تطورت الى مطالبات أصلاحية أخرى ، وذلك على أثر كساد سوق اللؤلؤ عام ١٩٢٩ .

وحينما بدأت في البحرين صناعة النفط (١٩٣٢) أجتذ بت شركة النفط (بابكو) معظم الايدي العاملة وذلك رغم قلة الاجور وظروف العمل السيئة واعتماد الشركة على التعاقد مع الوسطاء لتوفير العمال .لهذا بدأت مشاكل العمال وشكاواهم من قلة الاجور والظروف السيئة للعمل ،

تظهر الى السطح أبتداء من عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٤٢ .حيث شهدت البلاد الاضرابات والمسيرات ، وقامت الشرطة باعتقال أعداد من المتهمين بتأجيجها ، ثم أنزلت السلطات البريطانية قوات كبيرة لقمع المتظاهرين واعتقال عدد اخر منهم.

ومن الجدير بالملاحظة في هذا الصدد فيما يتعلق بما ذكر من احتجاجات ومطالب أصلاحية سواء من قبل الغواصين أو العمال أو الوطنيين ذوي المطالب الاصلاحية .. أن السلطات في معظم الأحوال كانت تتجاهل عامدة الأسباب الرئيسية لها ، وطرق معالجتها بأسلوب سليم ، لكي يقتصر همها الوحيد على القمع والأعتقال والتسفير ..والبيانات الغامضة عن الاخلال بالأمن العام.وكأنما أمن المواطن وتحسين ظروفه المعيشية وشروط العمل كلها أمور ثانوية لا أهمية لها. وقد تشكلت في معظم تلك الحركات هيئات قدمت مطالبها الى السلطات ، وبدلا من أغتنام فرصة الاصلاح بالتفاوض مع تلك الهيئات المعروفة بوطنيتها وأخلاصها لبلدها ، فقد قامت السلطات باعتقال أولئك الممثلين في معظم الأحوال ، أو ملاحقتهم أو تسفيرهم ..

حدث ذلك فيما قبل عهد مستشار حكومة البحرين السيد بلغريف ، ثم حدث بصورة أشد أثناء عهد المستشار المذكور بأسناد من سلطة الحماية.

في مثل تلك الظروف ذات المشاكل العالقة مع فئات العمال ، ودعاة الأصلاح والتغيير ، تمخض الجو السياسي عن ولادة حركة سياسية شعبية عارمة تحت أسم (الهيئة التنفيذية العليا) والتي تغير اسمها بعد اعتراف حكومة البحرين بها الى (هيئة الاتحاد الوطني) ..وبغض النظر عن الموضوع السياسي ، فأن أحوال العمال عند نشوء " الهيئة " كانت تتردى الى الأسوء ..ولم يكن التذمر العمالى أنذاك مقتصرا على عمال شركة (بابكو) التي تمادت في فصل العمال ، واستبدالهم بالأجانب والتضييق على حقوقهم ، بل تعداه الى شركات كبرى في المقاولات مثل شركة (أكمي) وغيرها .. حيث لعبت تلك الشركات دورا مهما في التخفيف على شركة (بابكو) عن طريق ضم العمال اليها مما أدى الى فقدان حقوقهم المكتسبة من الخدمة الطويلة مع (بابكو) الأمر الذي أثار المزيد من الاحتجاج والتذمر العمالي .

ولما كان عمال البحرين على مختلف فئاتهم ، هم اكثر اللذين تحمسوا لنشاط (الهيئة) وساندوها في أنجاح الاضرابات والامتناع عن العمل التي قامت بها (الهيئة) وكانوا هم المتضررين الأكثر من جراء تلك الاضرابات سواء بسبب فقدان رواتبهم وتعريضهم مع عوائلهم للجوع ، أو بسبب تهديد الشركات لهم بالفصل من أعمالهم ، أو منع الترقيات عنهم .. الى غير ذلك ..وبسبب كل ذلك ، ولكون مطالب العمال المشروعة كانت و ماتزال من أولويات كل مواطن غيور ، فاننا لا نستغرب أن تكون تلك المطالب العمالية من أولويات الحركات الوطنية ولا سيما حركة (ألهيئة)

لهذا جاء في المطالب التي تقدمت بها (الهيئة) عند تأسيسها ما يلي :

(٣- السماح بتأليف نقابة للعمال ونقابات لأصحاب المهن الحرة تعرض قوانينها ولوائحها على المجلس التشريعي لأقرارها ..)

.. يقول السيد عبدالرحمن الباكر بهذا الصدد في مذكراته المنشورة ما يلي :

(ص-١٥٧ — كان تأليف نقابة العمال وسن قانون عادل للعمل من مطالب الشعب الرئيسية التي تقدم بهاممثلوه الى المسئولين ، والتي تدل على ما تحتله القضية العمالية من مكانة بارزة بين قضايا المجتمع الاخرى. ولاغرو أذا ما اعتبر الشعب ا، أي حل لتلك القضايا لا يتضمن أنصاف الطبقة العاملة والاعتراف بحقوقها الثابتة ، هو حل مبتور لا يرضى به ولا يقره ..)

فيما عدا ذلك فقد طرأت على الساحة في عهد الهيئة أبتداء من عام ١٩٥٥ مشكلة عمالية فرعية تخص أصحاب السيارات والتأمين الألزامي من خلال شركات أجنبية مستغلة..وقد عولجت هذه المشكلة بمهارة من قبل السيد عبدالرحمن الباكر (سكرتير الهيئة) بأنشاء المؤسسة التعاونية

(صندوق التأمين التعاوني) الذي شاركت في وضع قانونه الأساسي مع المذكور بالأضافة الى المرحوم قاسم أحمد فخرو .

أتحاد العمل البحراني :

أنشأت (الهيئة) بمجهودات من قبل عبد الرحمن الباكر هذه الهيئة العمالية للعمال والموظفين وأصحاب المهن الحرة .ويقول الباكر بهذا الصدد في مذكراته (ص ٨٦) ما يلي :

(..في غمار هذه المعمعة قررنا تأسيس نقابة للعمال دون الحصول على أذن من الحكومة ، وقبل الانتهاء من سن قانون العمل والعمال. وقد أقبل العمال على الاشتراك في النقابة أقبالا منقطع النظير وبصورة لم يكن أحد منا يتصورها مما يدل على أن الوعي العمالي أقوى بكثير مما يروجه المرجفون من جهلهم وعدم تفهمهم لأوضاعهم.وعلى أثر تأسيس أتحاد نقابة العمال أرتجت الأوساط النفطية والأستعمارية لهذا الأجراء الذي لم يكن متوقعا حدوثه بهذه السرعة وانزعجوا وتضايقوا منا وجاء الانكليز كعادتهم يحذرون من الاندفاع دون أيجاد قاعدة أساسية ويهددون بسحب عطفهم على الحركة...) ..وبصدد ما اضطرت اليه الحكومة لمباشرة وضع قانون للعمل والعمال ، يقول في موضع اخر (٩٢ -٩٣) من خلال جواب الهيئة على مذكرة الحكومة البريطانية ، والمؤرخ٢٩-٣-١٩٥٥ ما يلي : (.. ذكرتم في نية حكومة البحرين سن قانون شامل للعمل والعمال بمساعدة المستر أوزلي الخبير العمالي البريطاني في الشرق الأوسط .ونحن مع ترحيبنا بهذه الخطوة ألا أننا نود أن نشير الى أن مثل هذا القانون كان من الواجب أصداره قبل عشر سنوات على الأقل كما أن هذه النية لم تظهر أخيرا ألا نتيجة لبروز الوعي العمالي بوضوح ، وتكتل العمال في نقابة موحدة تدافع عن مصالحهم وحقوقهم بعد أن يئسوا من أقدام الحكومة (التنفيذية) على عمل أيجابي يصون مصالحهم ...)

ثم يضيف الباكر في مرحلة أخرى قوله (ص-١٥٧/١٥٨) :

(... لقد كان المنتظر أن يتم أصدار قانون العمل والاعتراف الرسمي بحق العمال في تشكيل نقابتهم الموحدة قبل انتهاء العام الميلادي المنصرم (يعني عام ١٩٥٥) – ولكن تشدد بعض أصحاب العمل المدللين وتمسكهم بوجهة نظرهم الأستغلالية كل ذلك أدى الى تأخير هذا القانون وعدم الفراغ منه حتى الان..) ثم يضيف في فقرة أخرى(. لقد أصدر العمال مؤخرا في بيانهم المؤرخ ٢٣ فبراير ١٩٥٦ والذي تضمن التعبير عن وجهة نظرهم في عدد من النقاط المتعلقة بقانون العمل والنقابة ، وقد سلمت نسخة منه الى الحكومة ، فمماذا فعلت لأنصافهم ...)

وعلى الصفحة ١٨٠ وما بعدها من مذكرات الباكر ، أشارة الى الأزمة التي حدثت أثناء مناقشة مسودة قانون العمل والعمال بين ممثلي العمال و ممثلي الشركات ، حيث يقول ..(لقد أخذت الحكومة بمبدأ موافقة الطرفين لاقرار القانون ، وهو مبدأ غير صحيح ، نظرا لاستحالة تطبيقه ولانعدام كفة التوازن بين كل من جانب العمال وأصحاب العمل. أذ كيف يجوز أن تعطي الحكومة لعدد محدود من الشركات التي كانت ولا تزال تستفيد من نفوذها الواسع العريض لظلم العمال وأرهاقهم ، نفس الحق الذي يعطى لفئات العمال المغلوبة على أمرها

والتي تمثل غالبية المجتمع (..) كما تتضمن الفقرة الأخيرة من كلام الباكر تصورا لفلسفة الهيئة تجاه قضايا العمال والتي يقول فيها ..عن سياسة الحكومة بصدد العمال : (... أنها لا تزال تنظر الى مشاكل العمال وكأنها قضايا متناثرة لا رابط بينها، بدلا من أن ترسم لها سياسة أصلاحية شاملة تستوعب القضية العمالية برمتها وتعالجها من جميع نواحيها ، بوضع قانون للعمال وتعويضات الأصابات ، و تأليف نقابة للعمال ، وتحديد مستوى أدنى الأجور ، والسيطرة الكاملة على الهجرة الاجنبية وتحديد نسبة المواطنين في الأعمال ، ومكافحة البطالة والعوز المادي والعناية بشئون الأنتاج ،

وأنماء الثروة المحلية ، كل هذه وغيرها أجزاء مترابطة لا يمكن فصلها عن الاخر ، وكل تسوية تقوم على أساس تجزئة هذه القضايا وتحقيق شطر منها دون الاخر ، لن تؤدي الى النتيجة المتوخاة من تنظيم الحياة العمالية ووضع أسسها الصحيحة وبالتالي تحقيق الاستقرار العمالي المنشود ...)

قصة أول نقابة عمال في الخليج :

كان من الممكن تدوين تاريخ أول اتحاد عمالي في البحرين وفي دول الخليج العربي من واقع سجلات " اتحاد العمل البحراني" المرتبة ، ويومياته المدونة ، وبطاقات الأعضاء المرقمة ، لولا ما ال اليه وضع (الهيئة) السياسي بعد اعتقال اعضاءها وملاحقة الناشطين فيها ومن بينهم من كان عضوا في الهيئة الادارية لاتحاد العمل. وقد حالت ظروف الاحتقان السياسي منذ اواخر ١٩٥٦ ، والتشرذم ، والتشرد والهموم الخاصة ومصارع الاقدار – دون التفرغ لجمع المستندات ورصد الوقائع وتسجيلها .

وفي اخر اجتماع للهيئة التنفيذية لاتحاد العمل بتارخ ١٥ فبراير سنة ١٩٥٨ – تم أقرار حل الاتحاد (أختياريا) وأغلاق مكاتبه ومقره الرئيسي على النحو التالي :

١-أيداع مالية الاتحاد في البنك البريطاني للشرق الاوسط تحت أشراف أمين الصندوق السيد أحمد الجابر.

٢-أعادة الاثاث المستعار من مجلة (صوت البحرين) الى السيد أبراهيم حسن كمال. ثم حفظ البطاقات والاثاث المتبقي والسجلات الخاصة بالمكتب لدى نائب الرئيس السيد محمد قاسم الشيراوي.

٣-أبلاغ السكرتير الاداري لحكومة البحرين المستر (سميث) بذالك ، والذي وعد بدراسة الموضوع والاجابة عليه. ثم جاء الجواب على لسان السيد يوسف الشيراوي أذ اتصل تلفونيا بالسيد تقي البحارنة وأبلغه أن صاحب

العظمة يرى أن يبقى الوضع على ما هو عليه . ولما كان النشاط العمالي محظورا انذاك ، وأهداف الاتحاد أصبحت غير ذات موضوع ..فقد راى الاعضاء المضي في تنفيذ خطة أغلاق المكتب ، ومن ثم تكليف السيد محمد قاسم الشيراوي بالاتصال ثانية بالمستر سميث وتسليمه صورة من هذا القرار.

وقد احتفظ السيد حسن علي المدني (أمين سر المجلس) بسجلات محاضر جلسات الاتحاد.. كما احتفظ السيد محمد قاسم الشيراوي بالباقي من الاوراق والسجلات والاثاث وبطاقات العضوية وغيرها. وصارت بيني وبينه مراجعات عديده على فترات من الزمن لتفريغ تلك المعلومات والكتابة عنها ولم تسفر عن نتيجة.

من حديث الذكريات :

واليوم ..فأن البحرين في عهد المشروع الاصلاحي لجلالة الملك المعظم ،تشهد مرحلة جديدة في تاريخ العمل النقابي المنظم. يهدف الى تحقيق مكتسبات عمالية طال انتظارها،

كما تشهد وعيا عماليا وجماهيريا مشرقا ، وقيادة عمالية ونقابية متوثبة ومخلصة ومسئولة.

لذلك وجدت من المفيد تسجيل ما علق بذاكرتي عن اتحاد العمل البحراني و مسيرته حرصا على تجذير تاريخ العمل النقابي في البحرين.، وتدوين بعض الحقائق والأفكار والملابسات التي أحاطت بتكوين الاتحاد المذكور وذلك مع الاعتذار سلفا للقارىء الكريم ، عن مغبة الخطأ والنسيان :

أولا - التأسيس :

تأسس اتحاد العمل البحراني بقرار من هيئة الاتحاد الوطني (الهيئة التنفيذية العليا) وتولى عملية التأسيس السيد عبد الرحمن الباكر بالتعاون مع أعضاء مجلس أدارة الاتحاد، وهيئته التنفيذية وهم :عبد الرحمن الباكر – محمد قاسم الشيراوي – تقي البحارنة – حسن المدني –محمد الساعي – أحمد الجابر – محمد رحمة التاجر – عيسى الحادي – حسن جواد الجشي . (ويحتمل أن مجلس الادارة كان يضم بالاضافة الى هؤلاء ، اثنين على الاقل من ممثلي العمال من بينهم السيد على ...)

وقد أسندت الرئاسة الى عبد الرحمن الباكر ، ولكنه لم يكن دائم الحضور في اجتماعات المجلس ، بسبب مشاغله وارتباطاته في الهيئة ، واضطراره للسفر خارج البحرين ، كما أنه ربما امتنع عن الحضور قصدا رغبة في عزل العمل العمالي عن النشاط السياسي. ولذلك فأن محمد قاسم الشيراوي كان يترأس الجلسات بالنيابة.

وقد أسند منصب الامين العام الى تقي البحارنة ، وسكرتارية المجلس الى حسن المدني ، وأمانة الصندوق الى أحمد الجابر. وكان مدير المكتب الأول أحمد علي التاجر ، ومن بعده حسن عيسى الخياط. أما المقر فكان في شارع التجار بالمنامة في ملك الشيراوي (حاليا فوق متجر وبرادة علي أمين)

ثانيا-مهام الاتحاد وأنشطته:

١- لا يذكر أنه كان للاتحاد نظام أساسي ، أو لائحة داخلية متكاملة (فيما عدى ما نصت عليه محاضر الجلسات والقرارات الادارية) وقد كان من المفروض أن يتحول أتحاد العمل تلقائيا الى اتحاد عام للنقابات الحرة في البحرين ، التي كان يتوقع بموجب القانون المزمع اقراره ، أن يتم انتخاب تلك النقابات في الشركات والمؤسسات العاملة في البحرين ..ويعاد تشكيل الاتحاد ليصبح اتحادا عاما لجميع تلك النقابات ، عن طريق التمثيل الديموقراطي ، بوجود ممثل أو أكثر لكل نقابة منها في الجمعية العامة للاتحاد ، التي يوكل اليها انتخاب مجلس أدارة للاتحاد.

وعلى الرغم من أن أتحاد العمل البحراني كان يشمل الموظفين واصحاب المهن الحرة ... فأن كل العمال أو جلهم ، من الذي انضموا اليه كانوا من عمال الشركات.

٢- كانت عضوية مجلس الادارة والهيئة التنفيذية شرفية تطوعية ، وكان حماس العمال في الانضمام الى الاتحاد كبيرا ..حيث انضم اليه مابين خمسة الاف الى عشرة الاف عامل ، وهو عدد كبير في ذلك الوقت.وكان العضو يدفع رسم دخول ثم رسم اشتراك قدره ثلاث روبيات كل شهر. ولم يطلب الاتحاد معونة مادية من أية جهة. وكان المبلغ المسلم الى البنك البريطاني عند حل الاتحاد حوالى ثلاثين ألف روبية ، والمبلغ المخصص لدفع المصاريف والديون المتخلفة حوالى ستة الاف روبية.

٣- أهتم الاتحاد منذ يوم تأسيسه بمباشرة حل قضايا العمال وبمناقشة مسودة قانون العمل والعمال مع ممثلي العمال في لجنة وضع القانون.

(أ) – فبالنسة لقضايا العمال فقد كانت متعددة مثل الفصل التعسفي – أصابات العمل والتعويض –الاجور –الخلافات بين العمال وأصحاب العمل – منح قروض للمحتاجين منهم لبناء منزل أو للعلاج .. الخ..

وكان الاتحاد ينصل بأصحاب العمل مباشرة (مثل بابكو) ويعرض الشكوى ويتم التفاهم في ممعظم الاحوال .وأذا تعذر أيجاد حل ، كان الاتحاد يقوم بتفريغ الشكوى وظروفها في لائحة يرفعها الى ألى رئيس دائرة العمل والعمال الشيخ علي الخليفة ، حيث يستدعي مسئول الشركة ويقوم بحلها وديا.

وعلى الرغم من أن الحكومة لم تعترف رسميا باتحاد العمل ، فأن الظاهرة المشجعة التي يجب تسجيلها بهذا الصدد هي أن التعاون بين أتحاد العمل وأصحاب العمل وفي مقدمتهم بابكو من جهة ، وبين الاتحاد ودائرة العمل والعمال من جهة اخرى – كان يتم بصورة سلسة. بل أنه على ما يبدو أن معظم الشركات و بابكو بالذات كانت ترتاح للتفاوض مع هيئة عمالية مسئولة تتفهم الالتزامات القانونية للجانبين ، كاتحاد العمل ، بدلا من المواجهة الفردية مع كل عامل على حدة .

ومن الجدير بالتسجيل أيضا ،أن الخبير العمالي المستر (مارشال) المكلف بأعداد مسودة قانون العمل والعمال كان متحمسا لانجاز المهمة ، وميالا بجانب حقوق العمال المشروعة.

كما أنه لم يجد حرجا في عقد اجتماعات منتظمة مع هيئة اتحاد العمل لحل المشكلات التي كان يستعصي على لجنة وضع القانون حلها.

(ب) – أما فيما يتعلق بمناقشة مسودة قانون العمل والعمال من قبل أتحاد العمل ، فقد كان بمثابة الشغل الشاغل للاتحاد منذ تأسيسه ، وحتى أنجاز القانون بالصورة التي اتفق عليها في لجنة وضع القانون الرسمية ، والتي تم تشكيلها على النحو التالي:

١- ثلاثة أعضاء ممثلين عن أصحاب العمل (الشركات والافراد) أحدهم من بابكو (السيد مكالوك) والثاني عن الشركات الاخرى – والثالث عن القطاع الخاص (رشحت الغرفة التجارية السيد محمد قاسم الشيراوي)

٢- ثلاثة أعضاء عن العمال تم انتخابهم من قبل عمال البحرين وتحت اشراف لجنة محايدة أذكر من أعضائها السيدين صادق البحارنة و قاسم بن أحمد فخرو. وكان ألفائز بأكثر أصوات العمال هو السيد علي ...

٣- ثلاثة أعضاء من طرف الحكومة (المستر سميث – السيد محمود العلوي ...)

وتولى رئيس دائرة العمل والعمال الشيخ علي الخليفة رئاسة اللجنة المكلفة بوضع القانون ، وذلك بمساعدة خبير عمالي (مستر مارشل) وخبير قانوني.

(ج) وبالنسبة لانشطة اتحاد العمل البحراني الخارجية ، فأنه لم يتبن أي نشاط مع المنظمات العمالية خارج البحرين . ولكن كانت تصله بالبريد دعوات من المؤتمرات العمالية ، والنشرات التي كانت تصدر في الاغلب من المعسكر الغربي (الاتحاد الحر لنقابات العمال) وكذلك من المعسكر الاشتراكي (أتحاد العمال الاشتراكي الديموقراطي ..)

٤- فيما يتعلق بمناقشة مسودة قانون العمل والعمال ، لا بد من الاشادة بالدور الذي قام به السيد محمد قاسم الشيراوي المشرف باعتباره حامل الراية في الدفاع عن حقوق العمال ،

وقد ابلى بلاء حسنا في التوقف عند كل كبيرة وصغيرة من النصوص والفقرات التي تنطوي على أدنى تحايل على حقوق العمال ، وكان يقترح بدلا منها مستعينا بما توفر له من القوانين العمالية في البلدان الراقية. بل تعدى ذلك في الاصرار على منح العمال حقوقا غير واردة اصلا في قانون العمل البريطاني ولا في قوانين أخرى من مثل "أن يحتسب للعامل الوقت الضائع خلال المواصلات من وألى مقر العمل ، ضمن ساعات العمل .. بالاضافة الى فقرات أخرى كان أصراره عليها يثير حفيظة ممثل شركة بابكو على الخصوص. مما دفعها للتهديد بنقل عملياتها من البحرين الى عدن ، على ما سيأتي ذكره.

ومن الجدير بالذكر أن الخبير العمالي (السيد مارشال) قد حمل معه الى البحرين نسخة من القانون البريطاني لشئون العمال والنقابات الحرة ، ليكون الاساس الذي يدور النقاش حوله من قبل أعضاء لجنة القانون. وقد شطب مندوبوا الشركات فقرات كثيرة من مسودة القانون وطالبوا بألغائها أو أستبدالها أو تعديلها. أما الجانب العمالي وبأصرار من محمد قاسم الشيراوي فكان يتمسك بما يراه متماشيا مع مصلحة العمال.

وكان الشيراوي يعرض نتائج المباحثات أولا بأول على هيئة اتحاد العمل ، حيث ندرس معه التعديلات المقترحة ونتوصل الى الصيغة المطلوبة ، والتحضير للأجتماع القادم وهكذا دواليك.

وقد وصلت الازمة في سن مواد القانون أوجها منذ اواخر عام ١٩٥٥ وتباطأت اللجنة في أعمالها حتى شبه عبد الرحمن الباكر مسيرتها ب "السلحفاة " وتعطل أنجاز القانون عن موعده ..وكتب الباكر مستنكرا عدم أنجاز القانون خلال العام ١٩٥٥ متهما الحكومة بانحيازها الى أصحاب العمل وخضوعها لضغوط شركة بابكو .. حسبما تم ايراده انفا من الفقرات التي كتبها بهذا الخصوص.

أما بالنسبة لنقاط الاختلاف فكانت كثيرة جدا تكاد لا تخلو فقرة منها ، ومن بين الأمثلة عليها : مفهوم الخدمة المتواصلة للعامل ، وأن تعتبر فوائدها للعامل سارية حتى مع انتقال العامل الى مستخدم جديد – ومنها عدم اشتثناء عمال الفلاحة – ومنها اعتبار حقوق العمال في شركات المقاولات التي تلجأ اليها الشركة الأصلية ، كخدمة مستمرة مع الشركة الاصلية اذا تبين أن اللجوء الى المقاولين يستهدف تضييع حقوق العمال بنقلهم الى مقاولات مؤقته – ومنها أنهاء خدمة العامل من جانب صاحب العمل ووضع شروط تحول دون استغلال صاحب العمل لهذا الشرط ، وتعطي العامل حق التظلم من الفصل .

- ومنها أن تتولى الشركات تحويل اشتراكات عمالها في النقابة ، الى النقابة مباشرة.-

- ومن أعسر تلك المفاوضات ماكان يتعلق بزيادة الاجور عن طريق التفاوض الجماعي مع النقابات وعقد اتفاق معها لسنتين أو أكثر ثم التفاوض من جديد على زيادة الاجور بما يتناسب مع التضخم وارتفاع مستوى المعيشة .. الخ.. الخ..

ألا أن الخلاف الاكبر الذي وصل الى حد التصادم بين ممثلي العمال و شركة بابكو هو المتعلق بالبند (١٣-ب) المادة ٣٧ – وفقراتها المتعلقة ب " حقوق ألادارة " فقد اصر محمد قاسم الشيراوي على أن يضاف الى هذه الفقرة ما يفيد بضرورة حصول الشركة على موافقة المستخدم

على ما تقرره الشركة بشأنه..

وللعلم فان المادة ٣٧ تنص على حق مجالس أدارة الشركات المطلق في تقرير ما تشاء بالنسبة للعاملين فيها ، في التوظيف والفصل والتأديب والترقية وتخفيض الرتبة ، وتعليق خدمات الموظف ، ووضع أو تغيير الجداول ، وأساليب العمل ، والاجراءات ، وأزالة أو أنشاء الاجهزة والمعدات بدون حصر لتلك الحقوق .. الخ..

فلما تأزم الوضع في المفاوضات على هذه المادة ، دعت " بابكو " اتحاد العمل البحراني الى اجتماع عاجل في منزل رئيسها (أو نائب الرئيس) المستر سكينر .. وهو منزل أنيق في المنامة يمتاز بحدائقه الغناء ، وكونه مكيف الهواء ..(ومكان المنزل اليوم هو المجلس الوطني) ..

فلما بدأ الاجتماع فاجأنا عن الشركة المستر (ماكالوك) بتلغراف ارسلته الى بابكو الشركة المالكة (كالتكس) حيث ذكرت فيه أنه اذا اصر ممثلوا العمال على اقتراح محمد قاسم الشيراوي بتقييد حق الادارة بأن يكون مشروطا بموافقة المستخدم عليه ، فأن الشركة سوف تنقل عملياتها من البحرين الى عدن !! ..

ولما رأينا مظاهر الاهتمام الجدي والحساسية الشديدة من جانب بابكو بخصوص هذه المادة ، قمنا بمناقشة الموضوع من جديد مع الخبير العمالي المستر مارشل ، ثم اجتمعنا في الاتحاد ، حيث اقتنع الشيراوى بأن هذا الطلب غير معقول ، و استبدلنا العبارة بأخرى تنص بأن يكون قرارات ادارات الشركات فيما يتعلق بالعمال

ذات أسباب و مبررات معقولة ولا تتعارض مع نصوص القانون . ألا أن الاتفاق جرى في لجنة وضع القانون بعد ذلك ، على حذف فقرة (المبررات) والاكتفاء بنص يفيد أن الشركات في مزاولتها للحقوق المنصوص عليها في هذه المادة (٣٧) يحب أن لا تخالف ما هو منصوص عليه في هذا القانون أو أي قانون اخر.

وفيما يتعلق بمسودة القانون المعروض للمناقشة فقد كان يضم حوالى ٤٠ صفحة تقريبا .وأكثر من ٩٢ مادة بفصولها وفروعها ، وذلك بالاضافة الى ثلاثة فصول ملحقة به (جداول) ..وتضمن الفصل الثالث منه أنشاء النقابات العمالية من المادة ٣٩ الى المادة٩٢.

تضمنت فقراتها عناوين فرعية تضمنت أحكاما مثل : العضوية – وعدم اعتبار نشاط النقابة غير قانوني- وأضفاء حصانة قانونية عليها – وحق انشاء اتحاد للنقابات ، واتحاد عام – وحق التفاوض الجماعي مع أصحاب الاعمال على الاجور وشروط وظروف الخدمة.-وأنشاء هيئة فض المنازعات ولجان التحقيق – ولجان التحكيم – وحق الاضراب عن العمل – وحماية النقابة من اتهامها في حالات الاضراب بتهمة التحريض –وحق المقاطعة السلمية – هذا بالطبع بالاضافة الى المواد المنظمة لمسئولية النقابات في مخالفة القانون ... الخ.كما نصت المادة الاخيرة على أن تكون الصيغة العربية للقانون ، هي الصيغة المعتمدة .

خاتمة المطاف :

في نهاية هذه الحلقات عن تاريخ وأحوال (أتحاد العمل البحراني) وبسبب غياب النسخة الاصلية لدى السيد محمد قاسم الشيراوي التي وقع عليها بالموافقة أعضاء لجنة وضع قانون العمل والعمال ، لا يمكننا الجزم بأن النسخة التي بين أيدينا هي النسخة الاصلية المعتمدة كما رفعت الى صاحب العظمة بعد شهر أوغسطس من عام ١٩٥٦ . والتي - كما قيل -أن صاحب العظمة وقع عليها بالموافقة خلال شهر سبتمبر ١٩٥٦ .. واستلمها مستشار الحكومة السيد بلكريف ، واحتفظ بها في درجه .. حتى أصدرت الحكومة قانون العمل والعمال لسنة ١٩٥٧ . بعد أجراء تغييرات عليه ربما وجدت أنها أكثر تناسبا مع زمن ما بعد (هيئة الاتحاد الوطني) ... والله أعلم .





نادي العروبة ..الوجه الاخر

حظي نادي العروبة منذ تأسيسه في عام ١٩٣٩ – بتشجيع وأسناد أمراء البحرين أبتداء من عهد المغفور له الشيخ حمد بن عيسى ال خليفة ثم سلمان بن حمد ال خليفة ، ثم على عهد المغفورله الشيخ عيسى بن سلمان ال خليفة ،وانتهاء بالعهد الميمون لجلالة الملك الشيخ حمد بن عيسى ال خليفة ، الذي أكّد للمسئولين في النادي في أكثر من مناسبة ، اهتمامه وتشجيعه لنادي العروبة ، وحرصه على أن يستمر النادي في تأدية رسالته في توجيه الشباب ، والمساهمة في المشروعات الثقافية والفكرية والأدبية لرفع اسم البحرين في مضمار الثقافة وخدمة المجتمع والحفاظ على انتمائها العربي الأصيل. وقد تتوج هذا الاهتمام بالنادي من قبل جلالته ، حين أبدى رغبته السامية للمسئولين في النادي لوضع جائزة بأسم الاستاذ المرحوم أبراهيم العرّيض ، تكون مخصصّة للأبداع الأدبي والثقافي ، يتولى أدارة شئونها نادي العروبة باعتبار علاقة الأستاذ العريض بهذا النادي منذ نشأته الاولى.

وقد أورد النادي في كتابه (نادي العروبة وخمسون عاما ..ثم .. نادي العروبة وستون عاما..) جوانب متعددة من المواقف المشرفه لحكام البحرين مع النادي ، أبتداء من الرسالة التي رفعها مؤسس النادي الاستاذ محمد دويغر ، الى صاحب العظمة الشيخ سلمان بن حمد ال خليفة بتارخ ٣١ ربيع الثاني سنة ١٣٥٨ هج.والتي جاء في مقدمتها مايلي:

(مولاي المعظم..يتشرف نادينا بأن يرفع الى سيادتكم العلية نسخة

من نظامه مشفوعة برجاء حار في أن يتفضل بقبولها ، وأن يتنازل

فيسبغ عليها ظل رعايته الكريمة ...)

و تقص علينا أوراق النادي القديمة حديثا ممتعا لتلك العلاقة المستمرة يعتد بها النادي ويحتفظ بها ضمن اغلا وثائقه وسجلاته. لقد كان للمغفور لهما الشيخ سلمان بن حمد ال خليفة ومن بعده الشيخ عيسى بن سلمان ال خليفة، حضور شبه دائم في حفلات النادي مع باقي الشيوخ و منهم أصحاب السمو الشيخ عبدالله بن عيسى الخليفة ، والشيخ محمد بن عيسى الخليفة، والشيخ مبارك بن حمد الخليفة، والشيخ علي بن خليفة بن دعيج الخليفة ، والشيخ عبدالله بن خالد الخليفة ، وغيرهم من أفراد الاسرة الكريمة..وحينما يحول مانع من حضور تلك الحفلات كان النادي يستلم رسائل اعتذار رقيقة فيها شرح لمسببات الغياب. و تتضمن صفحات كتاب النادي نماذج من تلك الرسائل المتبادلة وصورا لبعض الاحتفالات التي يتصدرها أصحاب السمو الامراء وأفراد

الحاشية الكريمة.ومن بين تلك المناسبات الحفلة التأبينية الأربعينية لوفاة المغفور له الشيخ حمد بن عيسى الكبير التي أقامها النادي في ٦ صفر عام ١٣٦١ هج.وكذلك الحفلة الشعبية العامة في قاعة نادي العروبة بمناسبة تولي صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان ال خليفة مقاليد الحكم في العام ١٩٦٢.وقد تضمنت كلمة الترحيب التي كان لي شرف ألقائها بين يدي سموه باسم النادي واتحاد الاندية الوطنية ، استشرافا للمستقبل المضيء الذي تحقق بوضع دستور للبلاد وانتخاب المجلس الوطني ، وذلك بعد عشر سنوات تقريبا.. ومما جاء فيها : ...(أن من توفيق الله عز وجل أنه لّما يبشر بالخير والأمل أن عاهلنا الكريم الذي نحتفل اليوم بعيد جلوسه هو زينة شباب هذا البلد. وهل أقدر على تفهم نفسية الشباب من الشباب أنفسهم لا سيما وقد تجمعت في شخصيته الفذة وشخصية أخويه الكريمين تجارب الاجداد وخبراتهم مقرونة بهمة الشباب وعزماته وهذه لعمري التربة الخصبة للتعاون المثمر والعمل البّناء. أذا تعهدت كل ذلك عيون ساهرة محنكة وقلوب محبة ناصحة. والنصح والمشورة هنا في حد ذات كل منهما عملية يمكن ان تتوفر على مراحل بين البساطة والتنظيم.

والمقصود بالنصح والمشورة محاولة الأستفادة من اراء المجربين وذوي الاختصاص لتفهم وجهات النظر العامة حول موضوع معين. وقد تأتي أيضا عن طريق عمل تنظيمي ثابت تبعا للظروف. وقد تكون عفوية تستجيب لكل مناسبة في وقتها.كما قد تكون مرسومة ذات منهج مخطط وأصول مدروسة . والمهم في كل ذلك أن تتمثل وجهة النظر العامة لكي يكون الرأي أصدق تعبيرا عن الواقع وأكثر تمثيلا للرغبة..)

ومن أواخر تلك المناسبات الحفل التأبيني الكبير الذي أقامه النادي بمناسبة الأربعينية على وفاة المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان ال خليفة ، وتخليدا لذكراه العطرة.

ذلك هو الجانب الأول من علاقات النادي نستعيدها اليوم للتاريخ والذكرى.

أما الجانب الاخر فهو ما أردت أن استعرضه في هذا المقال للكشف عن مواقف تدور حول علاقة المؤسسات والدوائر السياسية الاجنبية بالنادي ، والبريطانية على وجه الخصوص. لقد كانت في البحرين انذاك أربع شركات كبرى بريطانية الجنسية أو محسوبة عليها:

الأولى : شركة النفط (بابكو) — وهي شركة تكاد تخلو سجلات النادي في سنواته الاولى من مساهمات مادية أو أسناد معنوي حتى في حقل التعليم .وذلك فيما عدا عرض الأفلام الدعائية خلال سنوات الحرب العالمية الأخيرة ، بالتعاون مع دائرة العلاقات العامة البريطانية (التي انشئت زمن الحرب) ثم من خلال قسم المعهد البريطاني.. ولكن سياسة شركة بابكو تغيرت خلال الخمسينات . فبالرغم من حماس نادي العروبة في

تأييد القضايا العمالية ، ونشاط بعض المسئولين فيه لصالح مطالب العمال .. فأن شركة بابكو – في عهد رئيسها أي.أي. سكينر و المدير السيد " براون" استجابت بحماس لرسالة النادي وتبرعت بمبلغ خمسة عشر ألف روبية لمساعدة النادي لبناء دار جديدة في شارع الزبارة. وذلك بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩٥٢

وبتاريخ ٢٨ جون ١٩٥٣ قدمت شركة بابكو تبرعا اخر بمبلغ ثلاثة الاف روبية ، ثم استمرت هذه المنحة السنوية للنادي من قبل الشركة وزيدت في بعض السنين التالية الى ستة الاف روبية ، فيما عرف بعد ذلك بمنحة بابكو السنوية ، والتي تبرعت بها أيضا لأندية أخرى. واستمرت علاقة بابكو الجيدة مع النادي خلال الخمسينات والستينات ، وربما الى ما بعد ذلك.

وثاني الشركات الكبيرة كانت شركة (جريمكنزي) وثالثها شركة (البرق واللاسلكي- كيبل أند واير لس) ولا يوجد في سجل النادي ما يدل على أية علاقة خاصة أو أسناد مادي من قبل هاتين الشركتين ..

أما رابعة الشركات في البحرين فكانت (شركة أمتياز النفط القطرية – بي.س. أل.)

وأول رسالة في سجلات النادي كانت بتوقيع مديرها السيد (باكر) بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٩ .وقد أرسلها نيابة عن ضيفه المليونير (ونثروب روكفلر) الذي زار البحرين في نوفمبر ١٩٣٩، وذلك جوابا على دعوة النادي له لزيارة النادي .وقد تضمن الجواب أعتذارا غير رقيق فحواه أن السيد روكفلر ليس لديه وقت لزيارة النادي ، كما أنه لايحمل معه نقودا في السفر ليتبرع بها.. (يعني: مسكين !)

ألا أن السيد (باكر) نفسه سرعان ما أصبحت له علاقة طيبة ومميزة بالنادي عن طريق ممثل شركته المحلي السيد نعمة داغر – وهو من العراق . فكان ينوب عنه في حضور الدعوات ويقدم دعما ماليا محدودا على فترات.ولعل من أسباب تلك العلاقة الخاصة صلته برئيس النادي السيد محمد دويغر والاستاذين أبراهيم العريض و علي التاجر. وكانا يعملان في الجهاز الأداري للشركة.

أما أذا جئنا الى علاقة المعتمدين السياسيين لبريطانيا العظمى ، فنجد أن العلاقة مع النادي لم تتعد المجاملات ، وتلبية بعض الدعوات والأعتذار عن حضور معظمها، وذلك في عهد جي هوس (باليوز الدولة البريطانية في البحرين) و برتران توماس

(مدير العلاقات العامة) ورئيس الخليج في بوشهر. ومعظم تلك الرسائل أعتذارات عن حضور الحفلات ، أو أهداء صورة جلالة ملك بريطانيا ،جورج السادس في ملابس تتويجه ، أو بعض الكتب والمجلات ومواد الدعاية الحربية وذلك فيما بين الأعوام ١٩٤٠ – ١٩٤٣ .ولا تشير مستندات النادي الى موقف غير ودي. ولكن الأفراج عن الوثائق التاريخية من قبل وزارة الخارجية البريطانية ، قد أتاح لنا الأطلاع على مستندات تقول شيئا اخر كان غائبا عن الأذهان ، من مثل التقريرين المترجم فحواهما أدناه :

الأول : وهو تعريف بنادي العروبة ضمن تقرير حول " الأندية والمؤسسات "

مؤرخ في ٧ أوغسطس عام ١٩٤٤ – حيث يقول:

(تقرير عن نادي العروبة في المنامة - تأسس هذا النادي في سنة ١٣٥٧ (١٩٣٨)

من قبل الشباب البحارنة . ورئيسهم السابق والحالي هو محمد دويغر- مدير دائرة أموال القاصرين – وقد كان رئيس الدائرة الفخري هو صاحب العظمة الشيخ السير سلمان الذي كان مديرها سابقا ، وكان محمد دويغر انذاك رئيس الكتاب في تلك الدائرة ويعمل تحت أشراف صاحب العظمة. وقد كان صاحب العظمة يدفع (للنادي) مساهمة سنوية بمبلغ ١٥٠ روبية ، والان فأن صاحب العظمة هو الرئيس الفخري للنادي. أن أعضاء هذا النادي هم ١٠٣ و بينهم ١١ سنيا والباقي من الشيعة. وموازنته الحالية تقل عن الفين روبية. والأشتراك الشهري للأعضاء هو روبية واحدة لكل منهم. أن قسما من النادي تم تحويله الى مدرسة ذات مدرسين فخريين من قبل الأعضاء. هذه المدرسة قصد بها تعليم الأبناء وبعض الأعضاء والأبناء عليهم أن يدفعوا أيضا روبية واحدة في كل شهر. ومنذ ثلاث سنوات مضت ، ذهب محمد دويغر للعراق وسوريا واتصل برجال النشر لتجهيزه بمطبوعات مجانية. وقد أثمرت دعايته عندهم وبعضهم واصل ارسال المطبوعات مجانا ...)

أما التقرير الثاني فهو في صورة رسالة من الوكيل السياسي في البحرين الميجر تي. هيكونبوتام – بعث بها للمقيم السياسي في شيراز تحت رقم جيم/١٢٥٩ بتاريخ ٣١ أوغسطس ١٩٤٤ يقول فيها:

(.. يشرفني أن أعود لظهيركم رقم ج/٤٨ بتاريخ ١٥ جولاي ١٩٤٤ :

٢- أن نادي العروبة ليست له أهمية تذكر ، وعدد أعضائه كما هم الان ١٠٣ عضوا . أن صاحب العظمة الشيخ كان في وقت من الاوقات مهتما شخصيا بالهيئة الادارية للنادي ويواصل دفع الاشتراك سنويا لهذه المؤسسة .

٣- أنا أفهم أن صاحب العظمة لا يؤيد أن تطلب الأندية المحلية مساعدات مالية من مصادرخارجية ، وأجد نفسي في اتفاق تام مع وجهة نظر عظمته . أن خدمات التعليم التي تقدمها حكومة البحرين تعتبر كافية ولاتوجد حاجة لمدارس تعتمد على التبرعات لكي يتم تمويلها من الخارج لأندية من مثل (نادي العروبة) . لهذا أقترح أن يتم الطلب من سفير صاحب الجلالة (البريطانية) في القاهرة بالأيعاز الى وزير الخارجية (المصرية !) بعدم الاستجابة للمساهمة في هذه المؤسسة ..) انتهى.

على ضوء ما ورد في التقريرين يمكن أستنتاج ما يلي:

١- أن عظمة حاكم البحرين الشيخ سلمان كان رئيسا فخريا لنادي العروبة ويواصل التبرع للنادي في كل سنة. ولعل ذلك كان مصدر عدم ارتياح للممعتمدين فيما يستنتج مما بين السطور .

٢- أن استجابة بعض دور النشر في العراق وسوريا لارسال مطبوعات مجانية للنادي كان بسبب (دعاية) قام بها رئيسه محمد دويغر.

٣- أن نادي العروبة ليست له أهمية تذكر.

٤- أن خدمات التعليم في البحرين كانت كافية ، وأن البحرين ما كانت بحاجة الى مجهود أندية في مضمار نشر التعليم مثل (نادي العروبة)

(وهنا يتجاهل التقرير أن نادي العروبة لم تصله مساعدات مادية من خارج البلاد ، وأنه لم يتصل بوزارة الخارجية المصرية لأن رسائل النادي كانت موجهة لدور النشر المصرية للحصول على المطبوعات فقط .وأن النادي كان يعتمد على ماليته واشتراكات الاعضاء. كما أن طبيعة مشروع التعليم في النادي كانت لمحو الأمية وهو مشروع مكمل للتعليم النظامي ، وليس بديلا عنه. ..أما المشروع الاخر فكان لرفع مستوى الاعضاء الثقافي عن طريق محاضرات وندوات ذات مستوى ثقافي أوسع.على يد الاستاذ العريض وعدد من المثقفين والمربين)

٥- أن النادي – على ضالة شأنه كما تصفه الرسالة ، قد استدعى من بريطانيا العظمى أن تقوم باتصالات دبلوماسية مع الخارجية المصرية لمنع مد يد العون لمشروع التعليم في النادي.

فأذا أضفنا الى موقف المعتمدين السياسيين ما عرف عن موقف المستشار البريطاني لحكومة البحرين السيد بلكريف – الذي أبدى أسفه في مذكراته على تشجيع التعليم في البحرين ، والذي أوقف عددا من البعثات الطلابية بعد سنتها الاولى وأعادها الى البحرين ...وأذا أضفنا الى كل ذلك ما نسب للمستشار حين قال عن طالب يتعلم الحقوق في بريطانيا في الخمسينات " أن البحرين لن تحتاج الى خريج في القانون أو حامل درجة دكتوراه لمدة مائة سنة قادمة "..

عندئذ يمكننا أن نستنتج الكثير الكثير عن موقف بريطانيا العظمى في ذلك الوقت تجاه نشر الثقافة والتعليم بشكل عام ، واللذي انعكس بشكل خاص على أنشطة أندية البحرين ، و نادي العروبة بالذات ...

أمثال الشريف الرضي

أمثال الشريف الرضي ، هو المخطوط المنسوب الى أبن الظهير الاربلي المتوفى سنة ٦٧٧ هـج. والذي قال عنه المحققان: د.نوري القيسي و هلال ناجي من ضمن ما ورد في المقدمة ما يلي: " لقد حاول الرضي – رحمه الله – فيما انتقاه من أشعار العرب ، أن يرسم صورة مثلى للقيم العربية الخالدة عبر مختاراته.. ولعله قصد أو تخيل جيلا عربيا يتخلق بهذه الخلائق الرفيعة فيعيد لبغداد العربية المسلمة صبوتها وبهجتها و عزها ، بعد أن أذلها علوج الاحتلال البويهي." هذا وقد اخترنا ما يلي:

- لا تنه عن خلق و تأتي مثله — عار عليك اذا فعلت عظيم
  وابدأ بنفسك فانهها عن غيّها — فاذا انتهت عنه فانت حكيم
  هناك يسمع أن وعظت ويقتدى — بالقول منك ويقبل التعليم.

- ولاتجزعن من سنة أنت سرتها — فأول راض سُنة من يسيرها

- ليس الغبيّ بسيّد في قومه — لكنّ سيد قومه ..المتغابي.

- والمرء تلقاه مضياعا لفرصته — حتّى أذا هي فاتت عاتب القدرا.

- إذا تولّى سراة القوم أمرهم — نما على ذاك أمر القوم وازدادو
  تهدى الامور بأهل الرأي ما صلحت — فان تولّت.. فبالاشرار تنقاد
  لايصلح الناس فوضى لا سراة لهم — ولا سراة ..اذا جهّالهم سادوا

- إذا كنت تبغي شيمة غير شيمة — طبعت عليها ، لم تطعك الطبائع

- تأديبك الكهل يكفي الطفل أيسره — وما العناء سوى تأديب مكتهل

- من أطاق التماس شيء غلابا — واغتصابا.. لم يلتمسه سؤالا.

- أخفض الصوت أن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل الكلام
  ما تبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه.

- وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

- ناري ونار الجار واحدة واليه قبلي تنزل القدر
  ما ضرا جارا لي أجاوره أن لا يكون لبابه ستر

- ولاتك في حب الاخاء مفرّطا وأن أنت ابغضت الصديق فأجمل
  فأنك لا تدري متى أنت مبغض حبيبك ، أو تهوى بغيضك .. فاعقل

- وأنت امرؤ منا ، خلقت لغيرنا حياتك لانفع ، وموتك فاجع

- بلاد بها نيطت عليّ تمائمي وأول أرض مسّ جلدي
  وكنت أليك أذمّ الزمان فأصبحت فيك أذمّ الزمانا
  وكنت أعّدك للنائبات فها أنا أطلب منك الامانا !

- ولم أر نفعا عند من ليس ضائرا ولم أر ضرًا عند من ليس ينفع.

- من لم يتؤدّبه والداه أدّبه الليل والنهار.

- إذا ذهب العتاب فليس ودّ ويبقى الود ما بقي العتاب .

- متى ما أتيت الامر من غير بابه ضللت..وأن تقصد من الباب تهتدي.

- إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له في ودّ هن نصيب.

○ وأنّي لألقى المرء أعلم انّه عدوّ وفي أحشائه الغلّ كامن
فأوسعه عذرا ليرجع قلبه سليما..وقد ماتت لديه الضغائن.

○ يا عثرة ما وقيتم شرّ مصرعها وعثرة الرأس تنسي عثرة القدم.
نار الروّية نار جدّ محرقة وللبديهة نار ذات تلويح
وقد يفضلها قوم لسرعتها لكنها سرعة تمضي مع الريح!

○ وبقيت في خلف يزيّن بعضهم بعضا ، فيستر معور عن معور .

○ وما كلّ ما أمّلته أنت مدرك ولا كل ما حاذرته عنك يدفع

○ إذا الأمر أعيا اليوم فانظر به غدا لعلّ عسيرا ، في غد يتيسّر

○ أن حلتمي اذا تغيّب عني فاعلمي أنني جليلا رزيت
ربّ جهل سمعته فتعلّمت وعيّ تركته فكفيت
ضيق الصدّر بالخيانة لا يذهب فقري أمانتي ما حييت .

○ إذا الرأي لم يحضرك والأمر مقبل فليس بمغن عنك ... والأمر ذاهب.

○ ولو كان يبدو مقبل الأمر للفتى كمدبره..ألفيته لا يشاور.

○ إذا كنت في أبناء قومك زاهدا فقومك فيما يرتجى منك ، أزهد
وليس حليم بالّذي كل ساعة به غضب في أنفه يتوعّد
ترى القوم اشباهاعقولا وحرفة فيشقى امرؤ منهم ، واخر يسعد

○ هوى ناقتي خلفي، وقدّامي الهوى وأنّي وأيّاها لمختلفان

كلمة تقي محمد البحارنة

في حفل تكريم السيد عدنان العوامي بتاريخ ٣٠ إبريل ٢٠٠٦

بمناسبة تحقيقه ديوان أبي البحر الخطي المتوفى سنة ١٠٢٨ هجرية

وذلك في صالة الملك عبد الله بن عبد العزيز في القديح – القطيف

أيهـا الحفـل الكـريم :

لـي مع الشاعر جعفر بن محمد الخطي ، شأن في هذا المقام ولي شأن آخر مع محقق ديوانه الأخ الأديب الأستاذ عدنان العوامي الذي نحتفي به جميعاً في مقام التكريم في هذا الحفل البهيج .

أول ذكـرياتي مع شاعر القطيف والبحرين الشيخ أبو البحر جعفر بن محمد الخطي بدأت وأنا ما زلت صبيا ، حينما أصدر أستاذنا إبراهيم العريض أول دواوين شعـره الحـديث (العرائس) في عام ١٩٤٦ ... فقد صدر الأديب والشاعر اللبناني المعروف محمد علي الحوماني صاحب مجـلة العروبـة لهذا الديوان بمقدمة عن الشـاعر البحـراني، ورد فـيها ما يلي :

((... علـى أنـي وقد رجعت بالذاكرة إلى عشرة أعوام أو تزيد، فاسترجعت ذكرى الشاعر الخطي البحراني قبل مائتي عام أو تزيد إذا أقرؤه في (سلافة العصر) فيملأ نفسي إعجاباً بقريضه الفحل وهو يصف سبيطية البحر التي شجت رأسه على ساحل البحرين . وعـدت بعد هذا غير منكر على شاعر البحرين السيد إبراهيـم العريـض أن يكون خليفـة الخطـي وغير منكر على تلك البقعة إن تكون مصـدر اللؤلؤ بكلا معنييه)) .

تـلك هي الفقرة من مقدمة الحوماني التي أثارت في نفسي الفضول وحب الاستطلاع وقد ظل هذا السؤال قائماً لديّ إلى أن وقعت بيدي نسخة من ديوان الخطي في أواخر الخمسينات فقرأت منها أول ما قرأت قصيدة الشاعر في السبيطية وعرفت منها قدرة الشاعر الخطي على توليد المعاني والأفكار من حادثة بسيطة لو حدثت لغيره لكان أولى بإخفائها أو تجاهلها لولا أن ملكة الشاعر في نفس الخطي أبت إلا أن تجعل تلك الحادثة ميدانا يصول فيه ويجول وكأنها تحولت على لسانه إلى ملحمة شخصية للبطولة.

وقد ألقيت عن هذا الشاعر محاضرة عن شعره وعصره في جمعية التاريخ والآثار في البحرين عام ١٩٩٩ و ما ذكرته آنفاً كان مقدمة لتلك الكلمة التي نشرت في مجلة الواحة العدد السابع عشر سنة ٢٠٠٠ تناولت فيها شهرته ومكانته لدى معاصريه، ومن كتبوا عنه بعد ذلك وتاريخ حياته وتنقلاته وتحليل عـدد من أشعـاره في مختـلف

الأغراض لاسيما قصيدته المشهورة في (السبيطية) وعلاقاته مع علماء عصره وأدبائه وسفره إلى إيران وتشوقه إلى البحرين و القطيف، وختمتها بنبذة عن القيمة التاريخية لشعره في تسجيل الأحداث وذكر أسماء القرى والمنازل في البحرين والقطيف، وأنواع المأكل والمشارب، وأنواع الحرف والأعمال الموجودة وأسماء أصحابها وأحوال المجتمع في البحرين و القطيف وإيران من خلال شعره ورسائله إلى غير ذلك .

وأضيف هنا في مقام الخطي وشعره ظاهرة تمسّكه بانتمائه العربي لبني عبد القيس وحبه لوطنه حيثما سار كما جاء في أشعاره ومنها على سبيل المثال :

" ألا أبلـغ الحيين بكـرا وتغـلبـاً فمـا الغـوث إلا عنـد تغلب أو بكـر

أيـرضيكمــا أن امـرأ مـن بنيكمـــا وأي امرئ للخير يدعي وللشر " ...الخ

الأغراض لاسيما قصيدته المشهورة في (السبيطية) وعلاقاته مع علماء عصره وأدبائه وسفره إلى إيران وتشوقه إلى البحرين و القطيف، وختمتها بنبذة عن القيمة التاريخية لشعره في تسجيل الأحداث وذكر أسماء القرى والمنازل في البحرين والقطيف، وأنواع المأكل والمشارب، وأنواع الحرف والأعمال الموجودة وأسماء أصحابها وأحوال المجتمع في البحرين و القطيف وإيران من خلال شعره ورسائله إلى غير ذلك .

وأضيف هنا في مقام الخطي وشعره ظاهرة تمسّكه بانتمائه العربي لبني عبد القيس وحبه لوطنه حيثما سار كما جاء في أشعاره ومنها على سبيل المثال :

وكذلك أشعاره في الحنين إلى الوطن كلما هاجه الشوق وهو في إيران ...

على أن تلك الظاهرة لم تقتصر على الخطي وحده فقد كان علماء البحرين وأدباؤهم وشعراؤهم من قبل ومن بعد... في الإحساء والقطيف والبحرين على نفس هذا المنوال من التفاخر بعروبتهم وولائهم لأوطانهم حيثما ذهبوا، ومعارضتهم للاحتلال الأجنبي بكل الوسائل وادخارهم لثرواتهم الفكرية والثقافية في سبيل حفظ لغة الضاد وسبر أغوارها و التضلع فيها خدمة للعروبة والإسلام

وما كان لنا ولغيرنا أن نشيد بهذه الظاهرة لكونها أمرا طبيعياً مفروغاً منه لولا ما نسمعه اليوم بين الحين والآخر من ضجيج مغرض يتقصد عرب هذه المنطقة البحرانيين للتشكيك في انتمائهم لأوطانهم العربية وحبهم لها وتفانيهم في خدمتها وهو أمر مؤسف يدل على الجهل ونقص المعرفة ويؤدي إلى التفريق بين أبناء الوطن الواحد.

ثم أعود إلى مقالي عن الخطي فأقول أنه قد بدت لي خلال البحث في شعر الخطي أسئلة وملاحظات تحتاج إلى المزيد من البحث من قبل الدارسين من مثل: محل و تاريخ مولد الخطي، ومدة إقامته في القطيف والبحرين، وأين وكيف تلقى علومه ومعارفه ومن هم أساتذته وأسباب نزوحه عن القطيف ولماذا كان يشكو دائماً من العسر وضيق ذات اليد، وهل كانت لديه عقارات أو بساتين مثل سائر أهل عصره، وأسباب هجرته من القطيف وملابساتها وما هي أثار تواجده في البحرين في ظل الحكم البرتغالي، وأسباب ذهابه إلى إيران، وتحليل مشاعره من أشعاره تجاه مواطنه في القطيف والبحرين وشيراز ودلالاتها النفسية والاجتماعية إلى عدد من الأسئلة الأخرى الحائرة. كما أخذني الاستطراد خلال إعداد ذلك البحث أو المقال إلى تقصي مصادر المعلومات عن هذا الشاعر والكتب التي تناولت سيرته وكذلك أسماء العلماء والأدباء المعاصرين للخطي في البحرين خاصة، وممن أنس بصحبتهم وتبادل معهم الأفكار والأشعار... إلى غير ذلك مما لم أقم بنشره على أمل أن تسنح الفرصة لتحقيق الديوان وإعادة طبعه من جديد.

لقد كان المتداول بين الناس من ديوان الخطي عبارة عن ديوان شعر هزيل لا يملأ كف القارئ مطبوع في إيران سنة ١٩٥٣ ومجموع قصائده حوالي ١٣٣ قطعة شعرية بما فيها القصيرة جداً قام بإخراجه والتعليق عليه الخطيب علي بن الحسين الهاشمي ، وطبعة على نفقته الوجيه زيد الكاظمي.

ثم تأتي المفاجأة السارة .. حين تصدى الأستاذ عدنان العوامي لهذا الأمر فأراحني وأتحف البحث العلمي الجاد بمجلدين كبيرين أعاد فيهما طبع ديوان الخطي وشرحه والتعليق عليه ، والإجابة عن كثير من الأسئلة الغامضة في حياة الشاعر وعصره . بل إن المحقق أضاف أبعادا جديدة للاستفادة من هذا الديوان حينما أستطرد في ربط معاني الخطي وألفاظه بمن تقدم عليه ومن تأخر من الشعراء... وهو جهد يتطلب أفقاً واسعاً من الدراية بالشعر العربي وهو ما أسماه الأستاذ محمد رضى الشماسي ((بالتداعي المعرفي)) كما إن المحقق المتميز أضاف إلى ديوان الخطي بعض القصائد التي لم تكن موجودة في النسخة السابقة استناداً إلى مصادر جديدة وأضاف إلى كل ذلك فصلاً يلقي الضوء على الحركة الأدبية في وطن الشاعر منذ عصر علي بن المقرب العيوني حتى عصر الخطي وعلى مجرى التاريخ والسياسة، وذلك استطراد في رأيي محمود ومفيد وفرّ الجهد على القارئ والباحث معاً .

ولا أراني مبالغاً إذا قلت أنني أكاد أعتبر أن ما قدمه لنا الأستاذ عدنان العوامي هو بمثابة (موسوعة ديوان الخطي المعرفية) ... وبهذا فإن أبا البحر الخطي نال بعد وفاته حظوتين :

الأولي : على يد جامع ديوانه في حياته الحسين بن محمد الغنوي ، والأخرى على يد محقق ديوانه الذي نحتفي به وبإنجازه في هذا الحفل البهيج .

والآن أيها السادة الكرام ...

أسمحوا لي أن أنصرف إلى فصل خاص بيني وبين الأخ المحقق. فقد كتب الأخ العزيز ملاحق للديوان وأولها بعنوان (دفاع عن أبي البحر) للرد على من تحامل على الخطي و على شعره من غير حق، حيث إبلى المحقق في ذلك بلاء حسناً ،

وثانيهما الملحق الثاني عن الحياة الثقافية في البحرين وعلى الصفحة ٢٠٧ من الجزء الثاني كتب المحقق عني ما يلي :

١ (... حتى آل الحال إن كتب صديقنا الحبيب الأستاذ الشاعر تقي محمد البحارنة متظلماً ومستنكراً نسبة الشيخ جعفر الخطي إلى القطيف متذرعاً بأن الخطي أقام في البحرين ثلاثين سنة وأنه كتب قصائد يتشوق فيها إلى البحرين))

وأنا أجيب على ذلك بإيراد النص الذي أستند عليه الزميل الفاضل والمنشور في مجلة الواحة العدد ١٧ وهو كالآتي حيث قلت: ((ولا نطيل الوقوف عند ذكر أسباب هجرة الخطي من القطيف في مقابل أسباب تعلقه بالبحرين ، لولا أنني لاحظت بعضاً ممن يؤرخون للأدب والشعر حديثاً ... قد استبعدوا أبا البحر الخطي من قائمة شعراء البحرين وألحقوه بالقطيف على أساس أنّه ولد فيها .. ولم تشفع لديهم في ذلك حقيقة كونه عاش في البحرين طيلة حياته، ونظم في حبها قلائد الشعر وخالط مجتمعها حتى أصبح واحداً منهم فبخلوا عليه بالانتساب إلى جزيرة البحرين .. حباً وانتماء رغم ولادته في القطيف))

هذا الكلام الذي تلوته ليس فيه تظلم ولا استنكار في نسبة الخطي للقطيف فهو مجرد ملاحظه تخص بعض المؤرخين للشعر حديثاً الذين استبعدوا الخطي من قائمة شعراء البحرين، أما المؤرخون القدامى فجلّهم أن لم يكن كلهم قد وصفوا الخطي بالشاعر جعفر الخطي البحراني فجمعوا بين الخط (القطيف) والبحرين أو كما

ضبطه البهائي (جعفر بن محمد بن علي بن ناصر بن عبدالأمام الشهير بالخطي البحراني العبدي من بني عبد القيس)، ورغم أن الخط تعني القطيف عموماً إلا إن العنوان على غلاف النسخة الأصلية من ديوان الخطي طبع سنة ١٩٥٣ لم يرد فيها لفظ القطيفي، ولكن الأخ عدنان أضاف كلمة القطيفي من عنده فخالف بذلك سنة المؤرخين قبله حيث كان أسم الخطي المتداول هو((أبو البحر جعفر بن محمد الخطي البحراني)) وبهذا الصدد فإن انتمائي وحبي للقطيف شيء والأمانة التاريخية شيء آخر. أترى أن المحقق وقع في نفس المزلق الذي عابه على الآخرين حين أضاف القطيفي وأستبعد كلمة البحراني.

أما جوابي على ما نسبه إلى من استنكار نسبة الخطي إلى القطيف فقد تولت الإجابة عليه أول فقرة من المقال الذي قرأته حيث قلت (أول ذكرياتي مع شاعر القطيف والبحرين أبو البحر جعفر بن محمد الخطي بدأت وأنا مازلت صبياً.. إلخ) فقد نسبته صراحة إلى القطيف والبحرين كما فعل المؤرخون السابقون غيري ممن لم يستكثروا على الشاعر نسبته إلى وطنه الثاني البحرين.

و من هذا القبيل ما أقدم عليه الأخ المحقق فيما يتعلق بالقصيدة المنشورة في الديوان الأصلي ومطلعها:

سلام يغادي جوّكم ويراوحه ونشر ثناء تنتحيكم روائحه

فقد كان عنوان القصيدة في الديوان الأصلي هكذا (وقال: يتشوق إلى وطنه البحرين) والمفروض أن الغنوي جامع ديوان الخطي وضع العنوان بمعرفة الخطي نفسه على الأرجح حيث أكد الهاشمي انه لم يتصرف بشيء من الديوان قط فإذا راجعنا الصفحة ٣٩٩ من الجزء الأول نلاحظ أن الأخ المحقق أستبدل عنوان القصيدة (التشوق إلى وطنه البحرين) بعنوان (كفى حزناً) والسؤال : لماذا؟

وخلاصة القول فيما نسبه إلّي الصديق الحبيب أن تلك النسبة لا تنطبق على ما كتبته حيث قلت أن الخطي هو شاعر القطيف والبحرين وهو كذلك بالفعل. وحيث أبديت ملاحظتي على الصفحة ٨٣ من الواحة بصدد من ينكر على الخطي انتسابه للبحرين فيستبعده من قائمة شعراء البحرين ويقتصره حصراً على القطيف وحدها (وهو ما أقدم على مثله الأخ المحقق)

فليس لدى أذن استنكار على نسبة الخطي للقطيف عند من يؤرخون لشعراء القطيف وحده وإنما ملاحظتي كانت لمن يؤرخون لشعراء البحرين في عصر الخطي ثم يهملون ذكره.

أحباءنا الكرام ...

لو كان المرحوم الخطي موجودا في البحرين اليوم لأستحق أن يصبح مواطناً ممتازاً فيها تقديراً لحبه للبحرين وانتمائه لها وأن يصدر له جواز سفر دبلوماسي بجانب جوازه الأصلي،

أليس هو القائل : وهو متوجه إلى خراسان:

((يا هل ترون لنازح قذفت به أيدي البعاد لجدحفص إيابا))

وهو القائل: ((لا تحسب البحرين أني بعدها مستوطن دارا ولا أحبابا
ما أصبحت شيراز وهي حبيبة عندي بأبهج من أوال جنابا
ما كنت بالمبتاع دارة سروها يوما بفارانٍ ولا بمقابا))

وهو القائل: ((لسكان ظهر مني من أوال أول مطلبنا والمنى
فأن ترني مشئماً تارة وأونة ترني معمنا
فماذاك إلا لأن أستقرّ عندكم ولأن أسكنا))

وهو القائل: ((عج بالمطي على مرابع بوري بمحل لذاتي وربع سروري
آه وقل على أوال تلهفي فإذا جننت بها فغير كثير
هذى مزاياها وكم علقت يدي فيها بذمة صاحب وعشير

والشواهد كثيرة لا مجال للاسترسال في ذكرها ...

... فما هو المنكر في ذلك ولماذا لا يكون الخطي هو شاعر القطيف والبحرين؟ فنسميه (بالشاعر أبو البحر جعفر بن محمد الخطي القطيفي البحراني) كما سماه الأقدمون ثم نغرف جميعاً من نفس البئر الثرثار ماؤها بدلا من اقتسامها نصفين.*

---

* درج المؤرخون القدامي في البحرين خاصة بمعناها التاريخي ممن كانوا في عصر الخطي أو قبله أوبعده أن ينسبوا العلماء والأدباء والشعراء إلى مواطن سكناهم بالإضافة إلى مواطنهم الأصلية. وهذا العرف لا يخلو من فائدة وفيما يلي نماذج من ذلك مأخوذة من الجزء الثاني مما أورده الأخ المحقق في ترجمة سير الأشخاص ابتداء من صفحة ٢٠٧ وما تلاها :

١- سيرة (زاكي بن كامل القطيفي الهيتي) قطيفي نسب إلى هيت بالعراق حيث سكن

٢- سيرة (أبوالحسن العبيدي البصري) قطيفي نسب إلى البصرة

٣- سيرة (موفق الدين الأربيلي البحريني) أربيلي منسوب للبحرين .

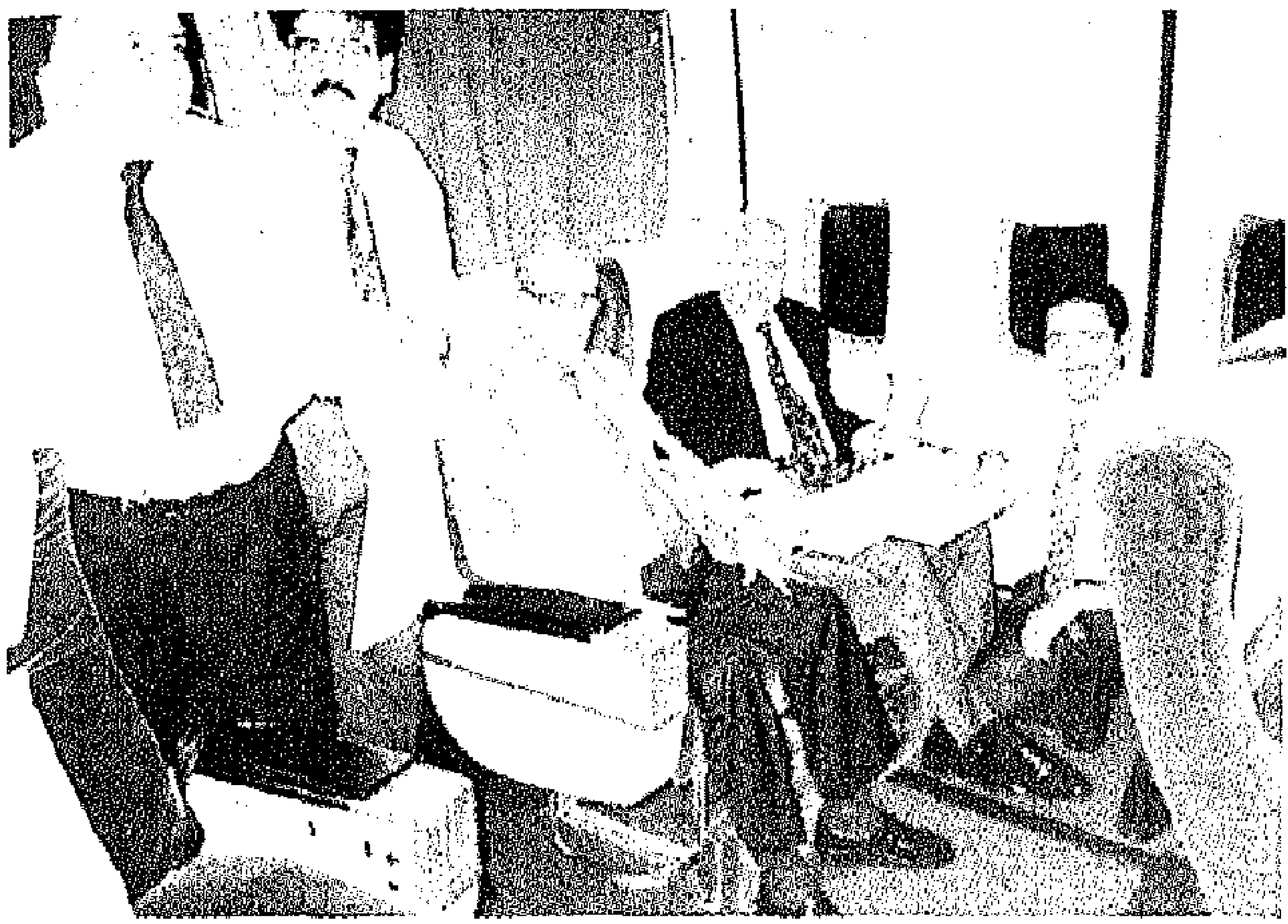
٤- سيرة (ناصر بن إبراهيم البويهي الأحسائي العاملي) أحسائي نسب إلى عامل

٥- سيرة (علي بن حماد البحراني البصري) وهو قطيفي أو بحراني نسب إلى البصرة .

على كل حال أيها الأخ العزيز عدنان ... فلتعتبر أن سمحت أن ما ذكرته فيما بيني وبينك شقشقة بشقشقة . ونحن في هذه الأمسية أملنا أن نكسب رضاك ونهنئك على هذا الإنجاز الكبير ونحتفل بك شاعرا وأديبا وباحثاً ومحققاً نفتخر به جميعاً. أنت الحصان الأصيل الذي يصول بلا صهيل، الشاعر الفنان والكاتب المقدام معجزة الحروف تزفه جيلا لجيل .. أهديك شعري والهوى نجوى الخليل إلى الخليل ...

ثم أني أقول في الختام :

يا أبا البحر نلت خير المرام — مذ تصدّى لشعرك العوّامي
ذاك عدنان ينتضي القلم المرهف — يجلوك شامخاً للأنام
مذ زواك التاريخ عنا فأضحى — شعرك الغض .. قابعاً في الظلام
نسى الجيل أن جيلك يوماً — كأن مأوى النهى وربّ الكلام
كنت في عصرك المبرّز في الشعر — مقاماً .. بين الفحول الكرام
وتساوى فيك المحب منامي — هواه تراه أم عوامي
شاعر زاحم الفحول وكم من — شاعر تاه ضائعاً في الزحام
جهلوا شعره وسر معانيه — وأطراف بحره المترامي
فسبرت الأعماق تجلو الدراري — مستشفا ما دق في الأفهام
فلك الله من دؤوب صبور — غير مستسلم ولا محجام
فارس أنت كم له وثباتٌ — وثباتٌ في موضع الأقدام
ملهمٌ أن أتاه وحي من الشعر — أتاه من مصدر الإلهام
مستلذا عذابه في القوافي — وكان العذاب كأس مدام
وإذا سال في الخطاب يراعاً — أترع الكأس للنفوس الظوامي
إن خير التكريم ما كرم الفكر — مشيدا بالمنجزات العظام
و لعدنان في الريادة (سبقٌ) — هو فخر لنا وللأقوام
بك تستنطق الحروف ويجري — دمها في المداد والأقلام
منحتك القلوب حبّا وتقديراً — وحبّ القلوب خير وسام

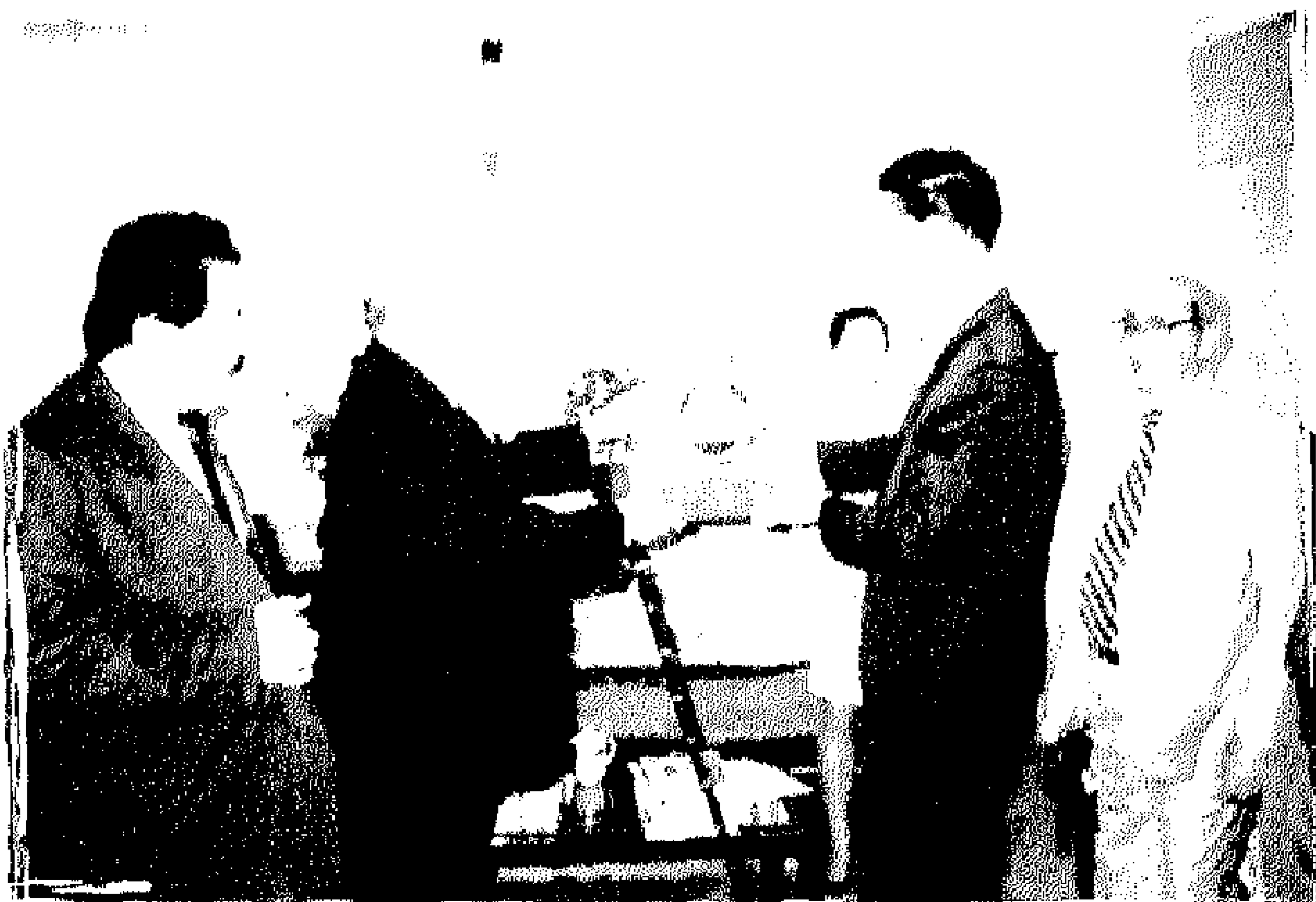


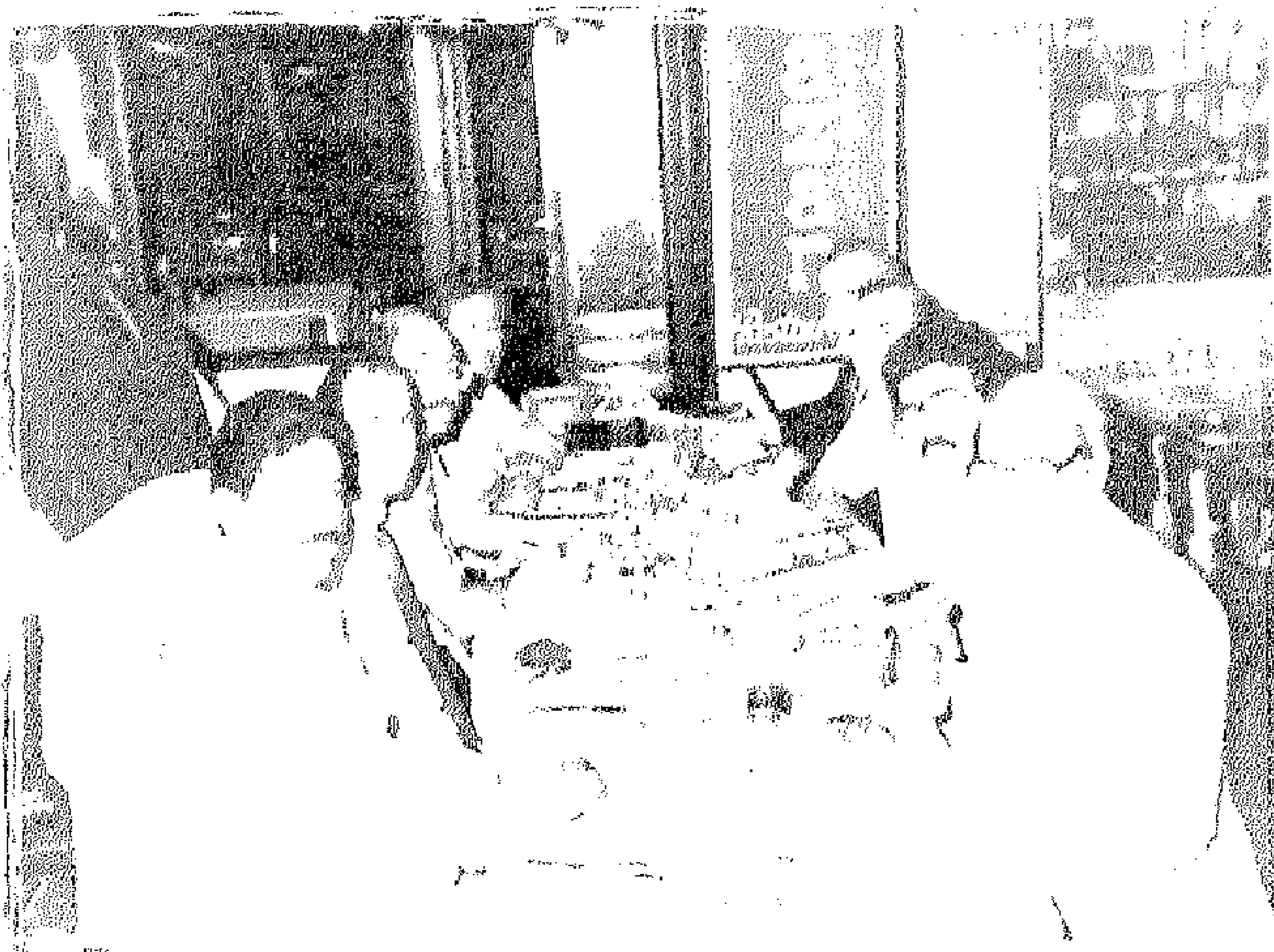

Daler
Daler

الفصل السادس

* تقي محمد البحارنة في سطور

* صــــور (محطات من حياته)





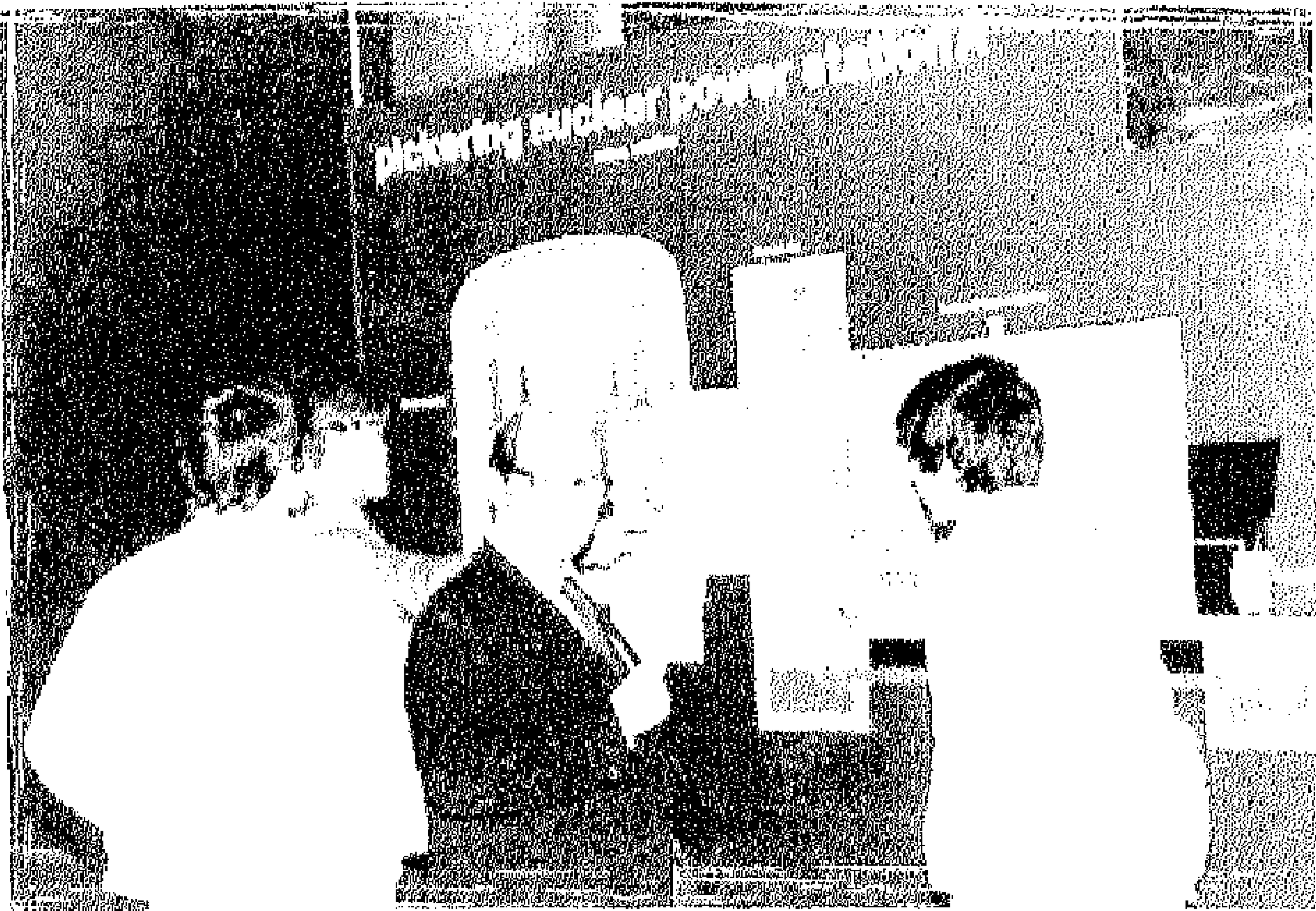


- ولد في عام ١٩٣٠م بمدينة المنامة.
- ختم القرآن في احدى الكتاتيب بالمنامة.
- درس بمدرسة عبدالرسول التاجر الأهلية سنة ١٩٣٦م.
- التحق بالمدرسة الخليفية بالمنامة للبنين (مدرسة ابي بكر الصديق حالياً) في عام ١٩٣٧.
- التحق في عام ١٩٤٠م بالمدرسة الثانوية وكانت تعرف حينذاك بالمدرسة الخليفية الثانوية.
- سافر الى بغداد للدراسة بمدرسة ثانوية الأعظمية في عام ١٩٤٥م،وبقي هناك مدة عام دراسي، عاد بعده ليعمل مع والده في امور التجارة.
- زار الهند وباكستان في عام ١٩٤٨م للتعرف على تجار البلدين.
- كان ضمن المستشارين الثمانية للهيئة التنفيذية العليا في عام ١٩٥٤م وتولى الأمانة العامة (لإتحاد العمل البحراني) منذ انشائه في عام ١٩٥٥م وحتى تاريخ توقفه في عام ١٩٥٨م.
- تولى رئاسة نادي العروبة في الفترة من عام ١٩٥٧م إلى عام ١٩٦٠م، ومن عام ١٩٧٢م إلى عام ١٩٧٤م.
- شارك في أنشطة غرفة تجارة وصناعة البحرين منذ عام ١٩٥٨م .
- انتخب في عام ١٩٦٩م أميناً عاماً لإتحاد غرف تجارة وصناعة إمارات الخليج العربي.
- شارك في إدارة (صندوق التعويضات التعاوني) كأمين سر من عام ١٩٦٥م إلى عام ١٩٧١م.
- عين عضوا في لجنة (المركبات والمواصلات) خلال عقد الستينات.
- عين عضواً في مجلس (أموال القاصرين) من عام ١٩٦٥م إلى عام ١٩٧١م.
- شارك في تأسيس الشركة الأهلية للتأمين سنة ١٩٧٦م.
- شارك في تاسيس البنك الأهلي التجاري سنة ١٩٧٧م.
- شارك في تأسيس أول سوق للأوراق المالية سنة ١٩٨٦م.
- عين عضواً في المجلس الأعلى للسياحة منذ إنشائه.

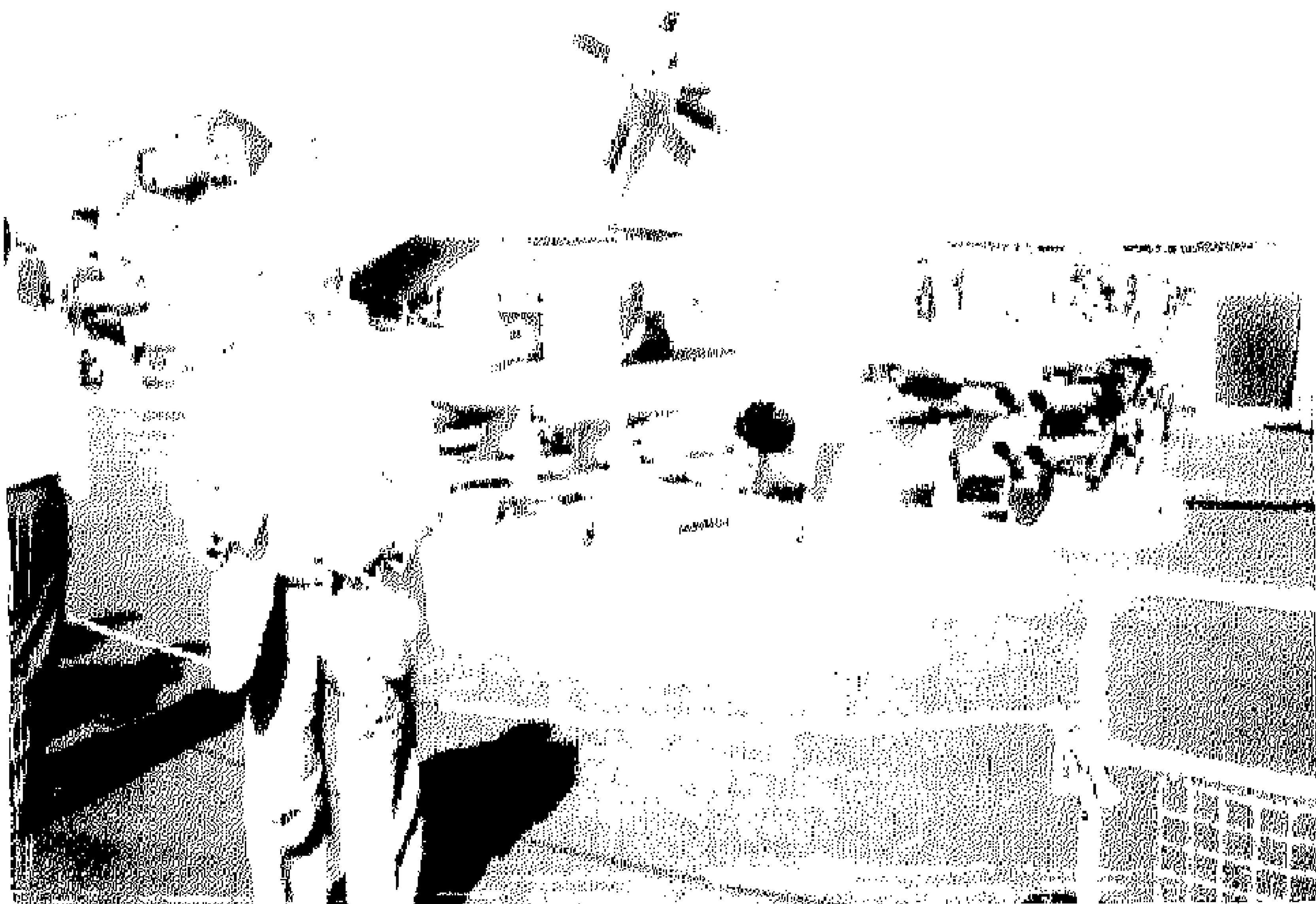
- شغل منصب سفير فوق العادة مفوض لدى جمهورية مصر العربية من عام ١٩٧١م إلى عام ١٩٧٤م، وعين رئيساً لبعثة البحرين لدى جامعة الدول العربية.
- أنعم عليه الرئيس أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية بوسام الاستحقاق من الطبقة الأولى في عام ١٩٧٤م.
- عين في عام ١٩٩٢م عضواً بمجلس الشورى، واستمر تجديد تعيينه في مجلس الشورى للفترات الثلاث حتى عام ٢٠٠١م.
- منح جائزة الدولة للعمل الوطني في عام ١٩٩٢م.
- أنعم عليه صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة عاهل البلاد بوسام الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة سنة ٢٠٠٢م.
- عين عضواً في اللجنة الوطنية العليا لإعداد ميثاق العمل، كما تم انتخابه عضواً في لجنة صياغة الميثاق عام ٢٠٠٠م.
- يشغل حالياً عضوية لجنة المساعدات الإنسانية التابعة لوزارة الشئون الإسلامية، وعضوية مجلس إدارة مطاحن الدقيق، وعضوية منتدى الفكر العربي في عمان بالمملكة الأردنية الهاشمية، وهو عضو في عدد من الشركات والجمعيات والمدارس الخاصة.
- له أربع مؤلفات منشورة هي:

- نادي العروبة وخمسون عاماً ١٩٣٩- ١٩٨٩م — صدر عام ١٩٩٠م.
- بنات الشعر (ديوان) — صدر في عام ١٩٩٦م.
- أوراق ملونة — صدر في عام ١٩٩٨م.
- في خاطري يبكي الحنين (ديوان) - صدر في عام ٢٠٠٣م.

- بدأ كتابة مقالاته الأدبية في مجلة صوت البحرين منذ عام ١٩٥٠م واستمر يكتب فيها حتى توقفها في عام ١٩٥٤، ولازال ينشر قصائده وبعض مقالاته في صحافتنا المحلية حتى يومنا هذا.
- كرمته اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع في مملكة البحرين رائداً من رواد الثقافة في البحرين في عام ٢٠٠٦م.


pickering nuclear power station


GOETHEMUSEUM
GOETHEHAUS





















في موقعه، وكل حسب إمكاناته.



شكر وتقدير

يتقدم مجلس أمناء مركز الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة للثقافة والبحوث واللجنة الأهلية لتكريم روّاد الفكر والإبداع في مملكة البحرين بخالص الشكر والتقدير لمطابع الرجاء بالمملكة العربية السعودية لمساهمتهم الكريمة في إخراج وطبع هذا الكتاب ودعم المشاريع الثقافية للمؤسسات الأهلية.



مطابع الرجاء
AL RAJA PRINTING PRESS
الخبر : تلفون : ٨٩٩ ١١٨٨ فاكس : ٨٩٩ ١١٧٧
البحرين : تلفون : ١٧٧٣ ٧٢٧١ فاكس : ١٧٧٣ ٧٢٧٠
info@salmangroup.com

مركز الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة

للثقافة والبحوث

